د. حنـــان لاشـين

كُوِيكُول

ⴽⵡⵉⴽⵓⵍ







ⴽⵡⵢⴽⵓⵍ



رواية

د.حنان لاشين



إهداء

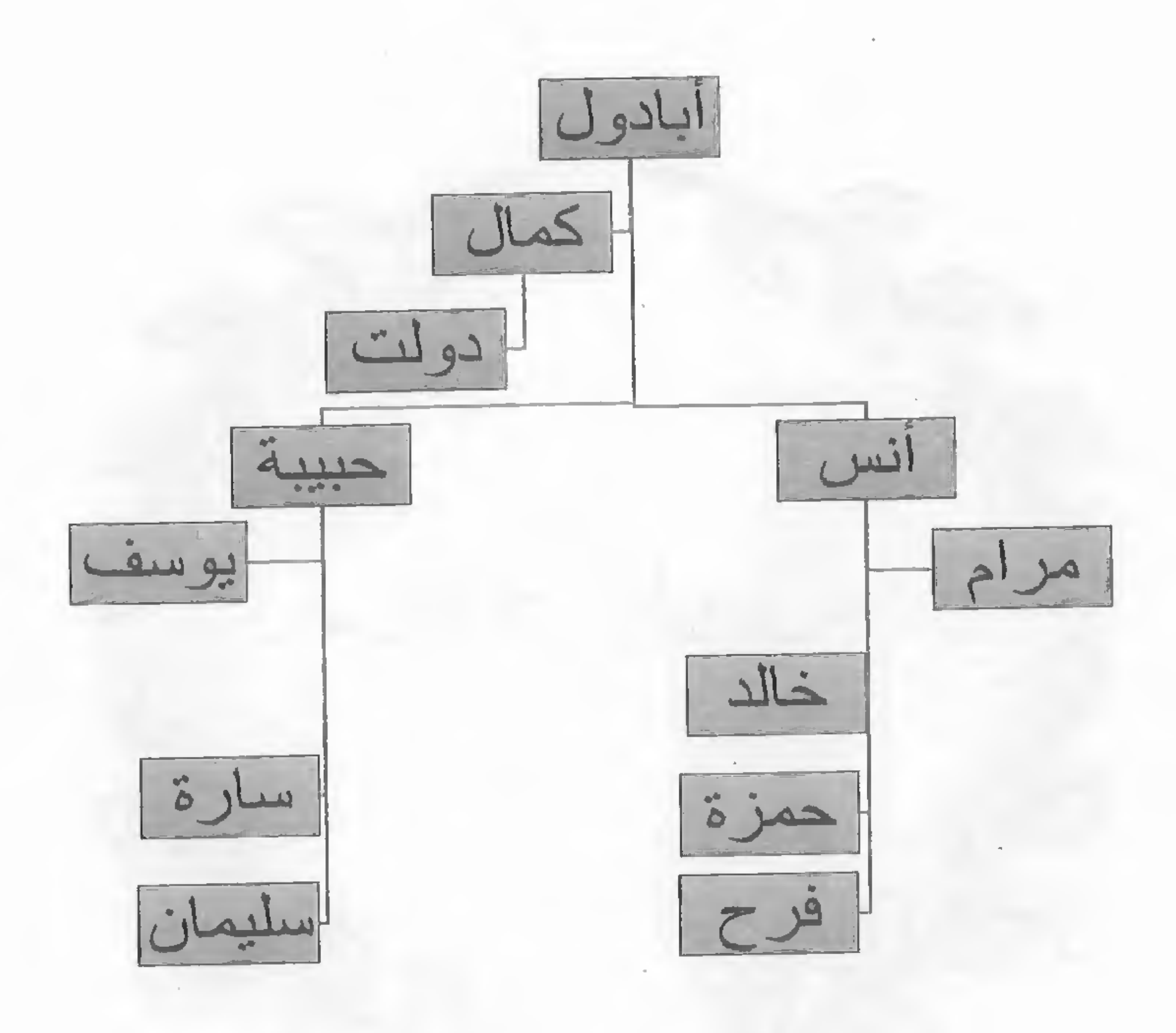
إلى المستبعدين.

«الحرية شمسٌ يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محرومًا منها عاش في ظُلمة حالكة يتّصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر»

مصطفى لطفي المنفلوطي.

النّظرات

عائلة «أبادول».


أبادول
كمال
دولت
حبيبة
أنس
يوسف
مرام
خالد
سارة
حمزة
سليمان
فرح

- ١ -

في بقعة من بقاع مملكة البلاغة...

بزغت الشّمس كقبلة ﴿ في ثغر الصّباح الباسم فكشفت اللثام عن سحب بيضاء مُتراصّة كعقد من اللؤلؤ يزيّن السّماء، الأرض يغمرها رداء مخمليّ أخضر، أصوات العصافير تنساب شجيّة من بين أغصان الأشجار، اندفعت حزمة من أشعة الشمس الذّهبيّة على أوراق أشجار السنديان الوارفة المحيطة بالبيوت، ثُمّ انزلقت على الأرض وكأنّها ترقص فوق العشب، وغمرت الطرقات، وكان الجوّ يعبق برائحة أزهار الياسمين.

مرّت ساعة، ثُمّ ساعتان، ثّمّ ضجّت الطرقات بالضّحكات، كل شيء هناك كان جميلًا وعذبًا. كانت أبواب البُيوت مفتوحة على مصارعها كعادة الجميع كلّ يوم، الصّبية ذوو الأقدام العارية يلعبون أمام البيوت وهم يضحكون في جذل. نسمات الهواء تدور من بيت لبيت، والأوعية النُّحاسيّة المعلّقة على جدران البيوت تهتزّ لتصدر صليلًا يُشبه قرع الأجراس، وكأنّها جوقة تعزف لحنًا شجيًّا. هُناك رجلٌ يبيع الحلوى يقف على طرف حشد صاخب، وعليه عباءة بلون المِلح، وشعره المجعّد يُطلّ من تحت عمامته، كان يردد الأهازيج والأشعار في طرب، بينما على الطرف الآخر كان هُناك شيخٌ له وجه بشوش لوّحته الشّمس يُشعل النّار في أعواد الخيزران ويلقيها في التّنور لتقوم زوجته العجوز بقلي الفطائر، أخذت

رائحة الفطائر تعبق بأروقة القرية، فأقبل الجيران ليبتاعوها منهما وهم في سرور.

أطلّ رجل مديدِ القامة له وجه عبوس بينهم فجأة، فهرب الصّغار إلى البيوت، وغلّقت الأمّهات الأبواب، وانصرف بائع الحلوى مسرعًا في فزع، وترك الشّيخ وزوجته الفطائر المقلية وهرولا نحو دارهما في خوف، حتّى رائحة الياسمين تبخّرت من المكان. أخذ يجول في الطّرقات، ونظرات البعض تُلاحقه.

كان ظهور هذا الرّجل بمثابة كسوف الشّمس وخسوف القمر، ظلمة وأمر مهيب يتطلّب الدّعاء حتّى لا تحلّ كارثة عندما يمسك بتلابيب أحدهم. مرّ بنفرٍ من الشّباب، كان بينهم ابن أكبر تجّار القرية، وكان لا يهابه كما يفعل الآخرون، وأراد الشّاب أن يُذيقه من نَفس الكأس الّتي يُذيقها للضعفاء عساه يعتبر ويرتدع، فقد كان هذا الرّجل يسخر من أصحاب الهِبات الّتي يمنحها الله لخلقه إكرامًا لهم، بسلبهم شيئًا صغيرًا في الدّنيا هنا، ليعوضهم هناك يوم اللقاء.

سَخِر الشّاب من طريقته في السّير، فاستشاط الرّجل غضبًا وكاد يوجّه إليه ضربة بقبضته القوّية، فصدّها الشّاب ودفعه في صدره، وهو يقول «هذا ما تفعله بغيرك!» امتعض الرّجل لقولهِ امتعاضًا شديدًا وزفر زفرة حارقة، ووقف يكزّ على أسنانه من فرط الغيظ، فهو يخشى أباه، فانصرف الشّاب وهو يرشقه بنظرات الاستهزاء. غربت الشّمس ولم يبقَ من ضوئها على حاشية الأفق سوى حُمرةٍ خفيفة، وهذا الرّجل يتأجج من الغيظ أمام داره، ولم يجرؤ أحد على توجيه كلمةً له طوال النّهار.

احتقن وجهه وكأنّ رأسه قدر يغلي بالدّماء ويُدخّن ويحترق. قرر الانتقام من الفرس البيضاء، فهو يراها السّبب في عرجته لأنّها أسقطته أرضًا منذ ثلاثة شهور، كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي يركب فيها الخيول، لم يستجب لنصيحة زوجته ألّا يفعل، فهو لا يُحسن ركوب الخيول، كما أنّ تلك الفرس جامحة، لكنّه صمّ أذنيه ولم يلتفت لكلامها، حتّى أنّه صفع زوجته بقوّة، فشقّ القرط أذنها، واتهمها أنّها تضمر له الشرّ تماما كما كان يظنّ ويرتاب أنّ أحد جيرانه يفعل، ولمّا رمته بنظرة ارتياب وكانت تعلم أنّه قد قتل جاره هذا في الخفاء، انهال عليها بالضّرب حتّى تورّم وجهها.

أحيانًا نلتقي بقلوبٍ كالصّخور، بل هي أشدّ قسوة، يبتلينا الله بها في تلك الحياة، ولولا قسوتها وضراوتها ما عرفنا قيمة القلوب الرّحيمة الّتي تحنو علينا فتطفئ لظى النّار الّتي تشتعل في قلوبنا بسبب هؤلاء القساة. كانت المهور الأربعة تئنّ وتنوح بينما أعينهم تُراقب ما يحدث لأمّهم، فقد أُضرم صاحبها النّيران في الحطب تحت قوائمها للتوّ، نظرت المهور متجاوزة أهل القرية المحلّقين حولهم إلى حيث كانت النّار تكاد تلتهم قوائم أمّهم، صهلت المسكينة وأخذت تتواثب في مكانها إثر لسعات لهيب النّار والحطب يُطقطق تحت حوافرها، دار تساؤل في رؤوس جميع الحاضرين، لماذا يحمل هذا الرّجل العداء والضّغينة تجاه الجميع؟ جيرانه، وأهل بيته، وحتّى خيوله! أخذوا يُحدّقون تجاهه بشيء من الرّهبة والخوف.

صعد أحد الشباب فوق سطح داره، كان يتلثّم بوشاح أسود، وقد لفّ رأسه بشال من الصّوف، كان له عينان زرقاوان وكأنّهما بحران رائقان هبّت فيهما عاصفة هوجاء، غضّن حاجبيه، ووضع سهمًا في كبد قوسه،

وأغمض عينه اليُسرى ومال برأسه قليلًا، ثُمّ سحب السهم إلى الخلف بيدٍ من حديد، وتنفّس ببطء ثلاث مرّات كما علّمه أبوه، ثُمّ صوّب السّهم نحو قلب الفرس مباشرة، أراد أن يُنهي حياتها سريعًا قبل أن تتعذّب بلظى النّار، فسقطت صريعة في الحال، وتدفّقت الدّماء من جُرح قلبها فأطفأت الحطب، وقف صاحبها يصرخ حنقًا وغضبًا، تلفّت الحضور باحثين عن الرّامي، لم يعثروا له على أثر، زمجر صاحبها وتوجّه وهو يدقّ الأرض بخطوات غاضبة نحو المهور الأربعة، سيحرقها الآن واحدًا تلو الآخر، تبًا لمن قتل الأمّ!

أمسك بأوّل المهور وجذبه بقسوة، كان يجرّه جرًا نحو الحطب ليُعيد إشعاله من جديد ويُحرقه، والمهر يُقاوم ويركله، رفع المهر قائمتيه الأماميتين ودفع الرّجل بهما نحو الأرض فازداد غضبه، هاج الحضور وماجوا، بدأ أهل القرية يصيحون عليه، أشفقوا على المهر، زمجر الرّجل غاضبًا وأخرج خنجره ولوّح به تجاههم فابتعدوا عنه، ووقفوا يُراقبونه وهم يغمغمون.قرر حمل الحطب إلى حيث كانت المهور تتلاصق ببعضها البعض وتتراجع خوفًا منه، ودقّات قلوبهم تتعالى وتتواثب في سرعة شديدة.

ظلّ الحضور صامتين، أخرسهم الهلع، كانت عصارة الخوف تجري في دمائهم، ادّعوا أنّ الأمر لا يهمّهم، وأنّ المهور سترتاح بموتها من شقاء الحياة، وخاصّة أنّ أمّهم ماتت وليس هناك من يحنو عليهم، بحثوا عن ألف عذر لخنوعهم، لم يُقدم أحدهم على منعه واكتفوا بالصّمت، فصاروا شُهودًا على جبروته وظلمه، وشاركوه الجرم وهو يرتكبه!

على سطح بيت آخر، أطلّ الشّاب ذو العينين الزّرقاوين مرّة أخرى، وثب بخفّة ورشاقة واقترب، وكان الجميع منشغلين بمتابعة ما يفعله هذا الزّنديق بالمهور، فسحب الشّاب سهمًا جديدًا وأطلقه على قلب الرّجل مباشرة، واختفى في لمح البصر قبل أن يلتفتوا نحوه، فسقط صاحب الخيول بين النّاس ولفظ أنفاسه الأخيرة، تزايد الزّحام حول جثّته، ثُمّ انطلق أهل القرية يبحثون عن الرّامي فوق أسطح البيوت، لم يعثروا له على أثر، كان قد نزع اللثام وألقى غطاء رأسه واندسّ بينهم على عَجل.

كانت ليلة جنائزيّة حالكة الجلباب رغم ارتياح قلوبهم لوفاته، وخاصّة أنّ الكثيرين منهم ذاقوا على يديه صنوفًا من العذاب، حتّى زوجته تنفّست الصّعداء، فقد أصابها بعاهة مستديمة في عينها اليُسرى، انشغل أهل القرية في دفنه، بينما ساق أحد أبناء هذا الرّجل المهور الأربعة إلى حظيرة بيتهم وربط قوائمهم بقسوة، وانضمّ إلى باقي العائلة ليقوم بدفن أبيه معهم، وهو يعزم على ذبح تلك المهور في اليوم التّالي، كان نسخة من أبيه، ورث منه قسوة القلب، وسوء الطّباع، حتى ملامحه الغليظة ووجهه المضرج بالحمرة، وحاجبيه المتقوّسين كشاربين كثيفين فوق عينيه الكابيتين، وقد انزوى فيهما الحقد والغلّ لكلّ نفس تسير أمامه على وجه الأرض.

الغضب أسر، والخوف أسر، والحزن أسر، وانشغال الفكر أسر، والشهوات أسر، والرّغبة في الانتقام أسر، حتّام سيظلّ البشر أسرى! ومتى سيتخلّصون من تلك الأغلال؟

نشر الفجر ضوءه الحاني على جنبات القرية، تسلل صاحب السّهام إلى الحظيرة، وحلّ أربطة المهور الأربعة، واقترب بعينيه الرّائقتين من عيني أوّلها، أطال النّظر إليهما ثُمّ ابتسم، كانت مقلتاها تبرقان كالمرآة،

وتلمع فيهما حفنة من اللؤلؤ، أخذ يهمس بحنوّ في أذن كلّ مهر منهم حتّى هدأ كرير صدورهم، فقد كان الأربعة خائفين، ثُمّ أخرجهم وركض أمامهم كطفل صغير ليشجّعهم على العدو خلفه، بسط ذراعيه وكأنّه يحاول الطّيران، فأخذت المهور تزيد من سُرعتها، وتركض، وتركض، سحبت أنفاسًا متلاحقة متوتّرة، ولاحقته ضبحًا، وسبقته في عدوها، فكان يتبعها وصدره يعلو وينخفض، سمع صوتًا مدويًّا وكأنّه صوت الرّعد فأجفل، تكاثفت السّحب البيضاء فوقهم، ودارت كما تدور اللآلئ وتتدحرج على صفحة السّماء، وتبعثرت وكأنّها تُشكّل صورة ما.

إنّها صورة «سيرين»! أُمّ المهور الأربعة، ظهرت صورتها كطيف يتهادى وقد تناثر حوله غبار ملوّن، كان الطيف يُشبهها تمامًا وكأنّها هي، بيد أنّ طيفها المرسوم هذا ظهر له جناحان يبدوان كرجفةٍ على وجه السّماء، وكأنّ السحاب الحاني أراد أن يُخفف عن أبناء «سيرين» الأربعة!

أطلقت المهور صيحة فرح تردد صداها في أرجاء الغابة الّتي دلفوها خلف هذا الشّاب، اصطك الرعد فجأة، وانقدحت البروق المتوالية في السماء، وبلل المطر الهتون ظهور المهور، فانتفضت أجسادهم وكأنّهم أُصيبوا بصاعقة، وبرز من جانبي كلّ مهرٍ منهم جناحان، وحلّقوا خلف تلك السّحب في السّماء، فشهق الشّاب واتسعت عيناه من فرط الاندهاش، حدّق كالمشدوه في المهور وهي تدور فوق رأسه بجناحيها، وكأنّها تودّعه وتشكر له رفقه بها، ظلّ على حاله وعيناه الزّرقاوان تدور معها في أفلاك السّماء، أشرف على الجنون، فأخذ يقهقه وحده، وعندما اختفت المهور الأربعة، جلس يمسح جبهته واسترسل في التّفكير.

مزيج من الشّوق والحنين كان يعتمل ‌في صدره، فهو يشتاق إلى والده، كان لا بدّ من القصاص من هذا اللئيم، فقد كان الشّاب واثقًا أنّ ثمّة شيء يجب القيام به، فقد تأكّد أنّ جارهم الغليظ هذا هو الّذي قتل والده بعد أن أذاقه صنوفًا من التّعذيب بساديّته المفرطة، فقد أخبرته زوجة هذا المأفون بما حدث، ودلّته على قبر أبيه وهي تبكي، ودّ لو كان له جناحان يُحلّق بهما ويبتعد كتلك المهور المجنّحة، فهو وحيد، لا أمّ، ولا أبّ، ولا شقيق، ولا صديق، كان يتوق للذّة الهرب إلى كون آخر، وعالم آخر، ليلقي بأوجاعه ويبعثرها في الهواء، ويتخلّص من غبار الذّكريات المؤلمة، جلس قرابة السّاعة حتّى ارتفع قرص الشّمس في كبد السّماء، هزّ رأسه وكأنّه ينفض عنها ما علق بها من خواطر، وعاد للقرية بعد أن أخفى قوسه وسهامه تحت شجرة بلّوط عتيقة.

وفجأة، أطلّ عليه حشد من أهل القرية، أشار أحدهم تجاهه وهم يقتربون وصاح قائلًا:

- هو..هو القاتل، اقبضوا عليه.

استدار الشّاب وأطلق العنان لساقيه، كان يركض وهو يكاد يُسابق الرّيح الّتي تلفح وجهه، يكاد يخرج من إهابه من شدّة السّرعة، والأفكار تتناطح في رأسه كالبروق المتوالية، من شدّة المفاجأة لم ينتبه لركضه نحو هاوية سحيقة بالمنطقة الجبلية الّتي خرج من الغابة مسرعًا تجاهها عندما رآهم يُطاردونه، لو لحقوا به سيقتلونه، ولو قفز سيموت!

شُلّ عقله عن التّفكير، سيتوقف ويُدافع عن نفسه، وسيحاول الهرب من تلك القرية الظّالم أهلها، توقف رغمًا عنه فانزلقت ساقاه بسبب ثقل جسده وهوى ساقطًا بسرعة شديدة وهو يصرخ نحو سفح الجبل، أغمض

عينيه، واستسلم لمصيره، وقلبه يخفق بشدّة، فاصطدم فجأة بجسد دافئ فتعلّق به، فتح عينيه فوجد نفسه على ظهر أحد المهور الأربعة، التقطه المهر بحركة خاطفة، وارتقى به نحو السّماء، ذّهل أهل القرية وهم يراقبون الشّاب وهو يبتعد مع المهور الأربعة وهم يحلّقون بأجنحتهم خلف السّحب البيضاء، ولم يعودوا لهذا المكان أبدًا.



وبعد سنوات..

«غابة الأطياف السّوداء»

بقامته المديدة، وبلحية بيضاء كالحليب، وبحاجبين سقطا على عينين واسعتين تسكنهما نظرات ثاقبة تنمّ عن روح شديدة الذّكاء، كان السيّد «حَيْدَرَة»[1] يحثّ الخطى وهو يتلفّع بردائه الحنطيّ اللون بعد أن خرج من المكتبة العظمى، وهو يخفي رأسه بقلنسوته حتى لا يستدلّ أحد على هويّته، عبر جسرًا متهالكًا وتلفّت حوله ثُمّ هرول تجاه غابة «الأطياف السّوداء» الّتي هجرها سُكّان مملكة البلاغة لكثرة الأقاويل عنها، فمن يدخلها لا يعود، سيموت لا ريب وسيختفي أثره، ولن يُعثر عليه مرّة أخرى في رحاب المملكة، ويبقى طيفه يجول بالمكان.

ظلّت تلك الغابة مأوًى لكبار المجرمين وقطاع الطرق لفترة طويلة، ولقد حدث فيها الكثير من حالات القتل، ويزعمون أنّها مليئة بالعقارب والأفاعي، كما أنّ هناك مشنقة معلقة في أحد أطرافها، ويقال أيضًا إنّها مسكونة، فقد مرّ بجوارها العديد من التّجار بقوافلهم، وكانوا يسمعون أصواتًا لأشخاص يستنجدون بهم، فهناك الآلاف من الأشخاص انتهت حياتهم في تلك الغابة الغامضة، هكذا يُقال منذ قديم الأزل.

---

(١) حَيْدَرَة اسم علم مذكّر بمعنى اليقظ الأبّي.

لم يجرؤ أحد على الدّخول إلى أرضها أبدًا منذ ذلك الحين، ولا بد أن تسري القشعريرة في جسدك عند مرورك بجوارها. يعتقد البعض أنها بوابة مفتوحة لعالم خفيّ تبتلع الكثير من الأرواح، قد تبدو طبيعتها ساحرة وهادئة بجُملة النظر من بعيد، ولكن للأسف هذا الجمال الفتّان يخفي الكثير من الأسرار، وكانت تقع على أطراف مملكة البلاغة حيث يلفّها الغموض.

كان «حَيْدَرَة» يسير وسط الغابة بخطوات واثقة، وسريعة، لم يظهر أفعوان واحد طوال مسيرته، ولم يسمع فحيحًا قطّ! ولا يبدو أنّ هناك عقارب تسكن تلك الغابة الّتي تعانقت وتشابكت فوقها قمم الأشجار السّامقة بفروعها وأغصانها فصنعت مظلّة سندسية عملاقة لوّنت أشعه الشمس المتسللة خلال فتحاتها بلون أخضر خلّاب رسم خطوطًا رفيعة مرتعشة على أرض الغابة المعتمة.

وصل السيّد «حَيْدَرَة» أخيرًا إلى حيث كان «المحققون» ينتظرونه، وقف الجميع فور أن أطلّ بوجهه جادّ الملامح، شحيح الابتسام، اصطفّوا بجوار بعضهم البعض عاقدين كفوفهم خلف ظهورهم، كان لـ«حَيْدَرَة» فم دقيق يوحي بالصرامة، ألقى التحيّة عليهم باقتضاب، رفع عينيه وتصفّح وجوههم بتمعّن شديد، كانت نظراته الّتي يتبادلها معهم في بداية كلّ لقاء تُعدّ تجديدًا للعهد بينه وبينهم.

لقد أمضى الكثير من الوقت ليجنّدهم ويدرّبهم، وأخضعهم للكثير من الاختبارات حتّى استطاع أن يمنحهم ثقته ليبوح لهم بما يعتمل في رأسه من أفكار قد تبدو شاذّة لباقي حرّاس المكتبة العظمى، فالأمر جدّ خطير، ولا بدّ من السريّة التّامة في تناول الأُمور الّتي يُطلعهم عليها،

كما أنّ باقي حرّاس المكتبة العظمى لا يعرفون شيئًا عمّا يدور بينه وبين المحققين، فقد حاز ثقة كبار الحراس منذ عهد مضى، وصار ذا مكانة خاصّة، وهم مطمئنون دومًا لأنّه «حَيْدَرَة» الّذي يثقون به ثقة عمياء. أحنى ظهره ببطء ليجلس على جذع شجرة مقطوعة وقال للمحققين بصوت رصين:

- مؤامرة أخرى تُحاك بليلٍ، والخطر يُداهمنا.

تبادل المحققون النظرات في صمت، أردف قائلًا:

- لا بدّ أنّ نُسرع.

قال أحد المُحققين:

- سنهتمّ بالأمر يا سيّد «حَيْدَرَة».

- لا بدّ أن يتولّى المهمّة فارس بارع، فتلك القبيلة رجالها صناديد أقوياء لا يقبلون الهزيمة، فهم أسود تزأر وقت القتال.

تنحنح «ميثاق» وكان رجلًا يجمع بين فضيلتي الشّهامة والذّكاء، وهو أقرب المحققين إلى السيّد «حَيْدَرَة» وقال بثقة وهو يلوّح بأصبعه في الهواء:

- هناك فارس حاذق انضم لفرقة «بيادق الظّلام» منذ شهر مضى، وسيشارك في المهمّة بنفسه.

رفع «حَيْدَرَة» حاجبيه وقال مستنكرًا:

- شهر واحد يا «ميثاق»! وهل هذا الوقت كاف لكي يسيطر على المجنّح الخاصّ به؟ تلك الفصيلة من المجنّحات تختلف عن أيّ فصيلة أخرى كما تعلم! كاد أمرنا يُكشف في المرّة السّابقة، لولا فرار المجنّح، لقد فقدنا أحد رجالنا.

تقدّم «مِيثاق» خطوة للأمام وقال بثبات:

- إذن.. سأذهب بنفسي لإتمام تلك المهمّة.

- فليكن هذا.

كان «حَيْدَرَة» يجلس مهمومًا، وعلى وجهه تقطيبة تنمّ عن الهمّ الشديد، أراد «مِيثاق» التّخفيف عنه فقال:

- سيّدي، «بيادق الظّلام» يعملون بإخلاص في الخفاء وقدّموا الكثير من التضحيّات، وتعلم حرصنا على اختيار كلّ فارس منهم، وهم يثقون بك ويؤمنون بمنهجك وطريقتك الّتي تُدير بها الأُمور.

غضّن «حَيْدَرَة» جبينه وقال بتوتّر:

- أخشى أن ينكشف أمري، سيغضب حرّاس المكتبة العظمى، وستكون نهايتي.

ران عليهم صمت مُطبق، أمدّهم «حَيْدَرَة» بما يحتاجونه من معلومات عن تلك القبيلة، وانصرفوا تباعًا واحدًا تلو الآخر، كانوا يتسللون من تلك الغابة المهجورة في جهات مختلفة، منفردين لا يلتفت أحد منهم لزميله، وكلّ منهم يحاول إخفاء آثار أقدامه قدر استطاعته، كانت ممرّات الغابة مغطّاة بالطحالب وأغصان الأشجار المنثنية والملتفّة على نفسها والمتعطشة للضياء، وكأنّها وحوش متأهّبة للانقضاض على من يدعسها بقدميه، كان المحققون قد تلثّموا ليخفوا معالم وجوههم، وقد كان كلّ محقق منهم من بقعة مختلفة عن الّتي ينتمي إليها صاحبه.

لكنّهم رغم اختلاف روافدهم قد تعاهدوا على كتمان سرّ زعيمهم «حَيْدَرَة»، الّذي جلس وحيدًا بعد انصرافهم متأمّلًا أشجار الغابة،

أغمض عينيه وأخذ يتنفّس بعمق، خالجه شعور مزعج، كان يعرف أنّ غابة الأطياف السّوداء صارت الآن معزولة عن أجواء المملكة، وكاتمة للأصوات، ما عاد المارّون يسمعون الصّراخ الصّادر منها.

ولا يستطيع أهل المملكة اختراق حدودها إلّا بإذن مالكها، وكان هو المالك والسيّد لها بعد أن تمكّن من السّيطرة على مالكها السّابق وأخرجه منها ذليلًا بعد عناء طويل، حتّى طيور المملكة لا يجرؤ أي منهم على التحليق فوق رحابها بأجنحتهم، لا الصقور، ولا النسور، ولا الهداهد بهيبتها، تذكّر كيف كانت تلك الغابة تضجّ بالحياة، لكنّه اضطرّ منذ عام لإجبار سكّانها على النّزوح منها ونقلهم لمكان آخر حتّى أصبحت الغابة مهجورة وموحشة.

مرّت لحظات عصيبة، وقف بعدها بصعوبة وهو يستند على عصاه، وخرج من الغابة متوجهًا نحو المكتبة العظمى وهو يتفكّر ويردد نفس السؤال الّذي كان يجول في رأسه دومًا:

«ماذا لو علم رفاقه من حرّاس المكتبة بهذا المكان السرّي وبما يفعله هناك؟ لا شكّ أنّه سيُعزل، أو ربّما سيَقْتُله «المغاتير»!



«سمُوس»

الرّباب الأبيض يطوف في السّماء، وكأنّه كرات برهافة القطن تطوف بنعومة حول قمم الجبال الشّامخة، اشتدّت الرّياح وبدأت ساقاي تهتزّان وأنا أحاول تسلّق هذا الجبل الأيهم[1] الّذي وصفه لي أبي بدقّة شديدة وكأنّه يحفظ كلّ حجر وشقّ فيه.

(١) الأيهم: جَبَلٌ أَيْهَمُ: عَالٍ، شَامِخٌ صَعْبٌ اِرْتِقَاؤُهُ.

كُنت أحمل تلك الحبال الّتي لا تبلى! والّتي ورثها أبي عن جدّي، والخطاطيف العجيبة والمختلفة الأشكال والأحجام، والشّباك ذات العقد المدهشة والّتي لم أرَ مثلها في حياتي. لا وقت للراحة، لا بدّ أن أصل إلى القمّة، فأمامي مهمّة أصعب وهي اختراق هذا الحجاب غير المرئيّ الّذي يمتد من قمم جبال «الخُرافة» المهيبة إلى عنان السّماء، ملتحمًا بغيومها العنقودية البيضاء الّتي تشبه أنصاف الكرات المتراصّة جوار بعضها البعض في نظام بديع، وكأنّها حبّات لؤلؤ تزيّن وجه السّماء، كان أبي دومًا يُخبرني أنّ كلَّ شيءٍ متّصلٍ بالسماءِ جديرٌ بالحبّ، فكُنت أعشق السّحاب، وأعشق المطر، وأعشق الشمس، والنّجوم، والقمر. دومًا كان يربط كلّ شيء بالحرّية، فالسّحاب جميل لأنّه حرّ، والطير رائع لأنّه حرّ، وكان دومًا يُنبّهني لتلك الحقيقة الّتي طال شرحها منه، يولد الإنسان حرًا، ولكنه في كل مكان يجر سلاسل الاستعباد خلفه، يبدأ الأمر بخطرة أو فكرة، فيقع في شرك تلك السّلاسل دون أن يشعر.

من آن لآخر كُنت أتحسس كتفي لأطمئنّ على قوسي، المنقوش عليه اسم المحارب النّبيل«يوغرطة»[1]، وجعبة السهام المذهّبة، يبدو أنني سأحتاجها هنا على أرض «مملكة البلاغة» كما قال لي أبي، الّذي كان حريصًا على تعليمي الرّماية، وعلى تعليمي كيفية تسلّق الجبال، وكُنت أتعجبّ من إصراره على هذا، فقد كُنت أعشق كرة القدم، لكنّه أصرّ على تدريبي باستمرار على تسلّق الجبال أنا وأخي، تعرّضنا أكثر من مرّة

(١) اسم أمازيغي يعني كبير القوم، أو الرجل كبير القدر. ويوغرطة رمزٌ من رموز نوميديا، ولد بمدينة سيرتا (قسطنينة في الجزائر) عاصمة نوميديا التي أسسها جدّه الملك ماسينيسا، تميّز يوغرطة بالذّكاء، والفطنة، وببنيته القويّة التي اكتسبها خلال تعلمه ركوب الخيل، والمبارزة، والصّيد، وكان يتمتّع بصفات القائدِ الناجح؛ ولهذا قاد حملات كثيرة قاوم فيها الاحتلال الروماني خلال هجومهم على نوميديا.

للخطر، سقطتُ، وجُرحت، وكُسرت ساقي مرّة، وكذلك كُسر ذراع أخي مرّتين، ولا أستطيع حصر عدد المرّات الّتي شُجّت فيها رأسانا! ولم ينثَنِ أبي أبدًا عن تدريبنا!

صارت جائزة إتقاني لتسلّق الجبال أن أذهب لتمرين كرة القدم في اليوم التالي، فكُنت حريصًا على إتقان الأمر لكي أحوز ما تميل إليه نفسي.ومرّت الأيّام، حتّى بلغتُ العشرين من عمري فأخبرني أبي أنّ هناك أمرًا غريبًا سيحدث لي، وأنّها مهمّة خاصّة بعائلتنا.

«أنت مُحارب».. كانت تلك الكلمة تتكرر يوميًا، حتّى أُمّي التي لم تطأ قدماها أرض مملكة البلاغة كانت تُناديني بالمحارب منذ بلوغي العشرين من عُمري! لقد صدّقتُ وآمنت بوجود هذا العالم وكانت تعلم تفاصيل رحلة أبي بدقّة فقد كان يشاركها أسراره.

مرّ عام، واثنان، وثلاثة، والعام الرّابع كان أطولها حيث تخرّجت في جامعتي بتقدير ممتاز، وكان أبي يترقّب لحظة اختياري كمحارب، وكذلك فعلت أمّي، ولم يزرنا هذا الصّقر الّذي أخبراني عنه، العام الخامس كان مليئًا بالمفاجآت.

كُنت أتهيأ للتدريس بالجامعة، حيث تم ترشيحي نظرًا لتفوّقي وتميّزي في دراسة التاريخ بجامعة العاصمة، وفي ليلة من ليالي الشّتاء الدّافئة حيث كنّا نجتمع ببيت جدّي تحرّكت الكُتب في مكتبته العتيقة، ورجف قلبي معها وهي تدور حولي ثُمّ تسقط فجأة على الأرض محدثة دويًّا مهيبًا قبل أن تُفتح بيد خفيّة لتتقلّب أمام ناظريّ، عندها تخشّب لساني في فمي، كانت صورتي تُنقش أمام عيني على صفحة الكتاب، ظهر الرّمز أيضًا وكُتب بـ«التّيفيناغ»[1].

---

(١) «التيفيناغ» هي الحروف الأبجدية للـ«تمازيغت»، أي اللغة الأمازيغية.

«سمُّوس».. خمسة، أنا المحارب الخامس في عائلتي، كان أوّلنا جدّي «عبد الله»، ثُمّ شقيق جدّي، ثُمّ أبي «زياد»، ثُمّ عمّي، وهأنذا وقد تمّ اختياري قبل أخي كالعادة لأنني الأكبر. بدأت رحلتي من بيت جدّي في الجزائر، ولا أدري أين ستنتهي.

الفيّوم

«نور»

البرق المعقرب يلمع في السّماء في خطوط متعرّجة تضرب الأرض بقوّة، أَغْضفت[1] السّماء فجأة، وبدأ المطر الدّفّاق يهطل بغزارة، كان الوميض يتذبذب ملامسًا خطّ الأفق العريض وكأنّه سيف من لُجين يضوي، ذُبحت شمس المغيب، وتدفّق من جرحها الشّفق الأحمر.

في غرفتها السّاكنة كان هناك شريط من ضوء المصباح الباهت يتسلل مترجرجًا من فرجة باب الغرفة السّابحة في رماديّة شاحبة، فقد أخذ النّهار يميل للأُفول. كانت «نور» تضع رأسها المُتعب على وسادتها، وعيناها النجلاوان تمشّطان سقف الغرفة في ترقّب، باتت تخشى الليل بشدّة، لا شيء يتردد برأسها سوى الصّداع والخواء، فقد اجتازت حدًا من التفكير ألقى بها في كوّة مفتوحة ترى منها أعاجيب نفسها التي لم ترها من قبل، فمنذ تلك الليلة المشئومة وهي في حالة بائسة هي ورفيقاتها الخمس، ليتها ما التقت بهنّ بالجامعة ولا شاركتهنّ تلك الطّقوس الغريبة التي أخبرنها أنّها ستجلب لهنّ السّعادة، لن تنسى أبدًا «القلْقَديس»، هذا الكتاب العجيب الذي تفوح منه رائحة العَرق البَشري،

---

(١) أغضفت السّماء أي لبسها الغيم وأظلمت.

وكأنّه كيان حيّ ينبض وينتفض ويتنفس، فغلافه الغريب له ملمس يُشبه ملمس جلد الإنسان!

اعتدلت في جلستها وتواثبت دقّات قلبها وهي تشرد نحو خزانة ملابسها، حيث أودعت كتاب «القَلَقْدَيس» بعدما أخذته من «حسّان»، لماذا الكتاب معها هي بالذّات؟ هي لا تدري بالضبط! أسرعت بإضاءة المصباح المجاور لفراشها وتلفتت في اضطراب، هي تكره هذا الكتاب الذي استدرجهن بسببه رجل غريب الأطوار، لديه وشم غريب أسفل عنقه، كنّ قد التقين به في متجر للكتب العتيقة، حيث كانت رفيقتها «غيداء» التي كانت أكثرهن جرأة تفتّش عن كتاب لتعلّم فنون السحر الأسود.

حتى الآن هي لا تدري كيف ذهبن لبيت هذا الرّجل الغريب وحدهنّ للحصول على هذا الكتاب؟ وكيف وثقن به لهذه الدّرجة!

رائحة الصدأ هناك ما زالت عالقة بأنفها، ما زالت تذكر كل التفاصيل، صوت خشب الأرضية الذي كلّما خطت عليه خطوة أصدر خَشخشات ما زال يطنّ في أذنيها، السّقف المبرقش ببقع العفن، أزيز الباب المخيف وهو يُغلقه ما زال يتردد حولها، رفعت كفّيها ووضعتهما على أذنيها بانزعاج شديد وكأنّها تسمعه مجددًا في تلك اللحظة. أغمضت عينيها لتجترّ تلك اللحظات، كيف شبّكن أيديهن وهنّ يشكلن حلقة ليتواصلن معًا وجدانيًا، وتتوحّد قواهنّ الرّوحية، لن تنسى أبدًا ارتجافات كفوف رفيقاتها الّتي كانت مبللة بالعرق البارد، وصوت «حسّان» الأجشّ وهو يردد طلاسمَ غريبة، وكيف كان يلهث محمومًا وهو ينطق بها، وهذا النداء الغريب الذي انزلق على ألسنتهنّ فجأة: «ماذريون... ماذريون.. ماذريون»

ثُم هذا الخفقان في قلبها، وتلك الرّجرجات العنيفة والمتتابعة، وألم الرّأس وكأنّ أحدهم يدّق جمجمتها بمطرقة، ثُمّ انزواؤها في داخل نفسها وكأنّها لا شيء، وحضور كيان آخر يسيطر عليها، تسمعه وهو يتحدّث، لكنّها تعجز عن الكلام... إنّها «رَيْهُقانة»!

كانت «نور» تلازم رفيقاتها الخمس وتوافقهن على ما يفعلنه، حتى أنّها أهملت دراستها كما يفعلن، وقد تكرر رسوبهنّ، وانتقلت للإقامة معهن في شقّة «غيداء» الفاخرة وبدأت تقلّدهنّ في طريقة الملابس، وفي السلوك، وكلّما طرحت إحداهن فكرة غريبة اكتفت بحركة من رأسها إشارة للتأكيد على موافقتها لها، رغم أنّها لم يسبق أن آمنت بهذا النوع من الأفكار.

اقتربت من النّافذة، بدأت الرّياح الرّيدانة[1] تحرّك خصلات شعرها الفحميّ المنسدل على كتفيها، ما عادت ترتدي الحجاب كما كانت تفعل قبل وفاة والديها، وها هي الآن تتشح بالسواد كما تفعل رفيقاتها، لكنّها الآن لا ترتديه حدادًا على وفاة أهلها، بل ترتديه لتؤكد انتمائها إليهنّ، وإلى تلك الفرقة الغريبة التي قرأن عنها على شبكة الإنترنت. كانت ترسم عينيها بخطّ سميك أسود طمس تلك البراءة التي كانت تسكن عينيها منذ طفولتها، حتّى أنّها صبغت شفتيها الرقيقتين بنفس اللون الأسود، أمّا طلاء الأظافر فكذلك هو أسود، صارت غُدافية[2] الإهاب.

اقتربت من المرآة وتحسست الوشم الذي ظهر على عنقها في تلك الليلة الدّهماء، ضغطت عليه وهي تكزّ على أسنانها، تودّ لو انمحت

---

(١) الرّياح الرّيدانة: اللينة.

(٢) الغُداف هو الغُراب شديد السّواد.

معالمه واختفى من مكانه. أحيانًا تشتاق لنفسها القديمة، لكنّها سرعان ما تنزلق مرّة أخرى لعالمها السوداوي نظرًا لضعفها وهشاشتها وخوفها الذي ضعضع عزيمتها.

كانت «نور» بعد وفاة والديها في حادث أليم قد انتقلت لتقيم مع جدّتها لأبيها، أصرّ عمّها على هذا رغم أنّ خالتها أبدت استعدادها لاستضافتها في بيتها، أخبرته الخالة أنّها تُحبّ «نور» وستعاملها مثل ابنتها تمامًا، لكنّه أصرّ على اصطحاب «نور» لبيت أمّه، فانتقلت معه مرغمة والانكسار يملأ فؤادها المكلوم، فهو العائل والمسئول عنها الآن، ولا تملك أمامه إلّا الطّاعة والصّمت.

لازمها الشعور بالخوف الشديد والتهديد، فقد فقدت الأمان بموت أسرتها المفاجئ، كما أنّها عانت وهي تراقب شقيقها الوحيد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة متأثّرًا بجراحه إثْر هذا الحادث، أرادت أن تزور طبيبًا نفسيًا لكنّها لم تتمكّن من ذلك، فعمّها يرى زيارته وصمة عارٍ وشيئًا غير مقبول وسيسيء إلى سمعتها وسمعة بنات عمّها!

توسّلت إليه فأنهى الحوار معها بنظرة حازمة، وصوت صارم، وقرر من تلك اللحظة أن يقسو عليها لتستقيم، فهو يرى هذا أفضل لكي تتعافى من آثار أزمتها بسرعة، وكان مخطئًا للغاية، فقد نفضت يدها من الرّجاء فيه، وأضمر اليأسُ منها.

استسلمت «نور» لوسوسات شيطانها الذي لازمها وخاصّة كلّما غَضِف الليل، فالليل يعني أنّها في أقصى حالات ضعفها ووحدتها. أخطأت عندما اهتزّ إيمانها بمراد الله من حياتنا هنا، نسيت أننا جميعًا سنموت، وأنّ حياتنا الحقيقية هناك في طرف آخر من جسر الحياة الذي نعبره بتؤدة،

وقد يسقط أحدنا من بيننا فجأة بقدره المحتوم، لكننا على يقين أنّه سبقنا وموجود هناك، حيث سنلتقي مرّة أخرى بإذن الله.

حزنها الشديد على أسرتها الحبيبة أصابها باليأس، كانت تحتاج لجرعة من الأمل، لكي تتمكن من إكمال رحلتها، فالحياة لن تخلو من الحبّ، حبّ خالة، وحنوّ عمّة، ورفق صديقة، وربّما مستقبلًا في احتواء زوج قد ينتشلها من غيابة الجبّ بحنانه وحبّه، وحلاوة أمومة هي لم تعرفها بعد، وقد يعوّضها أولادها يومًا ما عن أسرتها التي فقدتها في هذا الحادث الأليم، لكنّ وقودها الإيماني كان قد نفد، وكانت تحتاج لدواء حتى يبرأ جرح قلبها، لكنّها لم تجد من يداويها.

تركت الدعاء لوالديها، حتّى أنّها صارت تلومهما على موتهما! أصبحت ملامحها واجمة وكأنّها دمية قماشية ألصق بوجهها عينان من زجاج، ازدادت انعزالًا ووحدة وغموضًا وكأنّ هيكلها العظمي قبر متنقل بين النّاس وقد دُفنت فيه روحها الهشّة، نهش الحزن قلبها نهشًا، لم تتمكّن جدتها من احتوائها فقد تخطت الثمانين من عمرها، ونفد مخزونها من صبر الجدّات على سرد الحكايا الحلوة والذّكريات اللطيفة لأحفادها حين كانوا صغارًا، والإنصات إليهم عندما يكبرون، ما عادت تتلذذ بالإنصات للمسكينة «نور»، وربّما لأنّ حفيدتها «نور» كانت غريبة عنها، نظرًا لغربتها مع والديها في بلد خليجي لسنوات.

ترى الجدّة أنّها أدّت رسالتها نحو أبنائها، وتحتاج الآن لمن يرعاها، وقد أهداها الله حفيدة هيّنة ليّنة لتقوم بتلك المهمّة. لكن ذلك كان في البداية حين بدا كلّ شيء في «نور» ينمّ عن اللطف والوداعة، وكان هذا قبل قسوة عمّها وقبل لقائها بـ«غيداء»، التي كانت تحنو عليها، وتنصت

إليها، وتبدي التعاطف والاهتمام، هي وبقية الفتيات، فوجدت «نور» فيهنّ ملاذها الوحيد فأعطت الجميع ظهرها واكتفت برفقتهنّ. لم يكن هُناك من يحول بينها وبين خُلطاء السّوء وعُشراء الشرّ.

قد يكون البعض كئيبين، خاطئين، مُذنبين في عيون الآخرين، فيزهدون فيهم، وينفرون منهم لأيّ سبب كان! إمّا لجوهر لم يعجبهم، أو لمظهر لم يُرضهم، كسلوك خاطئ، أو سقطة، أو مجرّد اختلاف! وربّما لحزن يُطل من النّفوس على الدّوام، حينها فقط سيقبلون على تلك العيون الأخرى الّتي تبرق في أحداقها صورهم المرتعشة والباهتة، مهما بلغت تلك الأحداق من السّوء، وقد تكون تلك الأحداق لصُحبة سوء تجرّهم جرًّا للهاوية! فيكون هؤلاء الّذين قسوا ونفَّروا في البداية سببًا لضياع هؤلاء المساكين في النّهاية، وقد تكون التقطيبة وزفرة الضّيق هي الدّفعة الأخيرة لمن تراه مختلفًا عنك نحو الضّياع، فمتى سننتبه لردود أفعالنا عندما نلتقي بهؤلاء المختلفين على الطريق؟ ومتى سيبلغ الإحسان منّا مبلغًا يدفعنا لقبولهم والصّبر عليهم لعلّهم يثبتون، وتبرأ جراح نفوسهم، ويتغيّرون للأفضل؟

في قلوبنا مساحات ضئيلة ربّما، لكنّها تتسع بالودّ للآخرين. هزّت «نور» رأسها وهي تقترب أكثر من حافّة النّافذة، كانت تعلم أنّ هبوط الليل يعني أنّ روحها ستُحبس في زاوية مظلمة بهيكلها الرقيق الذي كلّما ازدادت السماء ظُلمة وحلكة أخذ يرجف.

حتى متى ستظلّ أسيرة للخوف هكذا؟! وكيف ستتحرر من هذا القيد؟ فهي تعلم أنّ هناك امرأة أخرى تسكنها كلّ ليلة، وأنّ اسمها «رَيْهُقانة»، لكنها لا تدري لماذا تسكنها، ولماذا في الليل بالذّات؟ وما الذي تُريده منها.

صوت هسيسها المنبعث من صدر «نور» كان يتردد في رأسها كدويّ النحل بلا انقطاع، تنادي دائمًا على «حَمزة»، وهي لا تعرف من هو هذا الشّاب، لكنّها تعرف أنّها ستخرج بعد قليل لتبحث عنه وتتبعه طواعية لأمر «رَيْهُقانة»، ورغم أنفها ستسير إليه، ولن تتمكن من الاعتراض، فقد حاولت الصراخ لكنّ صوتها لا يخرج من حنجرتها.

طلبت من جدّتها العون، لكنّها لم تُصدّقها، أخبرتها عن تلك الكوابيس التي بدأت تراها، تغيّر صوتها وتحدّثت بصوت «رَيْهُقانة» فنهرتها الجدّة وصارت تغلق باب غرفتها على نفسها من الدّاخل بالمفتاح كلّ ليلة خوفًا منها ووصفتها بالجنون، مما اضطرّ «نور» للرحيل وترك البيت وهي لا تعلم أنّ هذا سيكون بداية لغربة أكبر، وتيه أوسع، ووحشة أثقل، وخطرٍ أشدّ.

ركضت المسكينة نحو رفيقاتها اللاتي أصابهن مثل ما أصابها، فكلّ واحدة منهنّ تشكو من نفس الأعراض بسبب ساحرات ماذريون، انتقلن بداية لشقّة «غيداء»، ثمّ قررن الانتقال إلى «الفيّوم» بأمر من «نور»، وكان الأمر حقيقة من «رَيْهُقانة» التي تسيطر عليها وتولّت زعامة الفتيات، فقد استدلّت على مكان بيت «أبادول» بمساعدة «حسّان»، كانت «رَيْهُقانة» قد أحكمت السّيطرة عليه وعليهنّ. لكنّ الأمور ساءت، فساحرات «ماذريون» هنا لم يتمكّن من استخدام قواهنّ كما كنّ هناك على أرض «مملكة البلاغة»، وصار سلوك الفتيات غير المنضبط والعشوائي والخارج عن المألوف لافتًا للنظر بشكل كبير، وأصابهنّ المرض والصّداع والدوار والإغماء، فتفرّقت الفتيات، وبدأ الأهل يتعاملون مع الأمر بطرق مختلفة، بعضهم رأى ابنته مريضة نفسيّة وتم إلحاقها بمستشفى خاصّ وفي سريّة

تامة، وأخرى تتنقل مع أبيها من شيخ لآخر ليقرأ عليها آيات القرآن، والثالثة عادت لقريتها فقد كانت تسكن في بيت للطالبات وما عادت مقبولة بسلوكها الغريب، والرّابعة اختفت وتلاشت وتلاشى معها رقم هاتفها وكأنّها تبخّرت في الهواء!

وبقيت «نور» و«غَيداء» متواصلتين، كلتاهما تشكو من الكوابيس، خاصّة بعد جثوم الليل، وهطول سواده. كانت «غَيداء» طريحة الفِراش دومًا، وكانت وحيدة فوالداها منفصلان، وقد انفصلت هي الأُخرى عنهما في السّكن بعد دخولها الجامعة، ولم يعترضا! فقد كانت تسبب لكلّ منهما المشاكل مع شريك حياته الجديد، فأغدق عليها والدها بالمال ومنحها شقّة لتبتعد، وأزاحتها أمّها القاسية لتحافظ على حياتها الخاصّة، فصارت شقّة «غيداء» مقرًّا لتجمّع الفتيات قبل أن تظهر «نور» في حياتهنّ.

ازداد مرضها، وكانت تهلوس باستمرار. بقيت «نور» معها في تلك الشّقة التي استأجرنها حديثًا بالفيّوم، وتنتظر كلّ ليلة هبوط الظلام لتجوب شوارعها، وكأنّها تعرفها وتحفظ كلّ شبر فيها! بخطوات ثابتة ومفعمة بالقوّة، وعيناها تبرقان وسط الظلام، بينما تعقص شعرها الفحمي النّاعم خلف رأسها، وتسير بسترة جلدية سوداء انتزعتها من «غَيداء» بلا استئذان. كانت «نور» لافتة للأنظار وهي تدقّ الأرض بكعب حذائها الأسود الطويل، فاتنة كانت، ولكنّ لا يجرؤ أيّ شخص على الاقتراب منها، فهي تبدو مريبة وشديدة الشراسة والغموض.

تمكّنت «رَيْهُقانة» من السيطرة على «نور» بالكامل، وكانت الأضعف نفسيًا من بين الفتيات، الخوف الشديد القابع بين عينيها، وهوانها،

«حسّان»

حفنة من الغيوم الرّمادية كانت ترسل ماءها ثجاجًا لتغرق كلّ شيء، المطر يجلد النّوافذ، الأشجار تنحني وأغصانها ترتعش، والرّياح تنوح وتطرق مصارع النّوافذ على جدران البيوت بقوّة، فأسرع السكان بإغلاقها، وخلا الطريق من المارّة في غضون دقائق، كان «حسّان» يركض وهو يجوس بعينيه في خوف، ترى ما الّذي قلب حاله!

كان دائمًا هو الطرف الأقوى، الطرف الذي يستطيع أن يخلع قلب من أمامه بنظرة واحدة، منذ أن انزلقت قدماه لعالم السّحر الأسود وهو يزداد قوّة وغموضًا وخبثًا يومًا بعد يوم، أما الآن، وبعد حديثه الأخير مع «رَيْهُقانة» صار يتخبط في حيرة وخوف شديدين، فهي تحاول الوصول لـ«حمزة» باستمرار، لكنّها لم تتمكن من السيطرة عليه، مما زادها غضبًا وتمرّدًا وشراسة.

كانت «رَيْهُقانة» سخيفة وصبيانية في أفعالها وهي تحتل جسد تلك الفتاة المسكينة وصارت تستخدمه وكأنّه معطف ترتديه غير آبهة لكينونتها، لم يكن في حسبانه أنّ الأمور ستخرج عن سيطرته، لم يتوقّع أن تنهار الفتيات تباعًا، ظنّ أن استحضار ساحرات «مَاذريون» سيُكسبه القوّة والنفوذ ليحوز مكانة أكبر في عالم السحر هنا وتعلو منزلته، لطالما حذرته أمّه من القراءة والتفتيش في كُتب السّحر وهو شاب يافع.

شعر بعصرة في صدره عندما تذكّر ما قرأه في كتاب «العَزيف»[1]

(١) كتاب العَزيف هو كتاب خيالي أنشأه كاتب الرعب الأمريكي «هوارد فيليبس لافكرافت» من تأليف شخصية خيالية في رواياته، وهو شاعر عربي من صنعاء اسمه عبد الله الحظرد، والملقّب بالعربي المجنون. وأطلق عليه اسم Necronomicon نيكرونوميكون، والعزيف هو صوت الجن، صوت الرّمال وهي تتساقط فوق بعضها، وصوت الريح عامة.

الّذي يتحدث عن الكيانات القديمة وتاريخها وكيفية الاتصال معها واستحضارها، وأن من يمتلك هذا الكتاب ناقصًا سوف يموت بطريقة مفزعة لا يتخيلها أحد، وكان قد حاز بالفعل على نسخة ناقصة منه..

ظنّ أنّ «ساحرات ماذريون» سيساعدنه ويكنّ خادمات له، بعد فشله في استخدام قوى «الدّواسر» من قبل، لكنّه أخطأ بحماقته فيما أقدم على فعله، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يطبّق فيها طقوسًا شيطانية دون الرجوع لكبير السّحرة الذي قد تتلمذ على يديه، والآن يأبى معاونته.

بالكاد يستطيع «حسّان» التملّص من مطاردة أهالي الفتيات له، تحوّلت حياته إلى جحيم، حتّى أُمّه ماتت في فراشها منذ يومين وتركته ليلقى جزاء عمله وحده، ترك مسكنه فورًا، وانتقل ليقيم في غرفة بائسة فوق سطح منزل قديم آخر، لا يختلف كثيرًا عن مَسكنه السّابق. عندما صعد الدّرج لمح طيف «نور» يتهادى أمام باب الغرفة على السّطح، كاد يُسرع بالفرار هابطًا الدّرج قبل أن تشعر بحضوره، فهو لا يُريد لقاء «رَيْهُقانة» الّتي تسكنها ليلًا، ولا يودّ الحديث معها، لكنّها استدارت ونادته بصوت حاد:

- «حسّان»!

التفت ببطء وشحب وجهه فجأة، وقف أمامها كالصّنم، لم ينبس ببنت شفة، أردفت قائلة وهي تخترقه بنظراتها القاسية:

- لماذا انتقلت من مسكنك دون أن تُخبرني؟

وقف أمامها يتخبّط في اضطراب، كان وجهه يُشبه كرمة العنب الذّابلة، حاول ترديد تعويذة تقيه منها ولم يفلح، كرر الأمر وردد طلاسمَ ليصرفها ولم يُفلح، لاحظت أنّه يتمتم بشيء ما، فزجرته قائلة:

- كفّ عن ترديد تلك التعاويذ أيّها الأحمق! ما الّذي حدث لك؟

قال بتلعثم:

- ماتت أُمّي منذ يومين، وكان لا بدّ من ترك البيت، فأهالي الفتيات يطاردونني، وكُنت على يقين أنّك ستعثرين عليّ.

ثقبته بنظراتها، فأسرع يفتح باب الغرفة، دلفت خلفه وجلست قبالته على الطاولة، ووضعت بينهما كتاب «القَلْقَديس» الذي كان بحقيبتها، ورشقته بنظرة اخترقته فارتجّ لها، فارق كبير بين هيئة «نور» وهي على طبيعتها، وبين هيئتها الآن وقد تلبسها كيان «رَيْهُقانة» الأثيري المُتمرّد، قالت بغضب وهي تشير لجسد «نور» الذي تسكنه:

- هذا الجسد لا يُلائمني، الأمور لا تسير على ما يرام هنا، كرهت عالمكم.

زفرت بحنق وأردفت غاضبة:

- أحتاج للمزيد من القوّة، ولا بدّ أن تُساعدني.

- وكيف سأساعدك؟

كانا يتحاوران بحذرٍ وكلاهما يتشمم الآخر كذئبين جائعين يودّ كلّ منهما أن يفترس الآخر، طالعته بتحفّز وقالت:

- قوّة زعيم الدّواسر كانت كافية لكي أنتقل إلى عالمكم وحسب، بالكاد أسيطر على جسد تلك البائسة، ولم أتمكّن حتى الآن من الحديث أو التّخاطر مع «حمزة»، وباقي ساحرات «ماذريون» الفاشلات عجزن عن استخدام قواهنّ حتى الآن.

- تعرفين أنّهن أضعف منكِ، فأنتِ قد حُزت قوّة زعيم الدّواسر.

صاحت غاضبة:

- حمقاوات!

- وما الحل؟

فتحت كتاب «القَلْقَديس» وقالت بصوت يشبه حفيف أوراق الأشجار:

- ستعرف الليلة.

أخرجت تلك الجمجمة التي كان «حسّان» قد اشتراها بثمن بخس مع جماجم أخرى من حارس المقابر الخبيث الّذي كان يسرقها من الأكفان ثُمّ يبيعها لطلاب كليّة الطب، وكان هذا من ضمن طقوس «حسّان» لاستحضار «ساحرات ماذريون»، والتي كانت تسكنها «رَيْهُقانة» نهارًا حتى يحلّ الليل فتخرج منها لتسكن جسد «نور».

وضعت «رَيْهُقانة» الجمجمة على يسارها، وأغمضت عينيها وسكنت مكانها وكأنّها تمثال من نّحاس، فاقشعرّ جسد «حسّان» وهو يترقبّ ما ستفعله، ثلاث ساعات ثقال مرّت عليه وقد اسودّ وجهه وغرقت ملابسه بالعرق، كان باب الغرفة يُفتح على فترات متباعدة.

دلفت «غيداء» أولًا فقد كانت الأقرب للمكان، ثُمّ تبعتها الباقيات، حتى تلك الفتاة التي اختفت منذ فترة في غموض وصلت في النّهاية، واجتمعن كما حدث من البداية، استطاعت «رَيْهُقانة» استدعاء رفيقاتها السّاحرات بطريقتها الخاصّة، وجلسن في حلقة، وأخرجن الجماجم الخاصّة بهنّ ووضعنها على الطّاولة، وشبّكن أيديهن، وكانت «رَيْهُقانة» هي من تردد الطلاسم هذه المرّة، ارتفع الكتاب في الهواء وصدرت عنه غمغمات مخيفة، وانبثق ضوء أصفر من بين دفّتيه، فتراجع «حسّان» حتى التصق ظهره بالجدار.

رأى «رَيْهُقانة» الآن بصورتها التي كانت تظهر بها لـ«حمزة» على أرض مملكة البلاغة بكيانها الأثيري الملوّن وهي معلّقة في الهواء، دارت بينها وبين رفيقاتها من ساحرات «ماذريون» معارك طاحنة، وقد أخرجتهنّ من أجساد الفتيات واحدة تلو الأخرى وبقي «حسّان» يُراقبهن في هلع، وقد جحظت عيناه واستحال جلده جلد إوزّة، خدعت «رَيْهُقانة» باقي ساحرات «ماذريون» واستدرجتهن لتقتلهن تباعًا بمكرها الشّديد لتكتسب المزيد من القوى، كما فعلت من قبل.

سقط الكتاب على الطاولة فأحدث دويًا مُرعبًا، كانت الفتيات قد فقدن وعيهن، وتهاوت أجسادهنّ على أرض الغرفة واحدة تلو الأخرى، التفتت «رَيْهُقانة» حيث يقف «حسّان»، وطالعته بنظرة انخلع لها قلبه، وقالت بتنمّر:

- أيّها البائس، جاء دورك.

عادت «رَيْهُقانة» لجسد «نور»، وبدت «نور» وكأنّها تفيق من الإغماء واتّسعت حدقتا عينيها بشكل مريب، وألقت على «حسّان» تعويذة عجيبة حوّلته لخادم مطيع لها لو أمرته بقتل نفسه لفعل في الحال، كان يتنفسّ وحسب.

ثُمّ وثبت وهي تحمل الكتاب وانطلقت خارجة من باب الغرفة مخلّفة وراءها خمس فتيات تحررن من أسر ساحرات ماذريون للتوّ، وأمامهن بضع دقائق ليفقن وتعود كلّ منهن لحياتها السّابقة مع بعض الذّكريات المخيفة، إلّا تلك المسكينة «نور» التي كانت تسكن هيكلها الرقيق وتتحرّك به، غمغم «حسّان» وتبعها، كانت عيناه مفتوحتين على وسعهما وهو يسير خلفها في آلية عجيبة.



-٢-
«بيت أبادول»

مدّ الليل رواقه المُعتم وأرسل غيومه كطلائع الجيش الزّاحف، ما زالت السّماء هائجة صاخبة، تجلجل رعودها، وتعصف رياحها حول بيت «أبادول» حتّى كادت تقتلع أشجاره وتبعثر زهور حديقته. رفعت «سارة» رأسها المتعب بعد نهار طويل قضته بجوار جدّها الحبيب «أبادول» الذي اضطرت الأسرة لنقله إلى البيت ليتناوب الجميع على رعايته، شهران مرّا منذ دخوله في تلك الغيبوبة وهم يراقبونه في صمت، ملأ اليأس قلوبهم وهم يراقبون حاله الذي كان يزداد وهنا وضعفًا يومًا بعد يوم، وقد بقي شبح الموت يطوف فوق رأسه، وكان قلب «سارة» يتمزق حزنًا على جدّها الأكبر، فهي حنونة كأمّها «حبيبة».

بالقرب منها كان شقيقها الصّغير«سليمان» يغفو على الأريكة، كان ينتظر عودة والديه بجوارها، فهو شديد الارتباط بها.

أمّا أبناء «أنس» الثّلاثة فقد انشغل كلّ منهم بأمر مختلف، كانت أصغرهم «فرح» ترسم وتلوّن بشغف، بينما كان أخوها «خالد» يقرأ كتابًا علميًا بنهم شديد كعادته، أمّا «حمزة» فقد كان مسترخيًا وقد أسند رأسه إلى كفّيه المعقودين خلف رأسه وهو يحدّق في سقف الغرفة، كان يعيش حالة من الهدوء النفسي بعد أن ذابت الحواجز بينه وبين أبيه، كما أنّه تخلّص من الكثير من المخاوف الّتي كانت عالقة بروحه منذ صغره،

لقد نضج كثيرًا بعد رحلته إلى مملكة البلاغة، والآن عقد العزم على أن يهتمّ بدراسته الجامعية، لا بدّ أن ينجح هذا العام.

كان «أنس» يتحدّث مع أبيه وأمّه بينما كانت «مرام» تناولهم فناجين القهوة التي أحضرتها للتوّ. لقد قرّب مرض الجدّ الأكبر بين أفراد الأسرة، وصار بيته أكثر ضجيجًا من ذي قبل، لكنّهم يفتقدون دفء روحه الطيّبة، وكانوا جميعًا يشتاقون إلى أحاديثه.

انصرفت الممرضة التي كانت تعاونهم في العناية بـ«أبادول»، وأغلقت الباب خلفها. بعد قليل انطلقت صافرة الإنذار من سيّارة «أنس» القابعة أمام المنزل، يبدو أنّ أحدهم صدمها بالخطأ، فخرج «حمزة» مسرعًا ليطفئه، فهو أكثر من يهتّم بتلك السيّارة، وجميع من بالبيت يعلم هذا، فهو يعشق قيادتها وخاصّة في الأمسيات الممطرة.

تبعته القطّة السوداء التي كانت تلازمه دائمًا كظلّه، لقد تقبّلوا وجودها بينهم داخل البيت، فمحاولات طردها وإبعادها كلّها باءت بالفشل، وكانت «مرام» هي أكثر من يهتّم لحالها ويُطعمها، حتّى أنّها طلبت منهم ألا يخرجوها من البيت وخاصّة في الليالي الممطرة، فتعلّقت بها تلك القطّة، لكنّها كانت دائمًا تتبع «حمزة» في كلّ مكان.

ما زال يذكر تلك الليلة التي فوجئ بها أمامه بالمستشفى حيث كان يرقد «أبادول»! لقد أربكت الطاقم الطبيّ هناك، واعتذر لهم بخجل شديد وأسرع بها نحو السيّارة، لا بدّ أنّها تسللت إلى السيّارة بينما كان ينظّفها ذاك الصّباح، كان يومًا لا يُنسى فقد ظهرت تلك الفتاة الغريبة التي تتشح بالسواد في نفس الليلة قبل ظهور القطّة بلحظات.

- اشتقتُ إليك!

- ماذا!

- قالت بدلالٍ وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مرتعشة:

- أنا «رَيْهُقانة»!

كاد قلب «حمزة» يقفز من بين أضلعه، أفلت رأس «حسّان» من بين يديه، وأراد أن يعود لداخل البيت مع باقي أسرته، حيث وقع في نفسه أنّ الخطر وشيك. في تلك اللحظة حاولت «رَيْهُقانة» الاستيلاء على جسد «حمزة» كما فعلت مع «نور» لكنّها لم تتمكّن، وحاولت أيضًا دخول البيت لكنّ هناك ما يحجبها، صاحت غاضبة وهي تنظر إليه مبتعدًا:

- حسنًا...سترى يا «حمزة»!

استقبلت «رَيْهُقانة» واجهة البيت وثبتت قدمي «نور» على عتبته ووقفت فوق دماء «حسّان» التي سالت على الأرض، وبدأت تردد بصوت مسموع على لسان «نور» نفس الطلاسم التي رددتها لكي تنتقل من خلال ممر «أمانوس» إلى عالم «حمزة» ولكنّها رددتها بطريقة معكوسة، وفتحت كتاب «القَلْقَديس» وأضافت جملة منه لم يدرك «حمزة» كنهها كما لم يدرك كنه باقي طلاسمها السّابقة.

انحنت على الأرض ولوّثت كفّيها بدماء «حسّان» وكتبت بها شيئًا مبهمًا أمام عتبة البيت، بدأت ترفع يديها شيئًا فشيئًا نحو السّماء، كانت القطّة السوداء تموء وتحاول الوصول لكتاب «القَلْقَديس» الّذي بين يدي «رَيْهُقانة»، لكنّها لطمتها بقوّة وأطاحت بجسدها فأصيبت القطّة في عينها اليُسرى، لكنّها لم تلتفت لإصابتها وركضت نحو البيت بسرعة،

وقفزت من شرفة من شرفاته إلى داخل البيت، فتحطّم الزجاج وأصيبت القطّة بجراح في ساقيها، لكنّ جراحها لم تمنعها من الوصول لغرفة الأسرار بالطّابق العلوي دون أن يشعر أحد بشيء، ارتجت جدران منزل «أبادول» العتيق، سقطت بعض الثريات على الأرض.

تحرّكت قطع الأثاث من أماكنها، انزلقت أقدام أمّ «أنس» وسقطت على ركبتيها، فأسرع زوجها «كمال» نحوها، صرخت «فرح» وتوجّهت نحو أبيها فاحتضنها «أنس» وقد وقع في قلبه أنّ هناك خطبًا جليلًا، وكان «سليمان» يحدّق نحو النّافذة بخوف شديد فتوجّهت شقيقته «سارة» نحوه واحتضنته لتُهدئ من روعه، مرّت لحظات عصيبة، صاح خلالها «أنس» ليطمئنهم:

- يبدو أنّه زلزال، لا تقلقوا سينتهي سريعًا.

هبّت عاصفة شديدة، أسرع «خالد» مع أبيه وجدّه «كمال» وأغلقوا النوافذ بإحكام، ولاحظوا تحطّم زجاج بعضها، وكانوا لا يتبيّنون الحديقة جيّدًا من خلف النّوافذ، فقد انقطع التيّار الكهربائي، زُلزِل البيت بقوّة شديدة وتخبّطوا وهم يحاولون التمسّك بقطع الأثاث المتناثرة حولهم. ثُمّ فجأة؛ توقف البيت عن الاهتزاز، لكنّ صرير الرّياح المهيب لم يتوقف.. وفي الحديقة وعلى بعد خطوات منهم حدث ما لم يكن في الحُسبان، فقد خرجت «رَيْهُقانة» من جسد «نور» ورآها «حمزة» كطيف أرجواني يتراقص في الهواء، اكتنفهما ضباب كثيف أبيض، ثُمّ اقتربت منه وبدأت ملامحها تتضح له شيئًا فشيئًا، الآن تستطيع الاقتراب منه، وستتخلل جسده كما كانت تفعل قبل شهرين على شاطئ بحر «حِندس»، وستُنصت إلى أفكاره، وتسمع صوته، وتشمّ رائحته، وتتحدّث معه، حاولت الدخول إلى جسده لكنّها فشلت مُجددًا!

غضبت وتعملقت كما لو أنّها مارد خرج من مصباحه المحبوس فيه لسنوات طوال، ثُمّ أحاطت «حمزة» بطيفها ودارت حوله كالإعصار، وتلاشيا معًا في غمضة عين، وتركا خلفهما «نور» ساقطة على الأرض على بُعد خطوات من باب بيت «أبادول».



«انعكاس»

كان صوت مذيع نشرة الأخبار يهدر من مذياع السيّارة صاخبًا يهتزّ له زجاج النوافذ، الظلام الدّامس يكتنفهما وهما على الطريق، سكنت «حبيبة» وشردت مفكّرة في كلّ ما مرّت به أسرتها على أرض مملكة البلاغة خلال السنوات الماضية، حانت منها التفاتة تجاه «يُوسف»، ما زال وسيمًا في عينيها رغم تلك الشعيرات البيضاء التي بدأت تزحف لشعر رأسه الذي حَلقه له «مُوراي» و«عُبيدة» يومًا ما في بُستان «حَيْزوم»، ابتسمت عندما تذكّرت ذلك اليوم وتلك اللحظات الّتي خفق فيها قلبها خفقًا، وزاد اتساع ابتسامتها عندما تذكّرت كيف كان يناديها بـ «آنسة حبيبة».

كان «يُوسف» مغضّنا لحاجبيه وهو يتابع كلّ كلمة يرددها مذيع نشرة الأخبار كعادته، يهتمّ بالأخبار والسياسة وكلّ شاردة وواردة تدور في البلاد، وكانت تعلم هذا عنه وتركن إلى السكوت حتّى ينتهي من متابعته لنشرة الأخبار، سرت في جسدها قشعريرة فقد تسلل الهواء البارد من إحدى نوافذ السيّارة فأحكمت إغلاقها وعقدت ذراعيها، لاحظ «يُوسف» فقال وعيناه مثبّتتان على الطريق أمامه:

- اقتربنا يا «حبيبة».

ما زال ينطق اسمها بتأثّر، ليس بلسانه بل بحناياه وبقلبه، فهي الحبيبة وستظلّ حبيبته للأبد. وما زال يهتّم بالتّفاصيل الدّقيقة الّتي تخصّها، فقد لاحظ ارتجافها من البرد دون أن يلتفت إليها بناظريه. زاد «يُوسف» من سرعته، فالمطر شديد، والليلة عاصفة، والجميع قابعون في البيوت هربًا من البرد، والسيارات مكدّسة على جوانب الطرقات، حتّى القطط والكلاب الضالة تختبئ هنا وهناك. بدأ «يُوسف» يدلف في الشوارع الجانبية المؤدية لبيت «أبادول»، وأخيرًا وصل للطريق الرئيسي الذي يقع البيت في نهايته منذ سنوات طويلة، متألّقًا بسوره الغريب وحديقته المهيبة بين البنايات المختلفة الأحجام، وبأشجاره التي تطلّ من فوق هذا السور وكأنّها تنحني بسوقها وأغصانها لتحرس البيت وأهله وتراقب الطريق.

ضغط «يُوسف» على المكابح فجأة فأصدر صريرًا مزعجًا بسبب احتكاك إطارات سيّارته بالأرض، وحملق تجاه البيت وهو يقبض على يد «حبيبة» التي كانت قد استيقظت من غفوتها على هذا الصرير المزعج، فشهقت بذهول مما رأته أمامها وترجلا معًا من السيّارة في آن واحد!

لقد اختفى البيت بأكمله! بسوره، وبحديقته وبأشجاره، وبأساساته، وببوابته العتيقة، وبمن فيه! كأن شيئًا لم يكن، وبقيت فقط سيّارة «أنس» القابعة بجوار الإفريز العريض، انخلع قلب «حبيبة» وهي تقترب وتتلفّت يمنة ويسرة، بعد تردد للحظات خطا «يُوسف» خطوة داخل الأرض التي صارت عفراء فجأة!

وكأنّ البيت لم يكن عليها من قبل! وسار بخطوات مرتعشة حتى وصل إلى منتصف المسافة، ورفع عينيه إلى السّماء التي كان المطر يهمي منها بغزارة، كانت «حبيبة» تتبعه وهي ترتجف، غرقت ملابسهما بماء المطر.

مرّت لحظات وكلاهما عاجز عن الكلام، لولا أنّهما قد انتقلا إلى مملكة البلاغة من قبل لفقدا عقليهما في غمضة عين، بدأت الهواجس تتناطح في رأس «حبيبة» هي قلقة على أبنائها، ووالديها، وشقيقها وزوجته وأبنائهما والجدّ «أبادول»، كلّ عائلتها اختفت في غمضة عين!

ولكن! كيف يختفون جميعًا بالبيت؟ حتّى المكتبة التي كانت الكتب تستدعيهم من خلالها ما عادت هنا! وكأن زوجها قد قرأ ما يدور برأسها فقال ليطمئنها وهو يحيط كتفها بذراعه ويقلّب عينيه في الأرض الخاوية:

- لقد انتقلتُ إلى هناك من غرفتي ببيتي ودون أن يحملني صقر، وانتقلتْ كذلك «مسكة» إلى هناك من بيتها في بقعة أخرى، ليست غرف بيت جدّك فقط هي نقطة الانتقال لعالم مملكة البلاغة، سيعودون، لا تخافي.

وفور أن أنهى كلماته أضاء في السّماء برق متشعّب الأطراف أحاط بالبقعة الواسعة التي كانت تضمّ البيت، رفع «يُوسف» عينيه إلى السّماء بترقّب، توقف المطر فجأة، وتشرّبت الأرض كلّ نقطة ماء سقطت عليها! فقالت «حبيبة» بحيرة:

- لقد توقّف المطر فجأة، والأرض جفّت!

- غريب!

- فلنبحث عن أيّ علامة أو إشارة على الأرض.

أمسك «يوسف» بيد زوجته، فقبضت على كفّه بقوّة، وتقدّما خطوة أخرى، وكأنّهما يتمنيان أن يلتقمهما أي شيء لينقلهما إلى هناك بجوار باقي أفراد الأسرة، فجوة ملوّنة مثلًا تتلاعب وتتثنى على نفسها، أو

درب من دروب «أوبال»، أو بئر عميق لمدينة عجيبة كمدينة «ديرينكويو» تحت الأرض، لكنّ كلّ هذا لم يحدث! تذكّر «يُوسف» الأَسْطُرلاب» الذي كان «حمزة» يتنقّل به، وشائج! صقور! مغاتير! مجاهيم! أخذ يحملق في الأرض هنا وهناك، ودّ لو ظهر له أيّ شيء عجيب! لكنّه لم يعثر على أيّ شيء!

وفجأة: ظهرت سحابة رماديّة فوقهما، وانبثق من بين ثناياها ضوء حالم، وبدأت تُمطر أوراقًا صفراء عتيقة، انطلق «يُوسف» يجمعها هو و«حبيبة»، قبل أن يعود المطر للهطول فيغرقها، ظلّا يجمعانها بسرعة شديدة، كلاهما كان حريصًا على جمع كلّ ورقة سقطت من تلك السّحابة، ربّما يعثران على أيّ إشارة أو علامة تطمئنهما.

كانت الرّياح قد سكنت وكأنّها تُقدّم لهما العون ليتمكّنا من جمع تلك الأوراق المبعثرة، وفور أن توقفت الأوراق عن السّقوط انزلقت السّحابة الرّمادية مبتعدة، وعاد البرق يسطع في السّماء مرّة أخرى، وبدأ المطر ينقر الأرض نقرًا خفيفًا ويتزايد تدريجيًا، أخفت «حبيبة» الأوراق تحت شالها وهرولا تجاه السيّارة التي كان صوت محرّكها يكركر وباباها الأماميان لا يزالان مفتوحين كما تركاهما منذ قليل، وصوت مُذيع نشرة الأخبار لا يزال يهدر من مذياعها عاليًا وصداه يتردد في جنبات الشارع الخالي تمامًا من المارّة.

دلفا وهما يتخبّطان في حيرة، أطفأ «يُوسف» المذياع وأوقف محرّك السيّارة، ومسح زجاج عويناته المبتلّ بالمطر، مرّت لحظات ثقيلة عليهما وهما كصنمين من رخام، مرّ بجوارهما السيّد «عبد القادر» القاطن في العمارة القريبة من البيت، وكان على علاقة وطيدة بالسيّد «كمال» والد

«حبيبة»، التفت «يُوسف» تجاهه وأخذ يحملق في وجهه، كان «يُوسف» يحاول معرفة ردّ فعل أحد سكّان الشّارع بعد اختفاء البيت فجأة، فالأمر لا شكّ غريب وسيثير الاهتمام ويلفت الأنظار إلى المكان، ولا شكّ ستحدث ضجّة وربّما يتمّ استدعاء الشرطة. طالعه الرجل باستغراب، ثُمّ التفت تجاه الأرض الخالية وقال له:

- ما بك يا «يُوسف»؟

لم يُجبه «يُوسف»، فقد كان في غاية الارتباك، انحنى الرّجل على نافذة السيّارة وحملق في وجه «حبيبة» الشّاحب، وقال باهتمام:

-أتريدان مصباحًا؟

همهم «يُوسف» وهو يترجل من السيّارة:

-لا..لا أريد مصباحًا.

هزّ السيّد «عبد القادر» كتفه وقال:

- ربّما انقطع التيّار الكهربائي عنه بسبب المطر، ابحثوا عن ماس كهربائي هنا أو هناك، لكنني أرى ظلال الشموع من تلك النّافذة.

أشار السيّد «عبد القادر» تجاه البيت، فالتفت «يُوسف» مجددًا نحوه وقد تسارعت دقّات قلبه، ولكن! ما زال البيت مختفيًا! ولكن..يبدو أنّ السيّد «عبد القادر» يراه! أردف السيّد «عبد القادر» وهو يشد ياقة معطفه على رقبته:

- أخبرت «كمال» أكثر من مرّة، لا بد لكم من هدم هذا البيت العتيق وبناء عمارة فارهة بدلًا منه يا «يُوسف». فكروا في الأمر

جيدًا، فلديكم مساحات واسعة ولا تستغلّونها بشكل جيّد، كما أنّ الأشجار العالية تلك صارت تزعج سكان الحيّ..ولا أخفي عليك، عندما ترك «فريد» الخدمة ببيتكم كان يبحث عن عمل آخر، وزارني لعلّني أوظّفه، وأخبرني أنّ بيتكم مسكون، فهو يسمع الكثير من الأصوات تصدر من إحدى الغرف بالدور العلويّ، وأنّه لا ينام بشكل جيّد منذ مرض السيّد «توفيق» وخاصّة عندما تظهر تلك القطّة السوداء في غرفته فجأة خلال الليل.

ثُمّ رفع صوته وهو يقول بانزعاج شديد:

- لماذا تصرّون على الاحتفاظ بها! حاولت زيارتكم لأطمئن على السيّد «توفيق»، لكنّ تلك القطّة كانت تعترض طريقي وتخيفني بموائها الغريب.

في تلك اللحظات كان «يُوسف» يحملق في زجاج عوينات السيّد «عبد القادر» على ضوء مصابيح الشّارع، وظلّ يقترب من وجهه أكثر فأكثر، لقد رأى انعكاس صورة البيت على زجاجها! التفت مرّة أخرى ووجد الأرض التي سار عليها منذ لحظات مع «حبيبة» ما زالت خالية، كيف يعقل هذا!

انزعج السيّد «عبد القادر» من نظرات «يُوسف» وصمته المطبق، فاستدار وتركه وهو يتلفّت متسائلًا عمّا حدث له، بدأ يتمتم محدثًا نفسه:

- مجنون! تلك الأسرة غريبة الأطوار! يبدو أنّ «فريد» كان صادقًا فيما قاله عنهم.

كانت «حبيبة» تنصت إلى كلام الرّجل بذهول شديد، ركب «يُوسف» سيّارته، وأدار محرّك السيّارة ليتنحى بها عن منتصف الطريق ليتفحّصا

الأوراق بتأنٍّ وفي هدوء، وفور أن استدار بسيّارته أمام البيت وطالع المرآة ليعود بالسيّارة للوراء فوجئ بالبيت يظهر في المرآة، ففغر فاه والتفت نحو البيت، ما زال مختفيا! لكنّه يظهر في المرآة! قال بحيرة:

- البيت يظهر في المرآة يا «حبيبة»! انظري!

التفتت «حبيبة» تجاه المرآة وحدّقت بها، استعادت رباطة جأشها وقالت بثقة:

- طالما رآه عم «عبد القادر»، ونحن نراه في المرآة، فهو في بعد آخر كما أخبرنا «أبادول» من قبل، تلك البقعة من الأرض تربط بين «مملكة البلاغة» وعالمنا بطريقة ما، سيكونون بخير إن شاء الله، ولا بدّ أن نحاول مساعدتهم بأيّ طريقة.

حاول «يُوسف» سحب ورقة برفق من تلك الأوراق التي سقطت من السّحابة الرّمادية، لكن «حبيبة» كانت تحتضنها تحت شالها وتتشبّث بها بقوّة، فتبادلا النّظرات لهنيهة، تنهّدت بانفعال وأرخت يدها وتركت له الأوراق، وبدأ يتفحّص الأوراق. كانت لغة غريبة، لم يفهم منها حرفًا واحدًا، بدأ جبينه يتفصّد عرقًا رغم البرد الشّديد الّذي يلفّ المكان، بينما كانت «حبيبة» في محاولة يائسة تحاول مهاتفة ابنها «سليمان» وابنتها «سارة» لعلّ معجزة تحدث ويردّان على الهاتف النّقّال، ربّما خرجا من المنزل قبل اختفائه! ربّما هم هناك أمامها أو بجوار نافذة السيّارة لكنّها لا تراهما! ربّما...وربّما...وربّما.

جرّبت مهاتفة أرقامهم جميعًا حتّى العمّ «راغب» الذي يعمل بالبيت منذ سنوات طويلة، ولم يجبها أحد منهم أبدًا.

مرّ الوقت وهما على حالهما، يقلّبان في الأوراق، ويتساءلان عن تلك اللغة الغريبة. وفجأة؛ أدار «يُوسف» محرّك السيّارة، وطالع الطريق أمامه بتصميم وهو يقول:

- حسنًا، فلنذهب إلى هناك.

- إلى أين؟

- بيت أمّي! حيث انتقلت إلى هناك منذ سنوات!

اتسعت عينا «حبيبة»، وهربت منها دمعة وهي تراقب الطريق.

أضواء شاحبة تشوبها زرقة خفيفة كانت تتراقص على سقف الغرفة، كان هذا أوّل ما رآه «أبادول» فور أن فتح عينيه بصعوبة شديدة، بعد أن غادر رأسه الشعور بالدّوار والسقوط في دوائر عميقة يبتلع بعضها بعضًا في سرعة شديدة، كان رأسه ينسحق حتى وهو مُمدد على فراشه، وكأنّ روحه تُسحب من خلف عينيه سحبًا وتغوص في وسادته.

كان يشعر بالعطش الشديد، داهمه إحساس بالخوف للحظات، ذاك الثقل الشديد في أطرافه الأربعة أشعره بالعجز والشلل، وكأنّها مربوطة بأكياس من الرّمال، أصوات أحفاده كانت تتردد في أرجاء الغرفة، وهو لا يملك أن يناديهم ولو بهمسة خفيفة، حاول أن ينادي على «أنس»، لكنّ شيئًا كالملزمة ظلّ يضغط على صدره، ويعتصر أضلاعه، كان التيّار الكهربائي لا يزال مقطوعًا عن البيت، أشعلت «سارة» الشّموع ووزعتها في غرفات البيت، وهرولت نحو «أبادول» لتطمئنّ عليه، لاحظت جفنيه وهما يتحرّكان بهوان فصاحت في انفعال شديد:

قد سُلّطت على البيت، وكان للريّاح صوت صفير عجيب! وكأنّها تهمس وتتحدّث إليه! كانوا في الليل، فكيف تسطع تلك الأضواء! اخترق الضوء زجاج النّوافذ فأنار جنبات البيت كلّه فانتبهوا جميعًا، فأشار «سُليمان» بأصبعه للخارج في فزعٍ وقال بصوت يرتجف:

- ما الّذي يحدث! ما كلّ هذا الضّباب الّذي يلفّ البيت!

اقتربوا منه جميعًا، ووقفوا يتأملون البياض الذي اكتنف البيت من كلّ صوب، وكأنّهم سقطوا في بحر من الحليب! انتبه «أبادول»، فقد تناهى إلى سمعه صوت صفير الرّياح، اتكأ على كرسيّه وحاول الوقوف بمساعدة «سارّة»، ثُم خطا بصعوبة وهو يتكئ على عصاه مقتربًا من النّافذة، أنصت لصوت الرّياح ثُمّ قال وهو يحدّق في البياض الشّاهق الذي يحيطهم من كلّ صوب:

- يا إلهي!

التفتوا جميعًا تجاهه ينتظرون منه التوضيح! ما سبب ذهوله مما رآه للتو؟

فقال وعيناه معلّقتان بالنّافذة:

- إنّها «أرض الكَنَهْوَر».. نحن في مملكة البلاغة!

«قرية شيليا»

كانت لفحات الهواء البارد تضرب خصلات شعره وهو يركض بجواده الذي كانت حوافره تقدح الأرض مصدرة شرارة تضيء أجواء تلك

الليلة الظّلماء، اعتاد «سيفاو»[١] على التجوال بجواده في رحاب المروج الخضراء المحيطة بقرية «شيليا»[٢] كلّ يوم، كان يحلم بالزواج من تلك الفتاة الجميلة التي شغفته حبًا منذ أن رآها في بيت أبيها لأوّل مرّة عندما استدعاه الأب ليعرض على زوجته وبناته أفخر أنواع الأقمشة التي يبيعها، وغدًا سيتحقق حلمه بالزواج منها أخيرًا.

كان «سيفاو» وحيد أمّه وأبيه، توفي والده وهو غلام صغير، ومنذ أن شبّ عن الطوق لا يزال يعمل في تجارة أبيه الّتي استمرّت بعد وفاته برعاية ابن عمّه. كان «سِيفاو» شابًا ثريًّا وتاجرًا ماهرًا يبيع أفخر أنواع الأقمشة، حتّى أن الأمراء يستدعونه لقصورهم فيقطع المسافات الطويلة إليهم ليحمل إليهم بضاعته المميزة. عيناه الواسعتان تحملان الكثير من الشجاعة، جبهته الشّامخة تشي بكبرياء وعزّة كان قد تربّى عليهما منذ صغره، وكان قويًا فتيًا لا يخشى إلّا اللّه.

وثق السيّد «مَاسين»[٣] في أمانته وأعجب به، فاستدعاه منذ أسبوع بعد اختبارات عديدة له دون أن يشعره، فقد كان يمتحن فيه بعض الخصال، ليبلغه أنّه وافق على زواجه من ابنته «أريناس»[٤]، ودعاه إلى وليمة كبيرة هو وأمّه وابن عمّه «أكسل»[٥].

---

(١) سِيفاو: اسم أمازيغي للذّكور يعني المُنير والمُضيء.

(٢) شيليا: هو جبل شامخ بشرق الجزائر، وهو من أعلى القمم في سلسلة جبال الأوراس.

(٣) مَاسين: اسم أمازيغي للذّكور بمعنى السيّد.

(٤) أريناس: اسم أمازيغي للإناث وهو نوع من الزهور وكان اسم لملكة أمازيغية من العصر القرطاجي.

(٥) أكسل: اسم أمازيغي للذّكور معناه النّمر.

كان «مَاسين» رجلًا شجاعًا، وقويّ الشكيمة، ضمّ لدولته كل الأراضي الّتي وصلت إليها حوافر خيوله. عاش أفراد قبيلته لسنوات طويلة في سلام، وكان هو سيّدهم وزعيمهم الّذي يُجلّونه ويحترمونه، وقد وضع القوانين لتستقر دولته، حتّى جنوده يعدّون كلمته سيفًا على رقابهم، فقد وضع لهم نظامًا دقيقًا، فكلّ عشرة من رجاله لهم أمير، وكلّ عشرة أمراء لهم أمير أكبر، وكل عشرة من الأمراء الكبار لهم قائد، وأمّا هو فقائدهم جميعًا. وفي رحاب دولة هذا الزّعيم الأمازيغي الشّجاع عاش «سِيفاو» في أمان، وتعلّم منه الكثير.

مزيج من الخوف والحماس كان يعتمل في صدر «سيفاو»، سيتزوج غدًا من الجميلة «أريناس»، كان أهل قبيلة «كتامة»[1] ينتظرون حفل زفافهما بشغف، فهي ابنة زعيم القبيلة، الذي يحسبون له الحساب، كما أنّهم جميعًا يحبّون «سيفاو»، ذاك الشّاب الذي يضجّ بالحياة والمروءة.

أمضى «سِيفاو» ليلته في المتجر مع رفاقه من شباب القرية، ثُمّ قرر العودة لبيته وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه من شدّة الفرحة، كان متعبًا فقد بذل الكثير من الجهد في إعداد منزله الجديد.

سار مع رفاقه وصوت ضحكاتهم يملأ الشوارع بهجة وسرورًا، كان الليل قد انتصف منذ فترة طويلة، وغالب أهل القرية نيام، ودّع رفاقه وسار وحيدًا نحو بيته. وفجأة؛ رآهم أمامه وكأنّ الأرض قد انشقّت عنهم، إنّهم «بيادق الظّلام» الذين يخشاهم الجميع، يدلفون ديار القبائل فجأة وفي عتمات الليل المُظلمة ويقومون باختطاف واحد من سكّانها، والذي لا يظهر مرّة أخرى وللأبد!

---

(١) كتامة: من أهمّ قبائل الأمازيغ في شمال إفريقيا، تشتهر بعراقة أصولها الأمازيغية، ونقاء جذورها، وأعراقها، وكثافة فروعها.

أن يرتفع بفرسه نحو السّماء، وحلقت الصّافنات بهم بعيدًا، أطاح بروز جناح الجواد بجسد «ماسيليا»، كانت تصرخ وجسدها يتهاوى نحو الأرض، لكنّ بيدقًا آخر غير الّذي يحمل «سيفاو» التقطها وحملها على فرسه، فاختُطِفت جارته كذلك معه.

يا لها من ليلة! لقد خُطف «سيفاو» قبل زفافه على «أريناس» بساعات، ومضى «بيادق الظّلام» به نحو الغرب، حيث السّكون، خلف الجدار الّذي لا تخترقه إلّا «بنات الرّيح»[1] وهي تخفق بأجنحتها العظيمة، والتي ترعرعت في تلك المدينة التّي يلفها الضباب الأبيض، وتمتلئ سماؤها بغيوم بيضاء عظيمة، إنّها المقبرة العظيمة الّتي تتوارى خلف الجبال، حيث سكن كلّ شيء سكونًا مهيبًا.

كقذيفة من اللهب وكالشّهب في السّماء، كانت «رَيْهُقانة» تحلّق بسرعة شديدة في رحاب مملكة البلاغة، وبرفقتها «حمزة»، حيث كان قلبها يرقص الآن طربًا وشغفًا وحبًا. وصلت به أخيرًا لبقعة غريبة، ابيضّت أرضها وكأنّها أمطرت للتوّ رمادًا أبيض!

هبطت به ووقفت قبالته تتأمّله بسعادة، ما زال غاضبًا لكنّها تتجاهل غضبه وصياحه. توقف عن الصياح وران عليهما الصّمت وانقشع الضباب الأبيض الّذي كان يكتنفهما، فقال بعد أن هدأت سَوْرَة[2] غضبه:

(١)بنات الرّيح: يطلق العرب الأقدمون في كتب التراث على خيولهم الأصيلة «بنات الريح» لرشاقتها وسُرعتها، وكأنّها خُلقت من الريح لشدّة سرعتها في الرّكض.

(٢) سَوْرة الغضب أي شدّة الغضب.

- ما الّذي فعلتهِ أيّتها الحمقاء؟ ولماذا أنا هنا؟ تكلّمي!

- اشتقت إليك.

كانت تطالعه بنظرات يملؤها الشّغف، تلفّت حائرًا ثُمّ رفع كفّيه الملطّختين بدماء «حسّان»، تذكّره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه فسألها وهو شاخص بعينيه:

- ذاك الرّجل المسكين الّذي قتلته.. لماذا؟

- ليس مسكينًا! كان ساحرًا بائسًا.

لوّح «حمزة» بقبضته في الهواء وقال:

- وإن كان ساحرًا...لا يحقّ لكِ ذبحه بتلك الطريقة!

هزّت كتفيها بلا مبالاة وقالت:

- الطقوس كانت تتطلّب إراقة الدّماء، كما أنّه ذبح نفسه بنفسه.

- كيف!

-ألقيت عليه تعويذة ليفعلها بيديه، هكذا ينصّ كتابي الخاصّ، لو قتلته بيد «نور» لن تنجح الطّقوس.

كان «حمزة» يتأرجح في مكانه من شدة الغضب، سألها وهو يُشيح بوجهه عنها:

-كيف وصلتِ إلى عالمنا؟

ضحكت ساخرة وقالت:

- من ممر «أَمَانوس»، تبعتُ أخاك «خالد» وهو يخرج منه، كان هذا السّاحر يستحضرنا.

ركع «حمزة» وبدأ يفرك الدّماء العالقة بكفّيه بالرّماد الأبيض الّذي يغطّي الأرض، كان يشعر بانقباض في صدره، قال بحنق شديد:

- حاولتِ قتل السيّد «هشام» من قبل، لكنّ الله نجّاه من بين يديك، وها أنتِ تقتلين رجلًا بريئًا.

- لم أقتله!

- ذبح نفسه طواعية لكِ وبأمركِ!

قهقهت وقالت وهي تدور حوله:

- أتدري، هو من استقبلني عند وصولي مع رفيقاتي، واستحضرني لجسد «نور»، كان غبيًا، لو كان يملك مثقال ذرّة من الذّكاء ما ترك لي كتاب «القَلْقَديس» ولا للحظة واحدة.

وقف «حمزة» متأهّبًا وانتبهت كلّ حواسّه فجأة وهو يقول:

- «القَلْقَديس»!

هزّت رأسها موافقة، أدرك حينها أنّه نفس السّاحر الّذي تحدّثت عنه «مِسكة» في رسالتها لأبيه وزوج عمّته، أخذ يلوم نفسه، لقد انشغل بمرض جدّه، وكان من الضروري أن يبحث عن «حسّان» ليدمّر كتاب «القَلْقَديس» كما دمّر «القلقْطَار» من قبل، قطعت عليه دوّامة الأفكار التي بدأت تدور في رأسه وهي تقول:

- حاولت الوصول إليك طوال الشهرين الماضيين لأتحدّث معك، وعجزت عن دخول البيت، يبدو أنّ جدّك أحسن تحصينه.

سألها وهو يرميها بنظرة ثاقبة:

- هل قتلتِ تلك الفتاة أيضًا؟

- لا، الوقت لم يُسعفني، وكان لا بد من الهروب بك قبل أن...

- قبل ماذا؟

حاولت تشتيته، فقالت وهي ترفع طيفها للأعلى لتحلّق حوله:

- لماذا تمنعني من تخلل جسدك؟ لقد سمحتَ لي في وقت سابق!

تذكّر «حمزة» كيف عاونته على مواجهة «قلب العقرب» خلال معركتهما، وكيف كانت تُساعده، قال بصوت يشوبه القلق:

- لم أسمح لك سابقًا! كان هذا رغم أنفي، و...لن أسمح لك يا «رَيْهُقانة»، لن تسيطري على عقلي كما فعلتِ مع هاتين الضحيّتين.

ضحكت ساخرة وهي تقول:

- أعلم أنّك لم تسمح، لكنّك لم تُمانع، وقد تسللت.

- ما الّذي تريدينه منّي يا «رَيْهُقانة»؟

كانت تتلذذ بسماع اسمها وهو يتردد على لسانه وبصوته، ابتسمت وهي تقول:

- تُعجبني الطريقة التي تناديني بها، لقد اشتقت إليك يا «حمزة»، أنا أُحبّك.

قالتها بدلال فولّى بوجهه عنها وقال بازدراء:

- ما هذا السّخف!

- لن تجد من يحبّك كما أحببتك يا «حمزة».

- هل أنت مجنونة! كيف لطرفين مختلفين كيانًا وفكرًا وتكوينًا وطبيعةً أن يتحابّا! لا أشبهك، ولا تشبهينني، حتّى أن عالمي يختلف عن عالمك!

قالت بخفوت:

- أحبك.

- هل تعين ما ترددينه! أنا بشر من لحم ودمّ أمّا أنتِ فمجرّد..

- ماذا؟!

- طيف يتهادى، خيالات ملوّنة تتحرّك في الفراغ! هواء..أنت لا شيء يا «رَيْهُقانة».

شعرت «رَيْهُقانة» بالإهانة فقالت غاضبة:

- ما زلت متعلّقًا بعالمك الحقير، ستنسى كلّ ما يتعلّق به بالتدريج، لم تعجبني حياتكم هناك، أعرف كلّ شيء عاشته «نور»، مشاعرها، آلامها، خوفها، غضبها، ترددها وتخبطاتها بعد وفاة والديها، كلّ شيء.

- لقد سطوتِ على جسد تلك المسكينة، لن أتحوّل لضحيّة من ضحاياكِ.

- بل قُل تلك البائسة، كنت أضيقُ بأحزانها، ويأسها، وضعفها، كرهت كلّ ذرّة فيها.

- ولكن...

قاطعته بحزم قائلة:

- دعكَ منها الآن، فهي لا تستحقّ هذه الشّفقة، وحياتك هناك لا تستحقّ ولم تعجبني.

قال بعصبية شديدة:

- وكذلك لا تُعجبني حياتك! لا تروق لي حياتكنّ، ولا مقابركنّ، ولا جماجمكنّ التي تسكنونها! لا يروق لي عالم ساحرات «ماذريون» وعشقهنّ للقتل.

- غدًا سيروق لك المكان، وستظلّ معي للأبد، وجرّب أن تحاول الهرب!

ارتبك «حمزة»، أخذ يتلفّت حوله في ارتباك، مرّت لحظات عصيبة قبل أن يقول ببطء:

- لن يتركني «المجاهيم»، ولا «المغاتير» وحيدًا، «الحوراء» تسمع أخبار المحاربين وستُرسل إليّ الصقور، و«الزّاجل الأزرق» لن يتركني، سأعود إلى دياري رغم أنفك.

قاطعته بقهقهاتها، ثُمّ دارت حوله وقالت وهي ترفع يديها مشيرة للبقعة حولها:

- لن يسمعوا بأخبارك هنا.

- لماذا؟

اقتربت منه دون أن تنظر إليه وقالت بتحفّز:

- لأنّك لست محاربًا كما كنت، ولا حتّى زائرًا كما حدث لأخيك، لكنّك...

- لكنني ماذا؟

- ملك لي، تنتمي إليّ، أصبحتُ عائلتك وملاذك هنا.

- ماذا تقصدين؟

تناهى إلى مسامعها صوت مهيب، كانت صياحتهم تتردد في الأجواء، اكتسى وجهها بعلامات الفزع، هي تعرف هذا الصّوت، وتعرفهم جيّدًا! التفتت نحوه وحدّجته بنظرة نارية وهدرت قائلة:

- لا وجود لعائلتك بعد الآن، وللأبد!

دنت منه في غمضة عين ورددت طلسم ثلاث مرّات ورسمت بأصبعها علامة على جبينه، شعر بسخونة تسري تحت جلد جبهته، وكأنّها تكويها بالنّار، رفعت أصابعها ليستقر وشم دقيق بين حاجبيه، رفع يده ليتفحّصه وهو يتألّم، سألها وعيناه محتقنتان بالدّموع:

- ما الّذي فعلتِه بي؟

كادت تجيبه لولا اقترابهم، همست بخفوت:

- سأعود إليك.

رفعت ذراعها في الهواء تجاه «حمزة» وكأنّها تدفعه، فوجد ساقيه تنزلقان بعيدًا عنها، أبعدته تجاه مجموعة من الأشجار القريبة، فالتصق ظهره بجذع شجرة منها، امتلأ المكان بالمجاهيم، كان «حمزة» يعرف هيئاتهم، حاول أن يستغيث بهم لكنّ صوته لم يخرج من حنجرته، حاول أن يركض لكنّ ظهره كان ملتصقًا بجذع الشجرة وكأنّه جزء منها، تمددت وشائج الأشجار وانزلقت على جذعها زاحفة نحو ذراعيه وساقيه، والتفّت حول يديه وقيّدتهما ببعضهما، أحاط «المجاهيم» بـ «ريهُقانة»، بدا الأمر وكأنّهم يلقون القبض عليها، كانوا يشيرون تجاه كيانها الأثيري بيد بينما الأخرى ترتفع في السّماء.

انبثق ضوء أحمر وطاف بهم ثُمّ تركّز عليها وهي في مركز الدّائرة الّتي كونوها بأجسادهم، واقتحم هذا الضوء كيانها محدثًا تموجات

وامضة، فصاحت صيحة مزلزلة وارتجّ كيانها وهوت ساقطة في فجوة سوداء تتوسّط اجتماعهم، وفي غمضة عين ابتلعتهم الأرض، وتلاشت صورهم جميعًا من أمام عيني «حمزة»، كانت «رَيْهُقانة» قد أسقطت كتاب « القلْقَدِيس» على الأرض قاصدة حتى لا يصل إليه «القَنّاصون»، فغمرته الرّمال البيضاء وكأنّها تُخفيه عن الأعين وتدفنه.

لقد تحدّت «رَيْهُقانة» طبيعتها وعرّضت تكوينها للكثير من الصدمات من أجل تتبع الشّاب الذي خطف فؤادها، رغم أنّها اكتسبت العديد من القوى، وتعملقت كالمارد الجبّار إلّا أنّها لم تتمكّن من مواجهة القنّاصين، وهذا لسببٍ سيعرفه «حمزة» لاحقًا.

ظلّ «حمزة» ملتصقًا بجذع الشّجرة، وطال الوقت وهو على حاله، شعر بالهوان والضّعف، وأصيب بدوار شديد، كان آخر ما رآه هو وجه شابّ قمحي البشرة، حادّ النّظرات، له شارب خفيف، وأنف أقنى، له ذراعان مفتولا العضلات، كان يحمل قوسًا غريب الشّكل على كتفه، اقترب الشّاب من «حمزة» وأخذ يتمعّن في ملابسه، وحذائه، وساعة يده، قال وهو يقف قبالته مباشرة:

- أنت.. مُحارب!

اقترب أكثر وأحنى رأسه فأطلّت من خلف كتفه جعبة السّهام المذهّبة، مرّر أطراف أصابعه على جبين «حمزة» ولمس الوشم الملتهب القابع بين حاجبيه، همس قائلًا:

- يا إلهي، أنت موسوم للتوّ، جلدك يحترق!

استلّ الشّاب خنجرًا وبدأ يقطّع الوشائج الملتفّة حول جسد «حمزة» وحرره من قيوده، خرّ «حمزة» على ركبتيه، ما زال صوته لا يخرج من

حلقه، ترنّح قليلًا ثُمّ فقد وعيه بين يدي هذا الشّاب الغريب، حمله الشّاب على كتفه، وسار به بين الأشجار، حيث يحيطهما السكون الشّديد وكأنه يسير به في مقبرة!

أو.. ربّما توقف الزّمان وتجمّد كلّ شيء! إنّه الفَناء الذي يعشش فوق كلّ ذرّة عندما تغيب الحياة، هذه أرض قاحلة، وخالية من البشر.

- ٣ -

«أرض الكَنَهْوَر»

اختفت الأضواء الّتي اخترقت النّوافذ، وبقي الضّباب الكثيف يغمر البيت وما حوله، كان لا بدّ من إضاءة الشّموع، فأسرع «راغب» ليُشعلها مُجددًا. نشرت الشّموع في الغرفة ضوءًا مترجرجًا، تراقصت خيالاتهم المشوّهة على الجدران، وقد ألقى الصمت عباءته على المكان وهم يتحلّقون حول «أبادول»، الّذي بدأ يشرح لهم ما يعرفه عن أرض«الكَنَهْوَر» بعد أن تكررت أسئلتهم عنها، ازدرد ريقه بصعوبة، وطلب كوبًا من الماء، شرب حتّى ارتوى وتنفّس برويّة ورنا إلى «كمال» بعينيه المتعبتين ثُمّ قال:

- أرض «الكَنَهْوَر» هي بقاع غريبة تحتوي على ممالك، وقلاع، وقصور، وبلاد، ومدن بأكملها لكنّها مهجورة.

- لماذا هي مهجورة؟

- غادرها سُكّانها للأبد، إما فجأة، أو بسبب زلزال أو عاصفة مدمّرة، أو وباء قاتل، أو انتقلوا إلى بقاع أخرى بطرق مختلفة، لا أحد يعلم على وجه التّحديد، ولم يُسمع عنهم مرّة أخرى.

- وكيف عرفتها بمجرّد النّظر؟

رنا إلى النّافذة وحدّق في الضّباب ثُمّ قال:

- لون الضّباب، البياض الشديد وكأنّك تغوص في بحر من الحليب، الأضواء الّتي تومض فجأة ثُمّ تختفي فجأة، والرّائحة.. نفس رائحتها الغريبة الّتي شممتها منذ سنوات طويلة، لن أنساها أبدًا ما حييت.

أخذوا يتشممون الهواء حولهم، لم يلحظ أيّ منهم رائحة غريبة! هزّ «خالد» كتفيه وهو يتبادل النّظرات مع «أنس»، لم يلاحظا أيّ رائحة غريبة! سألت«فرح» والفضول يطلّ من عينيها:

- هل سيأتي «الرّمادي» إلينا الآن؟

وأضافت جدّتها باهتمام:

- وهل سنرى «ناردين» و«الحوراء»؟ أُريد أن أراهما، أُريد أن أزور كلّ تلك الأماكن التي حدثتموني عنها.

غضّن «أبادول» حاجبيه وقال وهو يفرك جبهته بانفعال:

- أرض «الكَنَهَوَر» تقع في جانب منفصل عن البقاع الّتي يقع بها قصر «الحوراء» وما حوله، وبعيدًا عن «المكتبة العظمى» وحرّاسها.

قال «كمال» بصوت واثق:

- ستصل أخبارنا للحوراء، ستنقل الرّياح خبر وصولنا إليها.

- للأسف لن يحدث هذا!

- لماذا يا أبي؟

- بيننا وبينهم جبال «الخُرافة»، سلسلة من الجبال الشّاهقة، ومن أعلى قممها البيضاء يتعالى حاجز من «الكَنَهْوَر» ويتّصل بالسّماء. فـ«الكَنَهْوَر» هو قطعٌ من السّحاب الأبيض الثّخين الكثيف المتراكب أمثال الجبال، تسمّى الواحدة منه «كَنَهْوَرَة».

صمت هنيهة وأردف وهو يفرك لحيته:

- هذا السّحاب الثخين يشكل حاجزًا مهيبًا كان يتعالى ويرتقي عندما مررت مع «الرّمادي» من فوقه منذ سنوات طويلة، وأخبرني أن تلك البقاع بدأت تنفصل عن باقي ربوع مملكة البلاغة، ولن تستطيع الصّقور التحليق فوقها مرّة أخرى.

- لماذا؟

- الصّقر الّذي يقترب يُسحب وكأنّه ينجذب إلى مغناطيس، وتبتلعه فجوات هائلة.

سأله «خالد» وهو يُدقق النّظر في عينيه:

- ثقوب سوداء؟

- لا أدري..أذكر أننا اقتربنا من فجوة منها كانت تحيطها تموّجات تدور بسرعة شديدة كما يدور الماء حول فتحة البالوعة، كادت تسحبنا بقوّة لولا أنّ «الرّمادي» ضرب بجناحه مبتعدًا عنها فشعرنا بقوّة تطرحنا بعيدًا وكدنا نهوي.

- ربّما نحن في الفضاء وفوق السّحب يا جدّي، أذكر أنني قرأت عن شيء يُشبه ما تصفه، وكأنّها «الكوازارات»[1].

- الأمر مُعقّد..وقد تبدو الأمور على غير حقيقتها أحيانًا فنحن في «مملكة البلاغة»! ولا أظنّ خبر وصولنا قد يصل إلى حرّاس المكتبة العظمى، أرض «الكَنَهَوَر» تشبه المقبرة، نحن في مدينة الموتى.

قال «كمال» وهو يحدّق في أرض البيت:

- ما يشغلني الآن هو سبب انتقال البيت بأكمله إلى هنا! وكيف تثبت الأرض تحت أقدامنا هكذا ولم تتفتت وينهار البنيان!

أطبق الصّمت عليهم لفترة وجيزة قطعه صوت طرقات واهنة على الباب، ارتجّ قلب «أنس»، ربّما هو «حمزة»، أسرع نحو الباب بينما هرول «خالد» خلفه في تحفّز، فتحا الباب بحرص فأطلّ وجه «نور»، كانت شاحبة وتنتفض كعصفورٍ صغير بلله ماء المطر البارد، أناملها الرفيعة كانت ترتجف وقد عقدتهما على صدرها وهي تنحني بانكسار أمامهما، عرفها «أنس» فقد رآها من قبل وهي تتبع ابنه «حمزة»، كان الضباب الأبيض يتسلل من حولها إلى داخل البيت، وقد انعقد لسانها من شدّة الخوف، كاد «خالد» يخرج رأسه من باب البيت ليشبع فضوله، لكنّ أباه صاح به ألّا يفعل، وقال موجها كلامه لـ«نور» وقد لاحظ جسدها وهو يختلج:

- ادخلي يا ابنتي بسرعة.

---

(١) الكوازارات هي أجرام فلكيّة شبيهة بالنّجوم يُطلق على الواحد منها النجم الزائف أو شبيه النجم أو الكويزار Quasar وهي المنطقة الغازية الساخنة المحيطة مباشرة بثقب أسود هائل وهي أكثر الأجرام نشاطا وبُعدا عنا، ولهذا لا يظهر منها سوى النواة التي تظهر «كنجم» ويتوسطها ثقب أسود.

لم تتحرّك «نور» قيد أنملة، فسحبها «أنس» من ذراعها وأدخلها وأغلق الباب خلفها بإحكام، سارت خلفه بخطوات مترددة، تعرّف الجميع على وجهها، فقد رأوها عدّة مرّات أمام البيت، وحول السيّارة، وبالمستشفى، حتّى أنّهم ظنوا أنّها تشكو من علّة عقلية أو نفسية. سألوها عن الضباب بالخارج، وهل «حمزة» هناك؟ لكنّها لم تنبس ببنت شفة، وظلّت ترتجف، أشفقت «مرام» عليها فخلعت شالها الصوفي ودثّرتها به وأجلستها بجوار المدفأة، كان الكحل الأسود قد صنع هالتين سوداوين حول عينيها، فزعت «مرام» عندما رأت كفّيها ملطختين بالدماء، سألتها بانزعاج:

- لمن تلك الدّماء؟

أجهشت «نور» بالبكاء وظلّت تنتحب، ثُمّ شهقت متألّمة بعد زوال أثر الصّدمة وبدأت تروي لهم قصّتها بالتفصيل، وأخبرتهم عن «رَيْهُقانة»، ورفيقاتها وما حدث لهنّ، وكيف انتقلت إلى الفيّوم بتوجيه من «رَيْهُقانة» لتتبع «حمزة»، وعمّا حدث ببيت «حسّان» اليوم بالتفصيل، وما رددته «رَيْهُقانة» من كتاب «القلْقَدِيس» وكيف كان «حسّان» يسير مسحورًا خلفها كالكلب الضّال، وكيف ذبح نفسه بعد أن ألقت «رَيْهُقانة» تعويذة عليه، وكيف لطّخت كفيها بدمائه وهي تكتب طلاسمها بالدماء على الأرض لكي تتمكّن من اقتحام البيت.

وأخبرتهم أخيرًا كيف فزع «حمزة» لرؤيتها، وكيف خرجت «رَيْهُقانة» من جسدها وكأنّ روحها تتسلل من بين جنبيها، وكيف طافت تلك السّاحرة بـ «حمزة» وتلاشت معه من أمام عينيها في غمضة عين، وكيف اهتزّت الأرض من تحتها وهي تزحف على مرفقيها نحو عتبة بابهم لتستغيث بهم، قبل أن تفقد وعيها أمام الباب مباشرة، لكي تفيق منذ قليل مجمّدة الأطراف وقد أحاطها الضّباب الأبيض بها من كلّ صوب،

ظنّت في البداية أنّها فقدت بصرها، لكنّها سمعت أصواتهم فطرقت الباب.

أنهت «نور» كلماتها، فتنهّد «أبادول» الذي كان ينصت بتركيز شديد لكلّ حرف تنطق به وكذلك جميع من بالبيت، حتّى أنّهم لم يقاطعوها ولا مرّة واحدة طوال فترة حديثها. قال «خالد» وهو يرنو لـ«أبادول»:

- الآن نعرف من أتى بنا إلى هنا، إنّها تلك السّاحرة الحمقاء، آه لو تعلم أنّ ذلك سيحدث، وستصلين إلينا، لكانت قتلتكِ.

قال «أنس» وقد بدأ القلق يتسرّب إلى نفسه:

- أخطأ «حمزة» عندما أخرج جمجمتها التي كانت تسكنها من تحت الأرض، وأخطأ عندما ذهب إلى تلك المقبرة الّتي دلّته عليها، يبدو أنّها ستستخدمنا كرهائن.

حدّقت «مرام» في وجهه وسألته بقلق:

- رهائن لماذا؟

- لينفّذ لها ما ترجوه، لا بدّ أنّ وراءها شيئًا!

- وما الّذي ترجوه من ولدي؟

قالت «نور» بخفوت:

- إنّها تعشقه.

ران عليهم صمت ثقيل، سالت الدّموع من عيني «مرام»، الآن يعتصر قلبها على ابنها مرّة أخرى! التفت «كمال» نحو أبيه وسأله وهو يضع يده على كتفه:

- ماذا سنفعل يا أبي؟

رفع «أبادول» يده وربّت على كفّ ابنه وقال وهو يحدّق في لهب المدفأة:

- نحن في ابتلاء عظيم.

فتح «حمزة» عينيه بصعوبة ليفاجأ بالرّباب الأبيض وهو يملأ السّماء فوقه، كان ممددًا على الأرض وتحت رأسه قميص من الكتّان مطوي كوسادة له، وبجواره قربة ماء وكيس من الجلد مخيط بدقّة فاحت منه رائحة التفّاح، اعتدل جالسًا وهو يتحسس رأسه، كان يشعر بألم حاد أسفل عنقه، مسح وجهه بكفّيه وتنحنح فإذا بذاك الشّاب يقترب من بعيد بقامته المديدة، لم يتمكّن «حمزة» في البداية من تبيّن ملامحه، لكنّ الشّاب أسرع مقبلًا عليه وناوله قربة الماء، لاح شبح ابتسامة على شفتيه وهو يقول:

- أنا «طارق»، وأنت؟

رشف «حمزة» رشفة ماء وأجابه:

- «حمزة».

- أنت محارب، أليس كذلك؟

شعر «حمزة» بالارتباك، كان مُحاربًا في زيارته السّابقة لمملكة البلاغة، أمّا اليوم! فهو لا يدري هل هو مُحارب، أم زائر، أم ماذا؟ تلفّت في ارتباك وقال:

- أُريد مرآة.. أُريد مرآة في الحال.

- اهدأ يا صاح، ما بك؟

رأى «حمزة» بُحيرة قريبة، فركض نحوها لعلّ ماء البحيرة القريبة يقوم بالمَهمّة، كان «حمزة» لا يفكّر سوى في رؤية وجهه على صفحة الماء، اقترب من الماء الرّائق وانحنى يتأمّل انعكاس صورة وجهه على صفحته، أراد أن يطمئن نفسه أنّه لم يحلّ في شخصية أخرى وبملامح أخرى، كما حدث لأخيه «خالد» من قبل، نسي أنّه لو كان قد حلّ في شخصيّة أخرى كان سيتحدّث بلسانها واسمها، أخذ يتحسس جلد وجهه بتوتّر، كان يتيه في دهاليز حيرته عندما داهمه «طارق» بسؤاله:

- هل عثرت على أنفك؟

حاول «حمزة» أن يبتسم، لكنّه كان مضطربًا للغاية، أردف «طارق» وهو يهزّ كتفيه:

- على العموم شعرك النّاعم في حالة جيدة، وأنا أحقد عليك بالتّأكيد.

رفع «طارق» حاجبيه وهو يمسح على شعر رأسه الخشن، فابتسم «حمزة»، وهدأ قليلًا، يبدو أنّه شابٌ خفيف الظلّ. سأله «طارق» باهتمام:

- أين كتابك؟ وما قصّة تلك الأطياف الّتي كانت تُحلّق في المكان؟

- هل رأيتهم وهم يحيطون بها؟

- من؟

- «المجاهيم»! تلك عشيرة من الجنّ، لقد أحاطوا بها وكأنّهم يتصيّدونها، ألا تعرفهم؟

- رأيت أطيافًا تلوح وتدور وترتفع في الهواء، لم أتبيّن تفاصيلها فقد كُنت فوق الجبل، ورأيتك بالنّاظور.

قال «حمزة» وهو يهزّ رأسه:

- «رَيْهُقانة».

- ماذا؟

-ذاك الطيف الّذي رأيته يدور حولي يُسمّى «رَيْهُقانة»، وهي ساحرة من ساحرات «ماذريون»، وهي من أحضرتني إلى هنا.

- ساحرة! هنا على أرض «الكَنَهْوَر»!

- وما هو «الكَنَهْوَر» هذا؟ أخبرني عنه.

- ليس قبل أن تخبرني عن اسم كتابك، أعلم أنّك مُحارب، فتلك السّاعة وهذا الحذاء وهذه الملابس من عالمنا.

قال «حمزة» باندهاش:

- عالمنا!

أشار«طارق» إلى صدره قائلًا:

- أنا مُحارب.

سرت الطمأنينة في أوصال «حمزة»، تناول «طارق» غصنًا خشبيًا رفيعًا ونقش على الرّمال رمزًا غريبًا، ورفع رأسه نحو «حمزة»، تمعّن «حمزة» في الكتابة المنقوشة أمام عينيه، كانت لغة غريبة لا يعرف كنهها فسأله متعجّبًا:

- ما هذا؟

- «سمُّوس».

وماذا تعني؟

- خمسة، أنا المحارب الخامس في عائلتي.

- وما هذه الحروف الغريبة؟

- هذه الـ«تيفيناغ»، أنا من الأمازيغ يا «حمزة».

قال «حمزة» بحماس:

- مُحاربو الصّحراء!

أشرق وجه «طارق» بابتسامة واسعة وقال:

- نعم، أنا من «الجزائر».

عاد «حمزة» يسأله بفضول:

- ما عنوان كتابك؟

أخرج «طارق» كتابه من حقيبته وأشار لعنوانه المكتوب باللغة الأمازيغية قائلًا:

- «كُوِيكُول».

- «كُوِيكُول»! أليست تلك المدينة الأثرية القديمة الّتي شيّدها الرّومان؟

- بلى.

- ولكن ماذا تعني بالأمازيغية؟

- في الحقيقة هي ليست كلمة أمازيغية، لكنّها مكتوبة باللغة الأمازيغية كما ترى، وعلى العموم نحن في الجزائر نطلق عليها «جميلة» وهي فعلًا مدينة جميلة.

- حسنًا، وما قصّة أرض «الكَنَهْوَر» هنا؟

ابتسم «طارق» بلطف، ووضع يده على كتف «حمزة» ومنحه نظرة واثقة بعثت في نفسه الطمأنينة، وقال له:

- توقف عن توجيه الأسئلة لي وأخبرني عنْ نفسك أوّلًا يا صديقي، هل أضعت كتابك؟ وأين الصّقر الّذي كان يحملك؟

أغمض «حمزة» عينيه لبرهة، ودّ أن يستعيد رباطة جأشه وتركيزه ثُمّ قال:

- كُنت مُحاربًا، أمّا الآن فأنا..

- أنت ماذا؟

حدّق «حمزة» في عيني «طارق»، وقال وهو يتحسس الوشم بين حاجبيه، والّذي كان يؤلمه بشدّة:

- سأخبرك بالتفصيل.

جلسا معًا بجوار البُحيرة، وفوق رؤوسهما الغيوم البيضاء تتحرّك ببطء، وكأنّها كُرات لؤلؤية تتدحرج في السّماء بينما بدأ «حمزة» يحكي عن رحلته على أرض مملكة البلاغة لهذا المُحارب الّذي التقى به للتوّ على أرض «الكَنَهْوَر».



«الماو»

كان «أبادول» يطوف بالبيت، وكأنّه قد نشط من عقال، تلاشت معالم المرض وبدأت الدّماء تجري في عروقه، بدأ يتنقّل بين الغُرف، وأشار لـ«خالد» ليتبعه، جمع صناديق صغيرة، وبعض الأسلحة، وخناجر مختلفة الأشكال، وبوق نحاسيّ! وأكياسًا كان قد خبّأها منذ سنوات بالبيت، وضع تلك الأشياء أمامهم على الطّاولة وحذّرهم من لمسها حتّى يُخبرهم عنها، سحب خنجره وحرّكه في الهواء، لم تنفرج فجوة تتلاعب أمام عينيه! كرر الأمر، لم يحدث شيء!

اقترب «أنس» وحاول أن يفعلها كما فعلها من قبل، ردد أسماء جميع الأماكن الّتي رحل إليها من خلال الفجوات، لم يفلح «أنس» ولم ينجح، أقبل «كمال» يحاول بعدهما، كرروا الأمر مع باقي الأدوات وبدا لهم أنّها جميعها قد فقدت ميزاتها، السّيوف، البوق، حتّى تلك «الكريستالات» المضيئة الّتي كان «أنس» يستخدمها في الممر تحت النّهر الأخضر لم تتوهّج وتُشعّ ضوءًا عندما فركها بكفّيه. أحاطت بهم هالة من اليأس الشّديد، التفتت السيّدة «دولت» لابنها «أنس» وقالت:

- ماذا سنفعل؟ هل نغلق الأبواب والنّوافذ بالمسامير؟

- لن يمنع هذا من دخول...

- دخول ماذا؟

- تعرفين يا أُمّي أنّنا هنا قد التقينا بطوائف مختلفة من الجنّ، «المجاهيم» مثلا!

صاح «سليمان» بانفعال:

- أو ساحرات «ماذريون» و«الدّواسر» يا جدّتي.

أغمضت السيّدة «دولت» عينيها وبدأت تتمتم بآيات القرآن، قام الصّغيران يبحثان عن القطّة في أرجاء المنزل، همست «مرام» في قلق:

- أخشى على «حمزة» من «رَيْهُقانة»، لا بد أنّها الآن تسيطر عليه وتتملّك جسده كما فعلت بـ«نور».

التفتوا جميعًا تجاه «نور» الّتي كانت تقبع بجوار المدفأة وهي ساكنة كخيال المآتة، قال «أبادول» ليطمئن «مرام»:

- لن تتمكّن «رَيْهُقانة» من تخلل جسد «حمزة» ولن تُسيطر عليه، فالمُحارب عندما يعود لملكة البلاغة للمرّة الثّانية لا يتمكّن أيّ كيان أثيري من احتلاله، وكأنّه اكتسب مناعة، قد تحمله وتنقله من مكان لآخر، أو تضربه وتؤلمه، لكنّها لن تستحوذ على جسده وعقله.

- وكيف عرفت هذا يا جدّي؟

أشاح بعينيه بعيدًا وقال وقد بدت علامات القلق على وجهه:

- لأنني زُرت المملكة مرّة أخرى بعد رحلتي الأولى.

فغر «كمال» فاه وسأله باندهاش:

- متى حدث هذا يا أبي؟

أجابه بتحفّظ:

- عندما كُنت في العاشرة من عُمرك يا «كمال»، لم أنقطع عن المملكة خلال السّنوات الماضية، وكان «الرمادي» دومًا يزورني في

رؤى كثيرة، وكنّا نتحاور كصديقين خلال الرّؤى، حوارًا حقيقيًا وكأننا نجلس وجها لوجه.

- ولكن...

قاطعه «أبادول» وقال بحزم شديد:

- اسمعوني أوّلًا، فقد نُفاجأ بأيّ حدث طارئ الآن، لا بدّ أن نتفق على خطّة ما، ونكوّن رابطًا بيننا، فقد نخرج من البيت فيصير بعضنا زائرين، أو أسرى.

- أسرى!

- نعم، من يُوسَم هنا على يد عشائر الجنّ، يصير ملِكًا لمن قام بوسمه، ولن يتمكّن أحد من رؤيته إلّا مُحارب جديد لم يتمّ مهمّته بعد، لأنّه سيكون ذا ميزات خاصّة، ميزات تتعلّق بجسده وحواسّه الخمسة، وليس بالأدوات، وتلك الميَزات تُفقد بعد إتمام المهمّة، كما فقدت «مَرام» ميزة قراءة الأفكار بعد أداء مهمّتها وأكملت رحلتها مع «أنس» بدون تلك الميزة، وليس بيننا محاربون جدد، فلم يقم كتاب عتيق باستدعاء من تبقّى من العائلة.

سأله «أنس» وعيناه تجوسان في قلق:

- وما العمل؟ جميع أدواتنا لا تعمل!

قال «أبادول» بثقة:

- سيُنقذنا الله كما يفعل في كلّ مرّة.

- ونعم بالله. ولكن لمَ لمْ يقع أحدنا في أسرهم بتلك الوسوم الّتي تصفها؟ لم يسمنا «الدّواسر» ولا «المجاهيم» خلال رحلاتنا!

- الوسم يقدّم بتضحية، الكيان الّذي يقوم بوسم أحدهم يقتطع جزءًا من تكوينه ليتمكّن من حوز على الأسير، وهذا مؤلم، لا بدّ أن يتعلّق به بشكل عميق أو يُحبّه ويعشقه.

وأردف «أبادول» بقلق:

- وللأسف، جميع أحفادي هنا مطمع لعشائر الجنّ.

قالت «مرام» وعيناها شاخصتان:

- و«رَيْهُقانة» تعشق «حمزة».

- لهذا لا بدّ أن نُسرع بالبحث عنه.

سأله «خالد»:

- وكيف نأخذ بالأسباب ونتفادى الوقوع في الأسر؟

- الخوف الشّديد، واليأس الشديد، والغضب الشّديد، كل هذا يجعلك فريسة لأي كيان من الكيانات الّتي تجول في بقاع وأجواء مملكة البلاغة، قد يغضب «حمزة» أو ييأس فتتمكّن من وسمه، تحلّوا باليقين، وثقوا بالله.

ران عليهم صمت ثقيل، قالت «نور» بصوت واهٍ كسرت به الصمت السّائد في الغرفة:

- لهذا كُنت فريسة لها، منذ وفاة أهلي والخوف لا يبارح صدري، لقد يئست من الحياة، حتّى أنني غضبت من والديّ وكأنّهما اختارا الموت بإرادتهما!

بدت «نور» في حالة مزرية، اقتربت منها السيّدة «دولت» ووضعت منديلها في كوب الماء الّذي كان لا يزال بين كفّي «نور»، وبدأت تمسح الكحل والدموع عن عينيها ووجهها بالمنديل المبلل بالماء وقالت في حنان بليغ:

- لا بأس عليكِ يا صغيرتي.

انتبهوا جميعًا أنّ هناك عبئًا ثقيلًا يجثم على صدر تلك الفتاة، كان الحزن يقتات عليها، وهي وحيدة، ومنكسرة بينهم، كما أنّها لم تسمع من قبل عن «مملكة البلاغة» الّتي انتقلت إليها فجأة مع حفنة من الغرباء عنها، اقتربت «سارة» منها وجلست بجوارها، وأمسكت بيدها تُربّت عليها. انتهت السيّدة «دولت» من تنظيف وجه «نور»، بدت الآن ملامحها وعيناها البريئتان، مسحت بكفّها على رأسها، وطلبت من «سارة» أن تعيرها ثيابًا أخرى نظيفة من ثيابها الخاصّة بها، فقد زحفت «نور» بثيابها نحو باب البيت فتلطّخت بالوحل وبدماء «حسّان»، انصرفت الفتاتان، وبقوا جميعًا في الغرفة ونيران المدفأة تطقطق أمام أعينهم، والكثير من الأسئلة بقيت معلّقة فوق رؤوسهم، ماذا سيفعلون؟

تناهى إلى مسامعهم هسيس يصدر من تحت الأرض، استيقظت كلّ حواسّهم فجأة ووقفوا يحدّقون في الأرض، ظهرت القطّة السّوداء أمامهم، وكأنّ الأرض قد انشقّت ولفظتها!

فور أن رآها «أبادول» انتفض وصاح متعجّبًا بصوت مرتفع:

- قطّ «الماو»!

تحلّقوا حول القطّ، فطالما شدّت هذه القطّة انتباه «أبادول» بتلك الطريقة، فوراءها سرّ غامض، كانوا جميعًا قد ظنّوا أنّها خرجت من البيت مع «حمزة».

ثبّتوا أعينهم عليها، كان لون شعرها النّاعم أسود دخّانيّ وكثيف، تلمع أطرافه كلمعان الفضّة على الذقن والجزء العلوي من منطقة الحلق وحول الأنف، وهناك علامات بلون رمادي قاتم على رأسها تشبه حرف «M» باللغة الإنجليزية، الفروة التحتية كانت شديدة السواد، والأنف يبدو كقطعة من الفحم الأسود على غير عادة القطط! حرّكت شاربها وهي تنظر إلى «أبادول»، ثُمّ خمشت الأرض بمخالبها، انحنى «أبادول» وبدأ يمسح على ظهرها، وسألهم بصوت هادئ:

- متى ظهرت تلك القطّة بالبيت؟ ومنذ متى وهي تعيش هنا؟

قال «خالد»:

- نفس الليلة الّتي رحلتُ فيها أنا وأخي إلى مملكة البلاغة، وغرقت أنت يا جدّي في غيبوبتك..

أضافت «مرام»:

- كانت تلازم الحديقة، وسمحنا لها بالبقاء في البيت بعد ذلك، إنّها قطّة نظيفة وذكيّة جدًا.

هزّ «أبادول» رأسه ثُمّ قال موجّهًا كلامه إلى القطّة:

- لكِ الأمان.

انتفضت القطّة، وقوّست جذعها، ورفعت ذيلها، وأصدرت صوتًا غريبًا يختلف عن المواء قبل أن تظهر خلفها فجأة شابّة ثلاثينيّة ممشوقة

القوام، تقف بثبات ببشرتها السّمراء لتحدّق في وجوههم، وعيناها الخضراوان تسبحان في بياض شاهق كزمرّدتين لامعتين، كان رداؤها بلون الهندباء، وعلى رأسها تاج ذهبيّ يتدلّى من تحته شال حريريّ خوخي اللون تبرز منه خصلات شعرها الأسود والمجعّد، تراجع الجميع خطوة للخلف.

حملت قطّتها واحتضنتها وكأنّها لم ترها منذ زمن، وظلّت القطّة تتمسّح بوجهها بشكل غريب، سحب «خالد» الخنجر الحلزونيّ الّذي كان شقيقه «حمزة» يستخدمه في معاركه مع «الدّواسر» و«ساحرات ماذريون» ووجهه نحوها، نسي لوهلة أنّ أسلحتهم قد فقدت قيمتها وصار لا أثر لها، قالت الشّابّة بصوت تشوبه بحّة لطيفة:

- السّلام على من أعطانا الأمان.

أبعد «أبادول» يد «خالد» من أمامها وقال:

- وعليكِ السّلام، من أنتِ؟

- الأميرة «شَفق» يا سيّد «أبادول».

- أنتِ من بنات «سَرْمَد»؟

- نعم.

سأل «خالد» بتحفّز:

- ومن «سَرمد» يا جدّي؟

- من سلاطين الجنّ الطيّار، وهي عشيرة من الجنّ تسكن الهواء.

أكملت «شَفق» قائلة:

- نسكن هواء «الكَنَهْوَر» فقط، فقد حُبسنا في نطاق أرض «الكَنَهْوَر».

- كيف هذا؟!

- منذ عهد بعيد يا سيّد «أبادول»، ليس لنا الخروج من هنا، منذ اشتعال الحرب بين «الدّواسر» و«المجاهيم»، اعتزل أبي الصّراع بينهما، وانتقلت عشيرتنا إلى هنا، ثُمّ مُنعنا.

- من منعكم؟

- حبسنا حابس! لقد كان هروب قطّتي لعالمكم مفاجأة لي، كُنت أسيء الظنّ بأبي دومًا، ولكنني عندما رأيت «الدّواسر» وهم يقتلون «مِسكة»، أدركت أنّه صادق

قال «أبادول» وهو يشبّك أصابعه:

- أُريد منك إيصال رسالة لـ«المجاهيم».

- من المُستحيل أن أصل إليهم، ولو تخطّى أحدنا حاجز «الكَنَهْوَر» سيموت، لكنّهم قد يصلون إلينا هُنا، فباقي عشائر الجنّ يتطفّلون على مساكننا أحيانًا كما فعلت «رَيْهُقانة».

مسحت «شفق» على رأس قطّتها السّوداء، واقتربت من «مرام» ووقفت قبالتها وابتسمت فأماطت اللثام عن أسنانها اللؤلؤيّة وقالت:

- شُكرًا لحنوّكِ على قطّتي، كُنتِ رفيقة بها كما رفقتْ بها السيّدة «مسكة» من قبل، التقمها ممرّ «أمانوس» منذ سنوات، بكيتُها كثيرًا، كُنت صغيرة وقت اختفائها، مضى وقت طويل على فراقنا، كنت دومًا معكم وأتواصل مع قطّتي، أسمع ما تسمعه، وأرى ما تراه، وعندما التقتْ قطّتي بـ«نور» وهي تُطارد «حمزة»، عرفتُ أنّ «ريْهُقانة» تسكنها، وكانت قطّتي لها بالمرصاد، لقد كانت قطتي الحبيبة تحرس البيت و«حمزة» طوال الوقت.

- أتعرفين «رَيْهُقانة»؟

- نعم أعرف تلك اللعوب الخبيثة، بيننا معارك كثيرة منذ الصّغر، اليوم حاولتْ قتلكم جميعًا.

فغر الجميع أفواههم وسألها «كمال»:

- كيف هذا؟

- قذفتْ بيتكم تجاه فجوة الموت الّتي تتلاعب في السّماء وتبتلع كلّ ما يقترب منها، قذفته نحو جوفها المعتم لتقضي عليكم للأبد، فاستقبلتُكم على حافّتها مع أبناء «سَرمد»، وأطحنا بالبيت بعيدًا، فاستقرّ إلى أرض «الكَنَهْوَر»، هنا أنتم في أمان، أستطيع إعادتكم الآن إلى دِياركم سالمين، فأنا مدينة لكم، فقد رعيتم قطّتي، وهي جزء منّي، كُنت أشعر بكلّ تربيتة على رأسها، شعرتُ بحنانُ «مرام» عليها، وبعناية «فرح» بطعامها، وبرفق «حمزة» بها رغم غضبه من تتبعها له طوال الوقت، واستئناس «خالد» بجلوسها بجواره وهو يقرأ.

كانت «شفق» تبدو أمامهم وكأنّها جسد ماديّ مما أربكهم جميعًا، ودّوا لو لمسوها ليتأكّدوا أنّها موجودة وتحدّثهم بالفعل، أطلّت «سارة» مع «نور» بعد أن بدّلت الأخيرة ملابسها، وعادت ترتدي الحجاب كما كانت سابقًا، تغيّرت هيئتها تمامًا! همست لهما «فرح» بما قالته «شفق»، قال «أبادول» موضحًا للجميع:

- «الماو» هو اسم القطّ باللغة الفرعونية القديمة، ولذلك يُطلق على تلك السلالة نفس الاسم، نُقشت قصّتها على جدران المعابد

الفرعونية القديمة، وفي مملكة البلاغة «الماو» تُرافق أبناء «سَرمد» وتمنحهم مهارات خارقة.

لوّحت «شَفق» بأصبعها في الهواء وقالت بجديّة:

- لا بدّ أن تخرجوا من البيت لمُساعدة «حمزة» بطريقة ما، فهو في أرض «الكَنَهْوَر» هنا، كُنت أرى «رَيْهُقانة» وهي تحمله.

قالت «مرام» بانفعال:

- خذيني إليه، أو أحضريه إلينا يا «شَفق».

- ما عُدت أراه، لقد اختفى عن أعين الجنّ.

- ماذا تعنين؟

- لم يعد حرًّا، لقد وسمته «رَيْهُقانة»، وصار أسيرًا لها.

شعرت «مرام» بقلبها يهوي ومادت الأرض تحت قدميها، أسندها «أنس» وأجلسها على الأريكة، بينما اقترب «خالد» من «شفق» وسألها:

- وكيف سنراه؟ وكيف سنحرره؟ وكيف...

قاطعه «أبادول» قائلًا:

- لن يراه إلّا محارب جديد كما أخبرتكم، وأرجو أن نلتقي بمحارب جديد لم يُتمّ مهمّته بعد ليرشدنا إلى مكانه.

قالت «شَفق»:

- عندما تناهى إلى سمع «رَيْهُقانة» صوت القنّاصين، وَسمَته في الحال، فحُجب عن أعيننا، ثُمّ طوّقها القناصون وألقوا القبض

عليها، ستحاكم بالتّأكيد فقد قتلت خمسة من ساحرات «ماذريون» وأغضبت آباءهم، لكنّها ستفرّ من السّجن كما تفعل كلّ مرّة، وتعود إليه، فهي سفّاحة مشهورة، والخوف من أن تُخرجه من أرض «الكَنَهْوَر».

سالت الدّموع من عيني «مرام»، الآن ابنها أسير لساحرة من ساحرات «ماذريون»، وصار خفيًّا، يَرى ولا يُرى، يسمع النّاس ولا يسمعونه، يا له من سجن مؤلم. قالت «شفق» وقطّتها السّوداء تدور حولها:

- هل ترغبون في إعادة بيتكم الآن إلى عالمكم؟ أستطيع ذلك.
قالت «مرام» بتصميم:

- لن أعود بدون ولدي «حمزة».

اجتمعوا على كلمة واحدة، لن نعود بدون «حمزة»، سنُساعده وإن لم نره، سنعثر على مُحارب جديد أو سننتظر وصوله، وسنبحث عنه في كل بقعة من بقاع أرض «الكَنَهْوَر».

قرروا الخروج في الحال، تزودوا بما يحتاجونه وارتدوا معاطفَ تقيهم البرد، وحملوا الأسلحة والأدوات الّتي جمعها «أبادول» لعلّها تسترد ميزاتها، قبل الخروج أخبرتهم «شفق» أن يختاروا أحدًا منهم ليبقى بالبيت، حتّى لا يتحوّل إلى خرافة! سألها «أنس» متعجّبًا:

- خرافة! كيف؟

شبّكت أصابعها وقالت شارحة لهم:

- -هذا ديدن أرض «الكَنَهْوَر»، كل مدينة وكلّ قصر، وكلّ قلعة يهجرها أهلها تتحوّل إلى خرافة، أطلال مهجورة، ومقبرة فور

أن يغادرها آخر سكانها، وتنتهي الحياة فيها، ولهذا لا بدّ أن يبقى أحدكم هنا، حتّى تتمكّنوا من العودة لدياركم سالمين.

ران عليهم صمت ثقيل، من سيبقى؟ وكيف سيتمكّنون من تركه خلفهم؟ وهل حان وقت توزيع الأدوار والانقسام لأداء مهمّتهم، تبادلوا النّظرات في قلق وتوتّر، وأخيرًا قال «راغب» والّذي كان يلتزم الصّمت طوال الوقت:

- سأبقى بالبيت.

قال «أبادول» بتأثّر:

- كيف هذا يا «راغب»، لن أتركك هنا وحدك.

- سأبقى هنا يا سيّدي، أنا لا أخشى الموت، ولا أخشى الوحدة، عشت معك الكثير من الأهوال خلال حياتي قبل وفاة زوجتي، وبعد وفاتها. تركتني وحيدًا وغبت عنّي بطرق غامضة ولم يرفّ لي جفن، وانتظرتك حتّى تعود، وعُدت في كلّ مرّة سالمًا وستعودون جميعًا سالمين مع «حمزة» بإذن الله. لديّ يقين أنّ الله سينجينا جميعًا.

ران عليهم صمت حميميّ دافئ وهم يتحلّقون حول «راغب»، سألته «شفق» وهي ترنو إليه بعينيها الخضراوين:

- هل تزعجك القطط يا سيّد «راغب»؟

- لا.. فأنا أُحبّها.

- أعرف هذا عنك، كُنت تحنو على «الماو» أنت الآخر.

أردفت بعد أن منحته ابتسامة لطيفة:

-سأترك لك رفقة تؤنسك.

ثُمّ فرقعت بأصابعها فظهرت مجموعة من القطط من أركان البيت، بدأت تموء وتتنقّل من مكان لآخر، قالت «شَفق» وهي تستدير متوجهة نحو الباب وهم يتبعونها:

- لن تتمكنّوا من الرؤية في البدايات فقط، سينقشع الضباب شيئًا فشيئًا فور ابتعادنا عن البيت.

خرجوا جميعًا خلفها، وأوصد «راغب» الأبواب والنّوافذ، وجلس على كرسيّ «أبادول» الهزّاز بجوار المدفأة، اقتربت القطط منه وتَحلّقت حوله، رفع الغطاء الصّوفي على صدره، وجلس يحدّق في لهب المدفأة ردحًا من الزّمن، ثُمّ حمل مصحفه، وبدأ يتلو آيات القرآن في سكينة.

أنهى «حمزة» سرد مغامرته على أرض مملكة البلاغة، وكان «طارق» يُنصت إليه بتركيز شديد، بدأ الليل يرخي جلبابه القاتم على المكان، وكان رأس «حمزة» يضجّ بالأسئلة.

أخرج «طارق» حجرًا كريمًا وفركه بيديه فبدأ يُشعّ ضوءًا حانيًا فتذكّر «حمزة» ما رواه له والده عن تلك «الكريستالات» المضيئة الّتي كانت تنير له الطريق في هذا الممر تحت النّهر الأخضر، والّتي أمدّه «أبادول» بها قبل أن يرحل مع «الرّمادي».

سارا معًا ثُمّ دلفا إلى كهف كان «طارق» قد عثر عليه قبل أن يرى «حمزة» حين كانت «ريهقانة» تطوف حوله. أسند «طارق» ظهره على جدار الكهف ومدّ قدميه، ورنا إلى وجه «حمزة» قائلًا:

- من الجميل أن يكون لك شقيق يُشبهك تمامًا، لا بدّ أنّكما شديدا التعلّق ببعضكما.

ابتسم «حمزة» موافقًا لكلامه، ثُمّ سأله:

- هل لك أشقاء يا «طارق»؟

- شقيق واحد.

- هل التقيت بـ«المغاتير»؟

صمت «طارق» هنيهة وقال:

- مملكة البلاغة مملكة عظيمة، وهنا تدور الكثير من الأحداث، ويزورها الكثير من المحاربين، من بلاد مختلفة وبلغات مختلفة، نحن نتعامل مع التّاريخ والكتب بشكل مختلف.

- كيف هذا وكلانا مُحارب استدعاه كتابه ليسترد كلماته؟

غضّن «طارق» حاجبيه وقال:

- أنت التقيت بـ«المغاتير»، وبـ«الحوراء»، وبـ«الزّاجل الأزرق» كما أخبرتني، أمّا أنا وكذا جدّي وأبي فالتقينا بـ«الطوارق»، وبالملك «أغيلاس»(1) وزوجته الملكة «تيولا»(2)، رموز عائلتك باللغة النّوبية،

(١)أغيلاس: اسم أمازيغيّ للذّكور بمعنى شبل الأسد.

(٢)تيولا: اسم أمازيغيّ للإناث بمعنى المحبوبة.

وهذا لارتباط الكتب الّتي تستدعي أفراد عائلتك بأمير نوبيّ قديم وكتاباته. أمّا نحن فكتبنا ترتبط بزعيم أمازيغي قديم.

- الآن فهمتك، ولكن هل التقيت بحرّاس المكتبة العُظمى؟

- بالتّأكيد.

- حسنًا، وماذا أخبرك الحرّاس عن كتابك؟

- لم يخبروني بشيء البتّة، أخبروني فقط أن أحذر، وأنّ مهمّتي كمهمّة أفراد عائلتي في أرض جبلية، وأنّ مدينة «كُويكُول» هنا بجوار سلسلة جبال «الخرافة»، فتسلّمت خريطة خاصّة، وبدأت رحلتي. وعندما وصلت هنا، ظننت في البداية أنني ضللت، فحسب الخريطة تقع «كُويكُول» حيث وصلت، لكنني لم أجد أيّ أثر لها!

- لا بدّ أنّك ضللت الطريق بالفعل.

- مستحيل.. رافقني صقري، وطاف فوق المكان عدّة مرّات، لقد اختفت «كُويكُول» من مكانها وكأنّها تلاشت وتبخّرت في الهواء!

- كيف هذا؟

- لا أدري..ربّما ابتلعتها الأرض!

- وأين الصّقر؟

- عاد ليُطلع حرّاس المكتبة العظمي بما استجدّ هنا، وتركني بعد أن يئس من إقناعي بالعدول عن قراري.

- أيّ قرار؟

- لقد قررت عبور سلسلة جبال الخرافة بنفسي، وعبرتها بالفعل،

وبينما كُنت في رحلتي لاستكشاف أحد الجبال بعد دخولي نطاق أرض «الكَنَهْوَر» لأبحث عن كهف يؤيني رأيتك.

- ولم عبرت جبال «الخُرافة» ودخلت أرض «الكَنَهْوَر» وحدك وقد حذّروك من هذا؟

ابتسم «طارق» وقال مازحًا:

- فضولي شديد، وقلبي حديد.

كان «طارق» قد اعتاد على تكرار تلك الجملة السّاخرة منذ صغره، عندما كان يشعر بالخوف، وعندما كان يشعر بالخطر وهو مقدم على أمر لم يحسب له الحسبان، كان يخفي اضطرابه خلف ابتسامته السّاخرة، ويقتحم المواقف المتتابعة الّتي يمرّ به في حياته بثبات، ويتعامل بشجاعة مع كلّ ما يلاقيه، وكانت المغامرة على أرض البلاغة تختلف، فهي حقًّا تحتاج إلى قلوب جسورة، ثابتة لا تهتزّ، وكأنّها مصقولة لا يحطّمها التردد والخوف. حدّق «طارق» في سقف الكهف وأردف قائلًا:

- عندما اقتربت من القمّة كدت أتراجع، فقد أحاطني الضباب من كلّ صوب وانعدمت الرؤية وكأنّني غطست في بحر من حليب، لم أكن خائفًا، لكني ترددت لوهلة بين شعوري بالفضول الشديد لاقتحام هذا الضّباب، وشعوري ألا فائدة من تلك الأرض المهجورة. أردت أن أتجاوز هذا الحاجز، هُناك شيء ما يتخلل جسدك وأنت تقترب منه، لا أدري كيف سأصفه لك! شعرت بتوقّف كلّ شيء، عقلي، وتفكيري، واللحظة الّتي كُنت أعيشها، وكأنّني تجمّدت وحُبست مكاني وتوقّف كلّ شيء اللهم إلّا أنفاسي ودقّات قلبي، وفجأة...

- ماذا؟

- رأيت جوادًا أسود يشقّ الضّباب بهدوء ويقترب مني، أحنى رأسه أمامي وكأنّه يدعوني لركوبه، ففعلت، سار قليلًا قبل أن يُهملج وسط البياض الكثيف الّذي يحيطنا، ثُمّ شعرت بجذعه يهتزّ، وإذا به يبسط جناحين عظيمين برزا من جسده، حلّق بي لمسافة قصيرة، بدأت الرؤية تتضح لي شيئًا فشيئًا، ونقلني إلى الجهة الأخرى، وهبط بي على أرض «الكَنَهْوَر» وتوقف، وقبض جناحيه فألصقهما بجذعه وبطنه، وظلّ على حاله يرفض الحركة، فترجلتُ عنه، فحلّق سريعًا وتركني ومضى!

- هذا أمرٌ ليس بغريب على «مملكة البلاغة»، فقد التقت عمّتي وزوجها بخيول تتحدّث بلغة البشر، «خيول الكحيلان»، هل سمعت عنها؟

- لا أظنّ أنّ هُناك خيولًا تُشبه ذاك الجواد! إنّه عجيب، ورائع و...

قاطعه «حمزة» قائلًا:

- هكذا قالت عمّتي «حبيبة» عن خيول «الكُحيلان».

ران عليهما صمت قصير، كان «حمزة» يتحسس الوشم بين حاجبيه وهو يتألّم، همس قائلًا:

- ترى ما الّذي يعنيه هذا الوشم؟

- لا بدّ أنّها وسمتك به لغرض محدد.

- كانت تتألّم وهي تسمني به! أشعر أنّ هناك شيئًا ما تغيّر في نفسي، أُريد الذّهاب إلى المكتبة العظمى لأتبيّن معنى هذا الوشم الّذي وُسِمت به.

التفت «طارق» نحوه وقال بجديّة وهو يتمعّن في الوشم:

- سنرى غدًا.

بدأ النّعاس يداعب أجفانهما، تمتم «طارق» وهو يغالب النوم:

- يُشبه التعرّض لصاعقة كهربائية.

اندهش «حمزة» من تلك الجملة الّتي ألقاها «طارق» على مسامعه فجأة فسأله:

- وما الّذي يشبه التعرّض لصاعقة كهربائية؟

- اختراق الجدار.

- أيّ جدار!

- الّذي يعلو قمم جبال «الخرافة» ويتصل بسحب السّماء ويفصل أرض «الكَنَهُور» عن باقي بقاع المملكة.

- لعلّ هذا الجواد يظهر هناك وينقلنا.

- ربّما!

عادا لصمتهما، وأخذ الكرى بمعاقد جفني «طارق»، بينما راح «حمزة» في سُبات مُضنٍ وغير مريح.

براكين طِزمِساء

تحت الرّكام والرّماد، وحيث تتأجج طبقات الأرض من تلك النيران السّائلة التي تتلظّى وتنطوي فتلتهم نفسها وهي تنفح لهيبها وأدخنتها وتلفظ حممها من فوهة براكين

« طِرْمِساء»[1] القريبة، لتسيل كأنهارٍ من الجحيم وتلتهم كلّ شيء تمرّ عليه في لمح البصر، وحيث تتصاعد تباعًا الحلقات الدّخانيّة، لتتكاثف السّحب السّوداء فوقها في السّماء، كانت تلك البقعة حيث امتدّ سلطان «المجاهيم» وصاروا يحكمون أكثر من ثلثي ما تحت أرض مملكة البلاغة.

في وسط قاعة منحوتة في قلب هذا الجحيم كان «المجاهيم» يثقبون «رَيْهُقانة» بأعينهم، وهي معلّقة كالذبيحة وقد أحاطها مردة «المجاهيم» من كلّ صوب وشكّلوا حولها دائرة، بوجوههم التي اقتطعت من ظلمة الدّيجور، حيث ظهرت هنا وبوضوح ملامحهم الّتي كانت تغوص بين طيّات الثياب وهم يطوفون فوق سطح الأرض، كانت «رَيْهُقانة» تحدّق في أعينهم وهي ترزح تحت موجة من الأحاسيس المتضاربة، الكثير من الغضب بسبب سقوطها في شباك القنّاصين، وبعض الخوف من هؤلاء المردة الّذين يحيطون بها، وبعض القلق، فقد ضحّت بجزء من كيانها لتتمكن من وَسم «حمزة» وإخفائه عن أعين المجاهيم وعشائر الجنّ وباقي ساحرات «ماذريون». كانوا غاضبين فقد خرجت عن طوعهم جميعًا، وقتلت زعيم «الدّواسر» لتسلبه قوّته وتستعين بها لتعبر ممر «أمانوس» لتتبع أحد أحفاد «أبادول» صاحب الفضل عليهم.

وكان الواجب عليها أن تضع قوّتها المكتسبة بين يدي زعيم «المجاهيم»، وتتخلّى عنها طواعية له. كما أنّها قتلت خمسًا من ساحرات «ماذريون» مما أغضب آباءهم وأمهاتهم، حسب ما وصلهم من أخبارها عن طريق الوسطاء. بدأت المُحاكمة، وتعالت أصوات همهماتهم، سألوها عن سبب قتلها للساحرات فلم تُجبهم. سألوها ماذا حدث لعائلة «أبادول» هُناك؟ فلم تُجبهم أيضًا.

---

(١) طِرْمِساء: الظّلمة الشديدة، طرمس الليل أي أظلم.

بدت متهالكة، صارت أضعف مما كانت عليه، وعادت كما كانت ساحرة لا تختلف عن أترابها من باقي ساحرات «ماذريون». يستطيعون التغلّب عليها بزفرة واحدة من صدورهم المتأججة بالحمم.

بدأ المردة يجلدونها بسياط وكلاليب صنعت من مارج من نار، وتألّمت بنت الجحيم من الجحيم نفسه، كما يتألّم الطين من الطين، وكما يوجع أحدنا أخاه، تحمّلت بشدّة وعناد حتى انتهوا من جلدها، وسيقت إلى مقبرة «طِرْمِساء»، حيث رقد الأسلاف رقدةً طويلة، ليبدأ نبش قبر عتيق لتُنزع جمجمة لسّاحر من السّحرة المقبورين فيه منذ أمدٍ بعيد، ولتُحبس «رَيْهُقانة» فيها، لا بدّ أن تعذّب وتعاقب، فالموت راحة لها، هكذا اتخذوا قرارهم.

وبينما هم ينبشون القبر، هبّت عاصفة حارّة، وقلبت الرّياح غيوم السّماء، واصفرّت الأجواء وكأنّها تُمطر الرّمال، إنّه «أَسْحم»[1]، عملاق من عمالقة الجنّ، وصنديد من كبار «المجاهيم» جاء فحررها، وكان يذوب فيها عشقًا قبل أن تختفي منذ سنوات مع باقي السّاحرات الملعونات بحبسهن في الجماجم، وكانت لا تبالي بحبّه لها، وعندما علم بما حدث لها بعد عودتها أشفق عليها وحنّ إليها، فحررها من بين أيديهم، احتوى كيانها بكيانه فلم يستدلّ أحد عليها، وطار معها بعيدًا عن مقبرة «طِرْمِساء».

---

(١) أسْحم تعني السّحاب الأسود الماطر، والسّحماء هو السّواد.

- ٤ -

«بيادق الظلام»

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تجتمع فيها عائلة «أبادول» كلّها على أرض مملكة البلاغة، كان الجدّ الأكبر يسير في المقدّمة، أمّا «أنس» فقد قرر السير خلف الجميع لحراستهم. بينما الصغيران «فرح» و«سليمان» فكانا في حالة من الحماس الشديد والترقّب، فهما في العاشرة من عمرهما الآن ويعيشان مغامرة عجيبة.

كانت «نور» وبعد ارتدائها لملابس «سارة» تُشبهها كثيرًا، نظرت الفتاتان لبعضهما في لحظة خاطفة، ابتسمت «نور» وإن كانت تستبدّ بها رغبة في النّحيب، لقد تعبت تلك الفتاة ومرّت بالكثير، ولا تدري إلى أين تقودها تلك الأسرة غريبة الأطوار الآن، كما أنّها تشعر بالغربة بينهم.

مرّوا بقلعة مهجورة، لها أسوار مهيبة، توقفوا أمامها في حالة من الخشوع، لقد بدأ الخوف يتسلل إلى قلوب بعضهم، السّكون الّذي يعم المكان، الظلمة، الأشجار الّتي نفضت رداءها على الأرض الخالية من أي روح أو بشر، حتّى الفئران وخفافيش الظلام غير موجودة هنا! كان الصّمت يخيّم عليهم، أمّا «شَفق» فكانت تراقبهم في فضول، وقطّتها السّوداء الّتي تملك عينين خضراوين كعينيها تمامًا تدور حولها طوال الوقت، التفت «أبادول» نحو «شفق» وسألها:

- أنتِ تعرفين كلّ بقعة هنا، دلينا على الطريق.

- أرض «الكَنَهْور» ليس لها خريطة!

- كيف هذا؟

- تتغيّر طوال الوقت، وقد تختفي بقعة منها وتظهر أخرى مكانها، كما أنّنا لاحظنا أنّ هناك بقاعًا محجوبة عن أعيننا، هناك أماكن هنا ليس لنا سُلطان عليها، ولا نقربها بأمر من أبي.

قال «أنس» بانفعال:

- لا بدّ أن نمشّط كلّ بقعة هنا، فـ«حمزة» موجود هنا، وسَيَرانا، وإن لم نره، وربّما يتمكّن من إرسال إشارة لنا.

أغمض «أبادول» عينيه في إشارة لحفيده بأنّه يوافقه الرّأي، ثُمّ سأل «شَفق»:

- أين باقي عشيرتك؟

- في الهواء حولكم.

ثُمّ أردفت:

- نحن نعيش بين السّماء والأرض، سأنصرف الآن فهناك ما أودّ سؤال أبي عنه، وسأترك «الماو» معكم لكي أتمكن من العثور عليكم مرّة أخرى.

قالت «شفق» وهي تمدّ يدها بالقطّة لـ«مرام» وهي تهمس لها:

- «الماو» في عهدتك، وأنتِ في عُهدتها.

اختفت أميرة الجنّ وتركت قطّتها تموء بين يديّ «مرام»، وعادوا لسيرهم، كانت الأرض تتبدّل تحت أقدامهم، فبعد التراب الأسود الّذي كان يفترش الأرض حول تلك القلعة المهجورة، مرّوا بأرض أخرى صحراوية، خرجوا منها وهم عطشى، بعد أن نفد الماء الّذي كانوا يحملونه.

مرّوا بعد تلك الصحراء بقرية بيوتها من الطّين، وسقوفها من جريد النّخل، وكان هناك رماد بركانيّ أبيض يغطّي كل شيء فيها، البيوت، الأسواق، البضائع الهالكة، الثّياب البالية، الأواني النّحاسية المقلوبة على الأرض، كان الرّماد الأبيض يتطاير وتحمله الرّياح حتّى أنّه غطّى رؤوسهم وعلق برموشهم، رأوا بئرًا فأسرع «خالد» يتفحّصه، لكنّه كان جافًا. وقفوا يراقبون البيوت ويدلفون من باب ويخرجون من آخر وهم في حالة من الخواء النّفسي.

تناطحت الأفكار في رؤوسهم، ما الّذي حدث هنا؟ أين أهل تلك البيوت؟ وما سرّ أرض «الكَنَهْوَر»؟ وأين هو الحاجز الّذي يفصلها عن باقي الأجواء في هذا العالم السّرمديّ.

أكملوا مسيرتهم عبر البقاع المختلفة، نفس السكون، ونفس الأجواء الخالية حتّى من شقشقة العصافير، لا أثر لذبابة، أو حشرة زاحفة أو فراشة، كلّ شيء هنا مختلف!

طال المسير، ولاحت من بعيد خضرة داعبت أنظارهم فتهللت وجوههم، كان بُستانا واسعًا، أسرعوا تجاهه، طقطقت الأعشاب تحت أقدامهم، هناك حياة! كانت الأشجار حلوة ومخضرّة، ومليئة بالثّمار

مما لفت انتباههم، تلك شجرة برتقال عظيمة، وهذه شجرة ليمون، وهنا شجرة تفّاح، طافت الابتسامات بوجوههم أخيرًا فهناك أثرٌ للحياة.

جمعوا بعضها وكادت «فرح» تلتهم ثمرة التّفاح الّتي التقطتها لولا يد أبيها الّتي امتدت لتمنعها وهو يحدّجها بنظراته قائلًا بصوت مسموع للجميع:

- اصبروا قليلًا حتّى يطمئنّ قلبي، نحن لا نعلم لمن هذا البُستان وأيّ ثمار تلك! اصبروا أرجوكم، ربّما نلتقي بالأصدقاء!

ألقت «فرح» بثمرة التّفاح، وألقوا جميعًا ما جمعوه على الأرض. سارت «فرح» وقد أعياها الجوع والعطش، واقتربت من أُمّها وسارت بجوارها في كسل.

راحوا يتنقلون بين الأشجار، وفجأة! تناهى إلى سمعهم صوت صهيل وهمهمات خيول، ركضوا على التلال الخضراء أمامهم بعد أن خرجوا من هذا البُستان، وعندما اصطفّوا على أعلى بقعة في هذا التلّ بجوار بعضهم البعض انكشفت أمام أعينهم وعلى امتداد أبصارهم أرض فردوسيّة خضراء خلّابة، تركض فيها جماعات من الخيول بمختلف ألوانها، بيضاء، وسوداء، وصهباء، وكستنائيّة، وقفوا مشدوهين وهم يرونها تركض هنا وهناك، واقشعرّت جلودهم عندما رأوها تقف على ثلاثة من قوائمها وترفع الرّابع عن الأرض قبل أن تركض مُسرعة ثُمّ تبسط أجنحتها وتطير، إنّها خيول صافنات مجنّحة، ما أروعها! فغروا أفواههم ووقفوا في ذهول، كانت الخيول تركض لمسافة قبل أن تبسط أجنحتها لتطير، ثُمّ تعود وتطأ بحوافرها الأرض في رشاقة، صاح «سليمان» وكان بجوار جدّه «كمال»:

- خيول مجنّحة!

- أرأيت كيف تَصفِن قبل أن تطير.

- ماذا تقصد يا جدّي؟

- الصَّافِن من الخيل هو القائم على ثلاث قوائم وطرف حافر الرَّابعة استعدادًا للانطلاق، وهي تفعل ذلك الآن، انظر! تلك الصّافنات رائعة!

وقفوا يتأمّلونها وكلّ منهم يقول شيئًا ما، اختلطت أصواتهم بينما وقف «أبادول» صامتًا في حيرة، رفع رأسه للسماء وكأنّه يبحث عن «الرّماديّ»، همس في توتّر:

- أين أنت أيّها الصّقر الكسول؟

كان «أبادول» قلقًا، وكانوا جميعًا غارقين في حالة من التّخبّط، هل يقتربون من الخيول أم لا؟ وهل تلك خيول ناطقة مثل خيول «الكحيلان» الّتي التقى بها «يوسف» مع «حبيبة» أم لا؟ ليتهما كانا هنا! سرقت الخيول بروعتها ألبابهم وأسرت أنظارهم، ووقفوا كالمسحورين بجمالها. على حين غفلة منهم باغتتهم كوكبة من الفرسان الملثّمين والمتشحين بالسواد، انقضّوا عليهم كرجال الكهوف الّذين يهجمون بكلّ ضراوة على فرائسهم، بيد أنّهم لم يضربوهم بهراوات غليظة. أمسك كلّ فارس منهم بفرد من أفراد عائلة «أبادول»، وأجبروا رجال العائلة على الانبطاح على وجوههم على الأرض، يد تقبض على الأعناق وتلصق الوجوه بالتّراب، والأخرى تمسك باليدين معًا خلف ظهورهم. كانوا يقبعون على ظهورهم ليمنعوهم من الحركة، بينما تلاحمت النّساء حول الجدّة وأمسكن ببعضهنّ البعض، أراد «خالد» أن يقول شيئًا، فصاح قائلًا:

- نحن مـ..

شدد الفارس من ضغطه على عنقه وقاطعه قائلًا:

- لا أُريد أن أعرف شيئًا عنكم، كان من الخطأ فراركم من المدينة أيها الحمقى!

حدّق «أنس» في عيني ابنه «خالد» المُمدد بجواره ففهم الشّاب ما يرمي إليه أبوه والتزم الصّمت، جرّدوهم من أسلحتهم وجمعوها في جراب من الجلد حملها أحدهم، مما أغضب «أبادول»، قال أحدهم مُتعجّبًا:

- ملابسهم غريبة! وكذلك أحذيتهم!

- لا بُدّ أنّهم بدّلوها بعد هروبهم، فهناك الكثير من المدن والقرى المهجورة حول المكان.

ركل الآخر «خالد» وسأله:

- من أين لكم بتلك الثّياب الغريبة؟

أجابه «خالد» وهو يكزّ على أسنانه:

- أتينا بها من ديارنا.

أضاف «أنس» مُسرعًا:

- هكذا نرتدي في قبيلتنا، نحن من مملكة الشّمال.

صاح قائدهم وهو يسحب «سليمان»:

- توقفوا عن الجدال وأسرعوا قبل أن ينكشف الأمر.

قرّبوا «فرح» من أُمّها فقد كانت تبكي وتُنادي عليها، وربطوهما معًا بحبل طويل ليتمكّنا من السير بسهولة ولا ينفصلا عن بعضهما، وكذلك

فعلوا بـ«سليمان» و«سارة»، وكانت «نور» تُشارك السيّدة «دولت» في قيدها.
قال أحدهم بحزم شديد:

- كيف استطعتم بلوغ تلك المنطقة؟ لقد سرتم لمسافة طويلة!

قال فارس آخر لزملائه وهو يزفر بحنق شديد:

- لا تُخبروا القادة بما حدث، سنُعيدهم إلى المدينة في الحال.

- لكنّهم أكبر عددًا مما أخبرنا به المشرفون!

- لا شكّ أنّهم لم ينتبهوا لعددهم الحقيقي، هؤلاء المشرفون حمقى، والعدد هناك يتزايد كلّ يوم.

بدأت مسيرتهم ولازمت قطة «الماو» «سليمان» والتصقت به، وقادوهم بعيدًا عن السهول الخضراء الّتي ترعى فيها تلك الخيول المجنّحة العجيبة، واقتادوهم نحو الغرب، دلفوا بهم إلى مدينة عظيمة، يبدو أنّ ثمّة حياة هنا، وليست أرض «الكَنَهْور» مقبرة كما يُشاع عنها!

كان «كمال» يُسرّع من خطواته ليقترب من أبيه، وكلاهما يفتح عينيه على وسعهما ويراقب كلّ شيء، بينما انشغل «خالد» في حفظ تفاصيل المكان في ذاكرته، وكان «أنس» يعرف طبيعة ابنه وتفكيره التحليلي، فتركه يمشّط المكان بعينيه النّابهتين ولم يوجه إليه كلمة، دلفوا المدينة من باب خلفيّ يؤدّي إلى مستودع للحبوب والغلال، وكان هناك أبراج عسكريّة عالية لمراقبة الطريق، بدا واضحًا أنّ الحارس المُراقب والواقف أعلى البرج القريب على وفاق معهم، فقد غمز لهم بعينه فور أن رآهم، وكانوا يتسللون وهم يجرّونهم بمعرفته، وكان يغضّ الطرف عنهم. تسلل الحرّاس وهم يسحبون أفراد عائلة «أبادول» وساروا بمحازاة السّور

الخلفي حتّى وصلوا إلى بناء تصطفّ فيه الزنازين بجوار بعضها البعض، أدخلوهم في زنزانة واسعة، وحلّوا قيودهم، وهمّوا بالانصراف، طلب «أبادول» الحديث معهم فرفضوا، ظلوا يُكررون في تصميم:

- «ليس الآن.. ليس الآن، يكفي ما حدث»

جلسوا جميعًا وقد أنهكتهم رحلتهم سيرًا على الأقدام، كان الليل قد بدأ يُرخي سدوله على المكان، أخذ الكرى بمعاقد أجفانهم، بينما بقي «خالد» يحدّق في سقف الزّنزانة، هو يعرف هذه المدينة جيّدًا، يشعر أنّه قد رآها من قبل! ولكن أين؟

استيقظ «حمزة» على رائحة دخان الحطب المحترق، فقد أطفأ «طارق» للتوّ النّار الّتي كان قد أشعلها ليلًا أمام الكهف، كان الليل قد عَسعَس ساحبًا نصف عباءته المعتمة، وهاهو الصّبح يتنفّس طاويًا نصفها الآخر وناثرًا ضوءه الحاني بالمكان، جلس «طَارق» يُحدّق في الغيوم الّتي تخللها ضوء خفيف، كان ساهمًا وكأنّه يَطرح على تلك الغيوم سؤالًا يُحيّره، التفت تجاه «حمزة» الّذي أقبل ليجلس بجواره متوجهًا بنظره لنفس البقعة الّتي يتأمّلها، فمدّ «طارق» يده له بتمرةٍ، وقال بصوت دافئ:

- مرحبًا يا صديقي.

ران عليهما صمت لطيف وهما يحدّقان في السّماء، كانا مُتحمّسين لرحلتهما حيث سيخرجان من أرض «الكَنَهَوَر» ويعبران جبال «الخرافة» ليذهبا إلى المكتبة العُظمى، صليا الفجر معًا قبل تمام الشّروق، وبدأت مسيرتهما نحو الجبال، بدأ كلّ منهما يحكي للآخر عن بلاده، ويسأل عن الأخرى.

مرّت ساعة، وبدا لـ«طارق» أنّهما ضلّا الطريق، وكان لا بدّ من الوقوف للرّاحة، وبينما كان «طارق» بجوار نهر رائق الماء يغسل يديه فيه ظهرت «رَيْهُقانة» فجأة، ووقفت قبالة «حمزة»، فبدأ يبتعد عنها وعلامات الغضب تبدو على وجهه، ظلّت تُلاحقه، فرآها «طارق» وهي تتحدّث إليه، فأسرع نحوهما، حاولت أن تدفعه بعيدًا وأسقطته أرضًا بحركات ذراعيها وقواها الخفيّة فوثب قائمًا وسحب سهمًا عسجديًا[1] من سهامه ورماه نحوها، فارتجّ كيانها، وكأنّها أُصيبت بصاعقة، لكنّ كيانها ظلّ أمامهما، قال «حمزة» يستحثّه على تكرار رميها بالسّهام:

- أعد الكرّة فقد تأثّرت كثيرًا.

- سأفعل.

استشاطت غضبًا واستدارت نحو «طارق»، أدركت أنّه مُحارب جديد، فهدرت غاضبة:

- سُحقًا لك! هذا ما كان ينقصني! محارب أرعن جديد!

أسقطته أرضًا مرّة أُخرى بحركة من ذراعيها، فاحتكّ جسده بالأرض بقوّة، وطافت بـ«حمزة»، وحملته في الحال، بعيدًا عن أرض «الكَنَهْوَر»، وبعيدًا عن عيني «طارق». رجف قلب «طارق»، وصرخ صرخة غاضبة فتردد صدى صرخته في أجواء أرض «الكَنَهْوَر» الموحشة، لقد سلبته «رَيْهُقانة» رفيقًا كان قد بدأ يأتنس برفقته في تلك البقاع المهجورة، أطلّت من عينيه نظرة تصميم، لقد عقد العزم في الحال، لا بُدّ أن يُسرع ليعبر جبال «الخُرافة» ليُعلم حرّاس المكتبة العظمى بما حدث لذاك الشّاب

---

(١) العسجد: الذهب.

دومًا كمعالمَ أثريّةٍ وأطلالٍ حجريّةٍ تدلّ على مملكة «نوميديا»[1] القديمة، كانت عيناه تجولان في أرجائها بإعجاب شديد لعمارتها الهندسية ونظامها العجيب، رأى«قوس النّصر» الّذي التقط له أبوه العديد من الصور تحته مع شقيقه، لمح المسرح ومدرجاته المحفورة بنظام هندسي بديع مرتفعة إلى أعلى وتتوسطها ساحة العرض متمركزة وسط أرض هذا المسرح.

غضّن حاجبيه فجأة وانبطح أرضًا ورفع عينيه يراقب في حذر، فهناك الكثير من الجنود خلف الأسوار تضوي سيوفهم تحت ضوء الشّمس، إنّهم يستقبلون فارسًا ملثّمًا يمتطي جوادًا مجنّحًا يُشبه الّذي قد التقى به من قبل، هبط الفرس وطوى جناحيه، وترجّل الفارس، كان يحمل غلامًا، دلف الغلام مع اثنين من الحرّاس، وانصرف الفارس الملثّم بجواده المجنّح.

هبط «طارق» من مكانه وانتقل إلى جزء آخر من الجبل أكثر انخفاضًا من السّابق، يستطيع منه مراقبة المدينة دون أن يراه أحد، وجلس يتمعّن في تفاصيل تلك الجميلة..«كُويكُول»، الّتي يسكنها الآن رجال ونساء يختلفون عن هؤلاء الّذين شيّدوها، فليست تلك بملابس الرّومان، وليست تلك بوجوههم، رأى فتاة تهرول مسرعة خلف شاب غاضب وهي تناديه:

- «سِيفاو».

---

(١) نوميديا هي مملكة أمازيغية قديمة، تقع في ما يعرف الآن بالجزائر، وجزء من تونس وليبيا، وأقصى شرق المغرب بدأت المملكة كدولة ذات سيادة ثم مقاطعة رومانية، وتعتبر واحدة من أولى الدول الكبرى في تاريخ الجزائر. أشار المؤرخون اليونانيون إلى هذه الشعوب باسم «Νομάδες» أي Nomads «رُحل».

لم يتمكّن من سماع باقي حوارهما، لكنّه أدرك أنّهما من الأمازيغ، فذاك الاسم أمازيغي، وكان يرتدي زيًّا يختلف عن زيّ البقيّة من أهل المدينة.

بدا له سكّان «كُوِيكُول» غريبي الشكل في ثيابهم الموحّدة، نفس القماش، ونفس اللون وكأنّهم في مستعمرة ما..

إلّا «سِيفاو» فهو لا يرتديها، وكذلك تلك الفتاة الّتي كانت تتبعه! ترى ما الّذي يحدث هنا؟ اهتزّ كتاب «كُوِيكُول» في حقيبته، فأخرجه ليقرأ أوّل جملة نُقشت على صفحته الأولى:

«يُولد الإنسان حرًّا حتى يقع في الأسر، أسر بسلطان، أو أسرٍ بسبب الحبّ، وربّما بدَيْنٍ لم يُسدد، والأسوأ أن تأسره فكرة خاطئة، فيموت وهو على قيد الحياة.»



خالد

استيقظتُ قبل الجميع رغم أنني كُنت آخرهم استسلامًا للنوم في الليلة السّابقة. كان ما حدث لعائلتنا يُغضبني للغاية، ولم أتمّكن من البوح لأبي بمكنون صدري، فيكفيه ما يشعُر به من قلق على «حمزة». بالأمس؛ نامت «فرح» في حضن أُمّي، ونام «سُليمان» في حضن أبي فقد كان يفتقد والديه بشدّة فأشفق أبي عليه، أمّا «سارة» فقد أسندت رأسها على كتف «نور» الّتي تكوّرت بجوار جدّتي، استدرت للجدار واجتررت كلّ ذكريات رحلتي عندما كُنت أتنقّل بين شخصيّات تختلف في طباعها وتكوينها عنّي، أسير بقالبها وهيكلها، تارة في صورة شاب فقد بصره، وتارة

كحوت يمخر عباب البحر! ليس لي أن أكون أنا، وليس لي أن أبوح بما يدور في رأسي، وليس لي حتّى أن أصرخ مستغيثًا بأخي ليُنقذني.

تذكّرت «سَاهور»، كان جميلًا، ما زال أثر نقائه باقيًا بين أضلعي، ويبدو أنني قد احتفظت ببعض من شخصية أخيه «سنمّار» الجامحة والمرحة، تُرى ماذا تركتُ فيهما؟ وهل لي أثر؟ لا بدّ أنّهما شَعرا بي كما شعرت «نور» بـ«رَيْهُقانة» وهي تتملّك جسدها، فلقد أخبرتنا أنّها كانت تشعر بكلّ شيء وتسمع كلّ كلمة، الأمرُ يُشبه ما مررت به. تُرى هل حال أخي «حمزة» الآن كحالي عندما كُنت«زائرًا» أمّ لا؟ فهو أيضًا سَيري الجميع بعينيه لكنّنا لن نراه ولن يتمكّن من الحديث إلينا، وكأنّه «الرّجل الخفيّ»، البائسة «رَيْهُقانة» فقط هي من ستراه وستُحدثه.

يا إلهي! الأسئلة تتقافز إلى ذهني وتدور كطواحين الهواء، كيف لها أن تَخطفه هكذا من بيننا، ومن بيتنا، ومن عالمنا؟

كيف تجرؤ! هل هو من سَمح لها باختطافه هكذا وأَسْره؟ ربّما ضعفه أمامها جعله عُرضة لهذا، كيف لم ينتبه لنفسه؟ هل وقع في حُبّها؟ لا.. لا أظن! ولكن.. كيف سنُساعد «حمزة» ونحن لا نراه؟ وكيف سنتغلّب على المخاطر ونحن منقطعون عن التّواصل مع حراس «المكتبة العُظمى»، و«المغاتير»، والصّقور، بل وعن كلّ من التقينا بهم من قبل خلال رحلاتنا السّابقةِ أنا، وأخي، وأبي، وأمّي، وجدّي «كمال»، وكذلك جدّي «أبادول»! تبدو الأمور سيئة للغاية.

كيف فتحت «رَيْهُقانة» ممر «أمانوس» مرّة أخرى ونقلت بيتنا بأكمله من خلاله؟ أليس فتح الممر خبرًا تتناقله الصّقور ويعلمه حرّاس المكتبة؟ ويُصدر صوتًا مهيبًا سمعته بأذنيّ وأنا أخرج منه بعد أن ألقيت التّحيّة على حارسه وأنا أغادر مملكة البلاغة؟

فأين هم الآن؟ هل تَبِعتني؟ هل كُنت أنا السبب في مرورها؟ ثُمّ؛ ألم يقُل جدّي أنّ أرض «الكَنَهْوَر» مهجورة وخالية من الحياة؟ فمن هؤلاء الّذين قاموا بالقبض علينا

وكيف تكون أرض «الكَنَهْوَر» خالية من الحياة وقد مررنا ببستان نضر ومخضوضر ورأيت حقول القمح الذّهبية ونحن نسير إلى هذا المَكان المغلق، كما أنّني رأيت تلك الخُيول المُجنّحة، أليست هذه حياة؟

ضربت الحائط بقبضة يدي، كُنت أشعر أنّ الدّماء تغلي في عروقي، اقتربت القطّة السوداء منّي، لا أراها مميّزة ولم تظهر لنا أيّ مهارة، دفعتها بضيق لأوّل مرّة! ما عدت أطيق مواءها وتمسّحها بي، ابتعدي عنّي، أخشى أن تتعلق عفريتتك «شَفق» بي، ليست عائلتنا في حاجة لُمصيبة أخرى. ثُمّ أين هي «شَفق» الّتي خرجت لنا من الهواء كـ«فرقع لوز»[1]؟

كيف لا تُساعدنا وقد اعتنينا بكِ أيّتها «الماو»؟ ثُمّ أين قدرات «الماو» الخارقة الّتي أخبرنا عنها «أبادول»؟ لماذا لمْ تُخلّصينا من أسر تلك العصابة من الملثّمين؟ ابتعدي أيّتها الهرّة عنّي. انصرفت القطّة، وأصابني صُداع، لا بدّ أن نَخرج من هُنا، ما لهم نيام كأهل الكهف هكذا! سأسعل وأحدث جلبة لعلّهم يستيقظون. بدأت أفتعل السّعال فداهمتني نوبة من السُّعال بالفعل، فاستيقظت أُمّي مفزوعة ثُمّ استيقظ الجميع تباعًا، جلسوا في صمت يمسحون آثار النّوم عن وجوههم. لم يكن بنا جهد للكلام، فنحن مُتعبون وبطوننا تُقرقر من شدّة الجوع والعطش. بدأنا نتحدّث وفور أن ارتفعت أصواتنا فوجئنا برجل

(١) فرقع لوز: حشرة -من الخنافس- تحاول الدفاع عن نفسها بالتظاهر بالموت وتسكن ثم تتثب فجأة وثبة سريعة عالية في الهواء في محاولة للابتعاد عن مكان الخطر.

أربعيني أصلع يفتح الباب، لا بدّ أنّه كان يقف خلفه، كان وجهه مكشوفًا! أين اللثام؟ وأين الملابس السّوداء؟

قال وهو يُحيينا بحبور تعجبّنا له:

- تستطيعون الخروج الآن ولكم حرّية التجوال في أرجاء المدينة بأكملها في أمان، ولكن لا تعبروا الحدود وتخرجوا من الأسوار أبدًا مهما حدث.

قال أبي وهو يقترب منه:

- لمْ تسألونا من نحن ومن أين أتينا، ولم تسمعوا منا، وألقيتم القبض علينا بطريقة غريبة، ثمّ قُمتم باحتجازنا طوال الليل في تلك الزنزانة، والآن تُطلقون سراحنا بشروط!

هزّ الرّجل رأسه وقال بنظرة خاوية:

- أنا لا أعرفكم، ولم أقم بإلقاء القبض عليكم، وظيفتي هنا استقبال المستبعدين الجُدد.

- المستبعدون! من أنتم؟ وأين نحن الآن؟

- «بَيَادق الظَلام» هم الّذين أحضروكم إلى هنا، نحن سكّان المدينة «المستبعدون»، ونُساعد بعضنا البعض، ونستقبل الوافدين بيننا كلّ يوم ونعيش معًا في سلام.

- من يستبعد من؟ ولماذا؟ وبأيّ حق؟

هدّل كتفيه وأجاب بيأس:

- تلك الأسئلة أرهقتنا كثيرًا، ولم نجد لها إجابة، عش في سلام يا صديقي.

لاحت لنا المنازل الفاخرة الّتي بُنيت بطراز رومانيّ مذهل، جدرانها عامرة بالنّقوش والفُسيْفساء، أخبرنا أحد المشرفين أنّهم قد خصصوا لعائلتنا بيتًا من تلك البيوت، كان هناك الكثير من التّماثيل. الباحات الدّاخلية تبدو واضحة للناظرين حيث يحفّ كلّ باحة رواق معمّد تحيط به الغرف المختلفة، انتشرت هنا وهناك أحواض ونوافير مطعّمة بالأحجار الملوّنة، للمرّة الأولى تناهى إلى مسامعنا صوت خرير الماء، صاحت «فرح» وركضت مع «سُليمان» تجاه فوّارة ينفر الماء منها وكأنّه سيفٌ مجرّد، وشربا من مائها الرّقراق.

أرشدونا إلى الحمّامات، وكانت تقع جهة الجنوب، مباني شامخة، بها رتاج من الشّرق إلى الغرب، له اثنا عشر رواقًا الدّخول إليها من بهو يفضي إلى قاعة واسعة كان بها بعض أهل المدينة، الزّخارف البديعة تُزيّن كلّ ركن وكلّ عامود هناك، على الجانبين كان هناك الكثير من الأحواض الصغيرة والكبيرة، وصهاريج من المَرمَر، ونوافير فوّارة، وغرف مفصولة بأعمدة ورديّة مرمريّة، وأخيرًا وصلنا للمَسبح، أشعر أنني رأيت هذا المكان من قبل! نعم..نعم...إنّها..إنّها! ارتفع صوتي دون قصد منّي وأنا أُردد اسمها وأنا أنظر إلى أبي:

- «كُويكُول»! نحن في مدينة «كُويكُول» يا أبي!

أقبل الرّجال والشباب والغلمان من أرجاء الحمّامات، هؤلاء من الغرفة الرئيسية، والبعض من الغرفة السّاخنة والأبخرة تتصاعد من أجسادهم وملابسهم، وبعضهم خرج من المسبح متوجهًا نحوي والماء يقطر من جسده، وكان هناك شيخ كبير يتوضّأ فأقبل في حماس وانزلقت قدمه وكاد يسقط لولا أنّ الشّباب أسندوه وأقبلوا معه، سألني أحدهم:

- ماذا تعني بـ«كُوِيكُول»؟ وماذا تعرف عنها؟

- اسم المدينة الّتي نحن فيها الآن، ألا تعرفون اسمها؟

- لا.

- كيف هذا؟

- أحضرنا «بيادق الظّلام» من بلادنا إلى هنا، ومنذ وصولنا ونحن نعيش كما ترى، لا نعرف ماذا يحدث، ولا أين نحن، ولا يُسمح لنا بالخروج، بدأنا نتعارف ونتحدّث إلى بعضنا البعض وأقدمنا وصولاً هذا الشّيخ و زوجته.

أشاروا للشيخ الّذي كان يتوضّأ، والّذي قال بأسى:

- أحضرنا «بيادق الظّلام» من قريتنا منذ عام مضى، عشنا لفترة وحدنا هنا في تلك المدينة الواسعة، ومن آن لآخر يأتون بفرد جديد، وكما ترى الآن ازداد عددنا.

سألني شاب وضّاء الوجه وهو يهزّ كتفي:

- ماذا تعرف عن «كُوِيكُول»؟

- مدينة رومانيّة قديمة، قرأت عنها في كتاب، كما أنني شاهدت فيلمًا وثائقيًا على الـ...

توقفتُ عن الكلام بعد أن لكزني أبي، فهم لا يعرفون عن الإنترنت والتلفاز، سألني أحدهم مستنكرًا:

- ولكن أين هؤلاء الرّومان؟

- أقصد شيّدها الرّومان، ولأننا في أرض «الكَنَهْوَر» فهي الآن مهجورة.

صاحوا جميعًا في آن واحد:

- «أرض الكَنَهْوَر»!

هززت كتفيّ قائلًا:

- نعم! نحن في أرض «الكَنَهْوَر».

تخبّطوا في حيرة، وظهرت معالم القلق والخوف على وجوههم، قال شابٌ منهم:

- سمعنا أنّ أرض «الكَنَهْوَر» مقبرة، لا أثر للحياة فيها، ومن يدخلها لا يعود.

وقال آخر:

- هل نحن أموات الآن!

علت همهماتهم، بدأ جدّي «كمال» يسألهم محوّلًا دفّة الحديث ليجمع أكبر قدرٍ من المعلومات، أجابه الشيّخ قائلًا:

- يطلقون علينا لقب «المستبعدين»، سألناهم عن السبب لكنّهم لم يجيبونا، كانوا يمتطون خيولًا مجنّحة، بيضاء، وسوداء، وصهباء، يحملوننا عليها إلى هنا، نحن نعيش في سجن مرفّه، يُطعموننا ويسقوننا، حتّى أنهم يعالجوننا ويهتمّون لسلامتنا، لكننا لا نستطيع الخروج.

صاح أحدهم:

- يقولون إنّ هناك مجموعة تسللت من المدينة واستطاعوا الهروب، بينهم عائلة حديثة الوصول.

تعالت همهماتهم، بعضهم يُنكر ولا يصدّق، وبعضهم يتساءل هل هربوا بالفعل أم لا، أدركتُ أنّ الجنود الّذين ألقوا القبض علينا كانوا يظنون أننا الهاربون، تقاطعت نظراتي مع نظرات أبي، يبدو أنّه أيضًا فَطِن لهذا. وقفنا بينهم حائرين، سألهم «أبادول»:

- هل التقيتم بالمحققين؟

- أتانا أحدهم منذ شهر، كان ملثّمًا، إجاباته كانت قصيرة وصارمة ومقتضبة، زيارته كانت بلا فائدة، فلم تشبع كلماته فضولنا.

- هل يعذّبونكم أو يؤذونكم؟

- لا.

اقترب شابٌ منهم وقال بصوت أسيف:

- وهل هناك عذابٌ أكبر من انتزاعك من حضن أُمّك، أو من قلب دارك، أو في ليلة زفافك إلى عروسك الّتي تذوب عشقًا فيها!

ران عليهم صمت حزين، سألتُ ذاك الشّاب عن اسمه فقال:

- «سِيفاو»، وأنت؟

- «خالد».

- ما اسم قبيلتك؟

ابتسمت والتفتُّ تجاه «أبادول» وقُلت بثقة:

- قبيلة «أبادول»، نحن من قبيلة «أبادول»، وهذا هو كبيرنا.

التفّ الرّجال حول «أبادول»، وبدأ كلّ منهم يخبره عن اسم قبيلته وعائلته، وابتعد «سِيفاو»، سرت خلفه وناديته فالتفتَ وعيناه الواسعتان يقطر منهما الحزن، سألته بفضول:

- أنت من الأمازيغ، أليس كذلك؟

- بلى.

- عرفت هذا من اسمك، أليس معناه المضيء والمُنير؟

- بلى.

- كيف لم تسمع عن «كُوِيكُول» وأنت من الأمازيغ؟

- سمعت عنها لكنني لم أزرها قطّ، ولم أعرف أننا بها إلّا منك الآن، حتى أنني لم أكن أحسن نطق اسمها جيّدًا.

استدار وهمّ بالانصراف فسألته:

- أين ستذهب؟

- إلى السّوق، فنحن نعمل هنا ونعيل أنفسنا، ونعرض بضائعنا هناك، فهناك رتاج له ستة أعمدة، يتوافد عليه سكّان المدينة طوال النّهار.

- وما هي تلك البضائع الّتي تعرضونها هناك؟

- بعضنا يصنع الأواني، وبعضنا يخيط الثّياب، وبعضنا يعمل بالعطارة وصناعة الدّواء، ويوجد مطحنة للحبوب، أغلبنا يعمل بالتّجارة، والمسئولون هنا يعطوننا رأس المال لنبدأ تجارتنا.

- وماذا عن باقي الأعمال هنا؟

- هناك من يُشاركون في رعاية المرضى تحت إشراف طبيب حاذق له مُساعدون ماهرون، ولديهم مشفى كبير في الجهة الشّرقيّة من المدينة.

انطلق «سِيفاو» يصف لي تقسيم السّوق، وكُنت أعرفه فقد رأيت كلّ ركن هنا في فيلم وثائقيّ عن مدينة «كُويكُول» الأثريّة على حاسوبي، شردت منه لوهلة وتذكّرت بيتنا حيث يقبع السيّد «راغب» الآن وحيدًا، تُرى لو ذهبت الآن وأتيت لهم بحاسوبي النقّال لأعرض عليهم هذا الفيلم الوثائقيّ المسجّل على ذاكرته عن تلك المدينة، كيف ستكون ردود أفعالهم؟ سرت معه نحو متجره، كان هناك الكثير من الأواني الفخّارية، يبدو أنّه يصنعها وهناك من يرسم عليها، دلفت فتاة وألقت عليه السّلام فحيّاها وهو شارد، بينما كانت تلتفت إليه بكيانها كلّه، فضحتها نظراتها تجاهه، ويداها المرتعشتان وهي تريه ما نقشته على الإناء للتوّ، يبدو أنّها تهتمّ به. سألته بعد انصرافها:

- من هذه؟

لمع في عينيه بريقٌ خافت وهو ينطق اسمها:

- «ماسيليا».

- لا شكّ أن اسمها أمازيغي أيضًا، فهي أيضًا ترتدي الزيّ الأمازيغيّ مثلك! أنتما الوحيدان اللذان يرتديان هذا الزّي هنا.

- «ماسيليا» من قبيلة «كتامة» مثلي، عندما اختطفني «بيادق الظّلام» من قرية «شيليا» تعلّقت بساقيّ وهم يحملونني فوق الجواد المجنّح، فاضطر البيادق لحملها معي إلى هنا.

- ولماذا فعلتَ هذا؟

استدار نحوي ومنحني نظرة تشي بتضرره من سؤالي، فتوقفت عن الكلام، كُنت أعرف الإجابة بالتّأكيد، فعلت هذا لأنّها تُحبّه، وكان لديّ فضول لكي أسمع منه المزيد، لكن يبدِو أنّ الوقت غير مُناسب. انصرفت وتركته في متجره، وعدت أبحث عن أبي، لا بدّ أن نضع خطّة لنخرج من هنا، فقد اشتقت إلى أخي «حمزة».



- ٥ -

«كُوِيكُول»

«طارق»

وأخيرًا عثرت على مدينة «كُوِيكُول»، وها هي أوّل جملة تُنقش على صفحات كتابي المُعنون باسمها، أخرجت «النّاظور» العجيب الّذي أعطاه جدّي لأبي، وأعطاه أبي لي، ظننته بدائيًا ولكنني أخطأت، فأيّ شيء ينتمي لـ«مملكة البلاغة» لا بدّ له من عجائبيّة خاصّة به، وكان هذا «النّاظور» لا يقرّب البعيد فقط، بل ويسمح لي برؤية بعض الأطياف السّابحة في الهواء من مخلوقات المملكة، ولقد رأيت بالفعل أطيافًا تدور في السّماء فوق المدينة باستمرار، بدأت أراقب سكّان «كُوِيكُول»، يبدو تقسيم المدينة الهندسيّ كما درسته بالجّامعة تمامًا، وهناك الكثير من الأعمدة والبنايات أراها بعيني كاملة البناء، وكنت قد رأيت بقاياها في الجزائر.

رأيت الساحات والملتقيات «فوريم»، ومعبد «فونيس»، و«المسرح الرّوماني» الخاص بالمدينة بمدرّجاته السّاحرة، والمُحاط بكوّات مستديرة ومربعة للحصول على صدى جيّد للأصوات، وها هو «الحيّ المسيحي» بكنيستيه «بازيليك»، و«المعامديّة»، و«ضريح باخوس» المستوحاة نقوشه

الجانب المُخصص لمستودعات الحبوب والغذاء مناسبٌ جدًا، فالحارسان هناك يتناوبان مع حارسين آخرين كلّ ساعة تقريبًا، نفس الأربعة بهيئاتهم، تمكّنت من التحقق ب«النّاظور»، سأنتظر لحظة توجه الثُّنائي المكوّن من هذا الحارس البدين، ورفيقه الأحدب، فهذان الحارسان لا يصبران حتّى يأتيهما زميلاهما الآخران، ويسيران إليهما بأنفسهما ليلتقيا بهما أمام «ديوان الرّئاسة».

سيكون وقت الغروب هو الأنسب، سأقفز من فوق السّور وأختفي بين أشولة الحبوب حتى أتمكّن من التسلل والبحث عن «حمزة» تحت ستار الليل، حسنًا، سأصبر..وأنتظر.



«خالد»

عُدت حيث تركت أبي وجدّي، ووجدتّهما وباقي العائلة في طريقهم إلى بيت من بيوت المدينة، فقد سلّمنا المشرفون دارًا لنسكنها كعائلة، وكنّا أوّل عائلة بأكملها تدخل المدينة. أخبرت أبي عن «سِيفاو» وكيف أنّه لم يكن وحده، وأنّ هُناك فتاة أتت معه، وجدتّه شاردًا فسألته:

- ما بك يا أبي؟

- لا بدّ أن نستعيد أسلحتنا، وأدواتنا.

- لكنّها لا تعمل يا أبي..فقدت قيمتها!

- ربّما لا تعمل على أرض «الكَنَهْوَر»، لكنّها حتمًا ستعمل إن خرجنا من هنا وتخطينا هذا الجدار الفاصل الّذي وصفه «أبادول».

- وربّما لن تعمل أبدًا لأننا هنا بصفة أخرى، فنحن لسنا محاربين، ولا زائرين، فأخي أسير و...ونحن... أسرى! نحن أسرى يا ولدي، وإن أحسنوا ضيافتنا.. سنظلّ أسرى.

- حسنًا يا أبي، ماذا سنفعل الآن؟

- ستفعل أنت.

- أنا! وماذا سأفعل؟

- «المستبعدون» يرتبّون للقاء معك، يودّون منك أن تُخبرهم بكلّ ما تعرفه عن مدينة «كُوِيكُول»، نحن في سجن كبير يا بنيّ، ولا أحد هنا يعرف حقيقة «بيادق الظّلام»، فهم يطوفون بالبلاد ويقومون باختطاف الشباب، والرّجال، والغلمان، وحتّى الأطفال، ويحضرونهم إلى هنا، يحتجزونهم ويحرمونهم من الخروج، لكنّهم يهتمّون بهم وبسلامتهم، وهذا غريب!

- وكأنّهم عصافير للزّينة في قفص جميل، أو سرب صغير من الأسماك في حوض زُجاجيّ.

- نعم يا «خالد»، يبدو الأمر كذلك، لكنني أخشى أنّهم يجمعونهم لسبب آخر.

- مثل؟

- قرابين مثلا! لأيّ طائفة أخرى هنا، أو لتطبيق تجربة مريبة عليهم! فمملكة البلاغة مليئة بالمفاجآت، والشرّ هنا يتلوّن، وستظلّ معاركه تدور هنا على أرض مملكة البلاغة للأبد.

- على أيّ حال الوضع غير مريح بالفعل، ليس من حقّ أحدهم أن يَسلب آخر حريّته لأيّ سبب!

- لهذا سنقوم بدورنا كمحاربين وإن كُنّا أسرى!، فالحياة معارك، وكُلّنا مُحاربون، وسنُساعدهم.

مسح أبي على صدري ثُمّ قال بصوت دافئ:

- والآن، تعال لتخبر عائلتك أوّلًا بكلّ ما تعرفه عن مدينة «كُوِيكُول» أيّها المُثقّف.

دلفنا لبيتنا الجديد، وجلست أُحدّثهم عن «كُوِيكُول»، وقلبي يرجف خوفًا على أخي «حمزة»، ترى أين هو الآن؟

كانت«رَيْهُقانة» قد حملت «حمزة» إلى أرض عفراء وموحشة، وقفت قبالته وكانت في حالة مزرية، فقد هرعت إليه فور أن حملها «أسْحَم» بعيدًا عن مقبرة «طِرْمساء» ونقلها إلى مملكته الخاصّة، وأعطاها الأمان، وتركها ليتدبّر أمره ويشرع في إرسال جواسيسه إلى «طِرمساء»، لينقلوا له ما يدور بين عشيرة «المجاهيم»، فلا شكّ أنّهم سيثورون عليه لمخالفة أمرهم وحمايته لها، فانتهزت تلك الفرصة وتسللت إلى أرض «الكَنَهْوَر» باحثة عن «حمزة»، وهاهو الآن بين يديها، قالت وقد بدا في صوتها الألم:

- عُدتُ إليك كما وَعَدْتُك يا «حمزة».

تمعّن في ملامحها، ورآها متعبة، اختفت نضارتها وكأنّها كبرت أعوامًا فوق عمرها، سألها غاضبًا:

- لماذا أتيتِ بي إلى هنا؟

لم تجبه، بل قالت في أسى:

- تعبت، وأنت السبب.

- وما لي أنا بما يحدث لكِ؟

- في كلّ مرّة أقتحم فيها جدار«الكَنَهْوَر» أُصعق مرّات من أجلك، أتفتت، أحترق، يتلاشى جزء من كياني، أنت لا تعي قيمة ما أُضحّي به!

- لا تُضحّي إذاً!

- كاد «القنّاصون» يقتلونني بسببك!

- لماذا؟

- لأنني أُحبّك!

أشاح بوجهه عنها قائلًا:

- كُفّي عن ترديد هذا الهُراء.

تجاهلت كلماته وقالت بتصميم:

- ستُحبّني يا «حمزة»...ستُحبّني، وسنبتكر طريقة للتواصل بيننا، ليست قصّتنا الأولى، لقد حدث هذا من قبل، لا بدّ أنّ هناك حلًّا، سأبحث في كلّ كتب السّحر، وسأشدّ الرّحال إلى أعظم السّحرة على أرض مملكة البلاغة..سأطرق باب المردة والجبابرة من الجنّ.

قاطعها ساخرًا:

- وماذا بعد؟ هل سنتزوّج؟ وكيف سنعيش معًا؟ وهل ستنجبين لي طفلًا من الجنّ يطير في الهواء؟ كيف سألمسك، كيف سأشعر بك؟ أجننتِ يا «رَيْهُقانة»؟

- نعم أنا مجنونة بك، يكفي أن تكون لي، أتخللك بأثيري، أطوف حولك، أعيش في كيانك، لا أدري لماذا لم أتمكن من تخلل جسدك كما كنت أفعل، كيف تمنعني الآن؟

- لستُ لُعبة، وما تصفينه ليس حبًا بل هو مرض وعشق للسيطرة والتّملّك، الحبّ أن أكون حرًا وأقبل بإرادتي على من أُحبّه، أمشي إليه طواعية وليس بالإجبار.

- صدقت، فأنا حُرّة وأتيت إليك طواعية لأنني أُحبّك! أرأيت؟

تمعّضت ملامحه وأدار وجهه يائسًا من جدوى الحوار معها، وقال لها:

- لا بدّ أن أعود لعالمي وعائلتي.

- لا!

- أعيديني إلى أرض «الكَنَهْوَر».

احتقنت عيناها وصدرت منها ضحكة تُشبه عبث الهواء بعلبة صفيح فارغة ثُمّ قالت:

- وحتّى إن حملتُك إلى أيّ بقعة في المملكة، لن يراك أو يسمعك أحد من الإنس والجنّ، فقد وَسَمْتُك.

وضع «حمزة» يده على الوشم بين حاجبيه وقال وهو يتحسسه:

- ماذا تعنين؟

عادت لمملكة «أسْحَم»، وتركت «حمزة» يصرخ ويتأجج من شدّة الغضب، أخذ يركض باحثًا عن أي مخلوق هنا ليختبر الأمر بنفسه، هل سيسمعه أحدٌ؟ وهل سيراه النّاس هنا؟ ظلّ يركض، ويركض، ويركض، حتّى سقط على الأرض، وفقد وعيه.



«طارق»

بسط الليل رداءه الموشّى بالنّجوم، وأطلّ القمر وكأنّه يُراقبني من خلف قمم الجبال، حان وقت تبديل الحارسين مضى الحارسان اللذان كنت أتابعهما تجاه «ديوان الرّئاسة» ليلتقيا بزميليهما الموكّلين باستلام فترة الحراسة القادمة، فهرولت تجاه السّور وتسلّقته مُسرعًا، لملمت حبالي واختبأت خلف أشولة القمح المكدّسة في مستودع الحُبوب، وانتظرت طويلًا حتّى سكنت الأجواء. على أضواء الشّعل المترجرجة والمنتشرة هنا وهناك، رأيت أطيافًا تلوح من بعيد، يبدو أنّ هناك مجموعة من الشّباب يجتمعون حول أحدهم، في منأى عن الآخرين، وكأنّهم يختبئون منهم خلف جدار حجريّ.

تركت حقيبتي في مكان آمن، وتسللت مقتربًا منهم، رأيتُ «حمزة» وسطهم، كان أفضل حالًا مما كان معي، وكان يرسم لهم على الأرض مخططًا لمدينة «كُويكُول»، شارحًا لهم معنى اسم كلّ جزءٍ منها، وكانوا يُنصتون إليه في سكون وكأنّ على رؤوسهم الطير، انتهى من الشّرح، وعلا صوت قرع الطّبول من بعيد.

قال أحدهم إنّه وقت توزيع وجبة العشاء، فانصرفوا تباعًا، وبقي «حمزة» يمحو ما خطّه على الأرض، انتظرت حتّى ابتعدوا وتبعته وهو

يسير، ثُمّ تسللت من خلفه، وسحبته من ذراعه بقوّة لنختبئ معًا خلف أشولة القمح ونتحدّث، وضعت يدي على فمه حتّى لا يُحدث صوتًا يجلب الأنظار إلينا، ففاجأني بدوران سريع ووجه إليّ لكمة كادت تُحطّم فكّي، وأسقطني أرضًا وجثم على صدري، قبضت على يديه بقوّة وحدّقت في وجهه قائلًا:

- ما بك يا «حمزة»؟ أنا «طارق»!

يبدو أنّنا أحدثنا جلبة جعلت حرّاس مخازن الحبوب يتحرّكون من أماكنهم، فأسرعت بالاختباء، وهرولت تجاه المكان الّذي أخفيت فيه حقيبتي فتبعني وهمس قائلًا:

- هل تعرف أخي «حمزة»؟

أصابني الذّهول، يقول أخي! معقول! هل هذا «خالد»، توأم «حمزة»، قُلت متعجبًا:

- «خالد»!

- نعم أنا «خالد».

- يا إلهي! أنت نسخة من أخيك! ولكن كيف أتيت إلى هنا؟

ابتعد الحُرّاس فوقفنا متواجهين وكلّ منّا ينتظر إجابة من الآخر، أعاد سؤاله في تلهّف:

- متى التقيتَ بأخي؟

- بالأمس، واليوم صباحًا كان معي.

- اليوم! هل رأيته اليوم بعينيك؟

- نعم، وكان يتحدّث عنك كثيرًا، أنتما متطابقان للغاية، حتّى نبرة صوتكما واحدة!

- أين هو؟ أين..أين؟

- عادت «رَيْهُقانة» واختطفته من أمام عيني، كُنت في طريقي لعبور جبال «الخُرافة» لأبلغ «حرّاس المكتبة» بما حدث له ليُساعدوه، فالصّقور لا تحلّق في سماء أرض «الكَنَهَوَر» لتحمل لهم الأخبار، و«الحورائيّات» لا يسمعن ما يدور هنا.

اتسعت عيناه وهو يقول:

- أنت تعرف عن «رَيْهُقانة»، وحرّاس «المكتبة العُظمى»، و«الحورائيّات»، ورأيت أخي بعينيك، وسمعت صوته بأذنيك..إذن أنت مُحارب، أليس كذلك؟!

- بلى، أنا مُحارب.

- وصلني أنّ «رَيْهُقانة» قامت بوَسم «حمزة»، وأصبح أخي أسيرًا لها، وهو الآن رجل خفيّ، لا يُرى ولا يُسمع من قِبل الجنّ والإنس هنا، وفقط من سيراه هم المحاربون الجدد الموكّلون بمهام جديدة على أرض المملكة.

- نعم، رأيت الوشم على جبينه، كان يؤلمه، ولكن لماذا فعلتْ «رَيْهُقانة» هذا به؟

- لأنّها تعشقه، تُريد الاستحواذ عليه، ولأنّه زار المملكة من قبل فلن تتمكّن من تلبّس جسده، وليس أمامها إلّا أسره بتلك الطريقة، وحبسه حتّى ييأس ويستسلم لها.

- مجنونة! مجرمة!

- ولكن؛ لماذا تختبئ هكذا طالما أنّك مُحارب؟

- من حرّاس المدينة، وخاصّة هؤلاء الّذين يمتطون الخيول المجنّحة ويتّشحون بالسّواد، لا أرغب في الوقوع بأسرهم.

- يقولون إنّهم «بيادق الظّلام»، إنّهم يمتطون خيولًا عظيمة.

- أعرف تلك الخيول، لقد عثرت على واحد منها، وحملني من فوق جبال «الخُرافة» واخترق بي حاجز «الكَنَهْوَر»، لكنّه اختفى وتركني بعد عبورنا مباشرة، إنّها خيول رائعة، سبحان الّذي خلقها!

- وبعد أن تركك الجواد؟

- سرت على أقدامي، وتنقلت من مكان لآخر، وتسلّقت عدّة جبال هنا حتّى التقيت بأخيك، ثُمّ رأيتك من فوق الجبل عندما كُنت أراقب المدينة، وظننتك «حمزة»، وأردت أن أساعدك في الهروب من هنا، فلقد رأيت هؤلاء البيادق وهم يمتطون خيولًا مُجنّحة يُحلّقون بها فوق المدينة، ورأيتهم يُسلّمون غلامًا للحرّاس اليوم، هناك شيء مريب يدور هنا!

- -حسنًا، فلنُسرع الآن، هذا بيتنا، وعائلتي بالدّاخل، يجب ألّا يراك المشرفون، أسرع يا «طارق».

- عائلتك!!

- نسيت أن أُخبرك، لقد نقلت «رَيْهُقانة» بيت جدّي بأكمله وبمن فيه إلى أرض «الكَنَهْوَر»، نحن جميعًا هنا، أرادت تلك الخبيثة القضاء علينا وإخفاءنا للأبد، ولكن جاءت الرّياح بما لا تشتهي السّفن،

وبيت جدّي موجود الآن خارج «كُوِيكُول» في بقعة ما على أرض «الكَنَهَوَر».

- لا أفهمك!

- سأشرح لك لاحقًا، ولكن الآن اتبعني، فلقد منحنا المشرفون بيتًا خاصًّا بنا من بيوت مدينة «كُوِيكُول».

سبقني «خالد» ليتأكّد من خلوّ الطريق من المارّة، ولحسن الحظّ كان أهل المدينة يجلبون الطعام من قاعة مخصصة لذلك بعيدة عن بيت عائلته، أشار إليّ فأحضرت حقيبتي وأسرعت نحوه، ودلفت البيت لألتقي بعائلة «أبادول». أغلق «خالد» الباب وقدّمني إليهم قائلًا:

- هذا «طارق»، وهو مُحارب جديد، وقد التقى بـ«حمزة»، وكان معه اليوم.

شهقت امرأة أربعينية بانفعال شديد ووضعت يدها على فمها وأسرعت نحوي فتعثّرت وسقطت على الأرض، كانت عيناها محتقنتين من شدّة البكاء علمتُ بعدها أنّها السيّدة «مرام» والدة «خالد».

وكان والد «خالد» يمسك قدحًا من الفخّار تتصاعد منه الأبخرة، انسكب المشروب من يده عندما انتفض ونهض فجأة فور أن رآني، لكنّه لم يأبه لسقوط المشروب السّاخن على ساقيه، وهرع إليّ وقبض على كتفيّ وعيناه تستغيثان وسألني بتلهّف:

- أين «حمزة» الآن؟

تعلّقت عيناي بـ«خالد» وهو يُساعد أُمّه على النّهوض وقُلت:

- حملته «رَيْهُقانة» واختفيا من أمامي في غمضة عين، ولم يظهرا مرّة أخرى.

- هل لاحظت شيئًا غريبًا على وجهه؟

أدركتُ ما يرمي إليه، وتبادلت النظرات مع «خالد» قبل أن أُجيبه:

- تقصد الوشم المرسوم على جبهته؟

همهم الجميع بألم، وكأنّهم أرادوني أن أخبرهم أنني لم أر هذا الوشم، قُلت مؤكدًا:

- نعم هُناك وشم على جبهته يمتدّ إلى ما بين حاجبيه، وَسَمته به «رَيْهُقانة» قبل أن يُلقي «القنّاصون» القبض عليها.

اقترب عجوز طويل القامة له لحية بيضاء كثيفة وقع في نفسي أنّه الجدّ «أبادول» الّذي أخبرني عنه «حمزة»، وقد كان هو بالفعل، كان له رونق خاصّ وحضور مهيب يُجبرك على توقيره، وقف أمامي وقال مُتعجبًا:

- كيف عادت مرّة أخرى بعد أن ألقى «القنّاصون» القبض عليها؟

- لا أدري.

التفتَ «أبادول» مستبشرًا وموجهًا حديثه للسيّدة «مرام» وقال لها:

-«القنّاصون» رتبة من عتاولة «المجاهيم»، أحبّاؤنا يا «مرام»، فبيني وبينهم علاقة وطيدة، وطالما ألقوا القبض عليها فقد رأوا «حمزة» معها، والآن يعلمون بوجوده هنا، ولا شكّ أنّهم سيُساعدونه.

- ولكن...

- ولكن ماذا يا «طارق»؟

- لقد وَسمته قبل وصولهم وأبعدته عنها وقيّدته إلى جذع شجرة، ولم يلتفتوا إليه، رأيت كلّ هذا من فوق الجبل بـ«النّاظور»، لا أظنّ أنّهم رأوه.

عادت سحابات القلق والخوف تطوف بوجوههم، أجلسوني بينهم ورحّبوا بي وقدّموا لي الطّعام، سألني السيّد «كمال»، وكان صوته مريحًا مثل انسياب ماء النّهر:

- ما عنوان كتابك يا بنيّ؟

- «كويكول».

- لهذا أنت هنا! وما رمزك إذن؟

- «سمُّوس».

رفعوا جميعًا أعينهم تجاهي، اقتربت منّي فتاة صغيرة جميلة الوجه، وسألتني بفضول:

- ماذا تعني بـ «سمُّوس»؟

- خمسة باللغة الأمازيغية، فأنا المحارب الخامس من عائلتي.

رفع السّيد «كمال» حاجبيه وقال:

- أنت من بلاد المغرب العربيّ.

- نعم، أنا من الجزائر، اسمي «طارق» وأبي «زياد»، أطلق أبي عليّ هذا الاسم تيمّنا بـ«طارق بن زياد».

هزّ «أبادول» رأسه قائلًا:

- الفارس الأمازيغيّ العظيم، رضي الله عنه وأرضاه.

- نعم.

كُنت أشعر أنّ السيّد «أبادول» يُشبه جدّي بطريقة ما، النظرات العميقة، واللحية البيضاء، قُلت له وعيناي معلّقتان بوجهه:

- سيّد «أبادول».. أخبرني «حمزة» عنك الكثير.

- أسأل الله أن يُنجيه.

- نحن ننادي جدّي «باديس».

- وما معناها؟

- كلمة أمازيغية تعني «أبو الشجعان»، «با» تعني أب، و«ديس» الشجعان.

ربّت على كتفي ومنحنى ابتسامة دافئة لم تمحُ القلق من عينيه، كانت آثار مرضه الّذي أخبرني عنه «حمزة» لا تزال واضحة على محيّاه، وكان أفراد الأُسرة يبدون اهتمامًا جليًّا به.

جلست في جوّ أسريّ دافئ كُنت أفتقده منذ خروجي من بيتي، دارت بيننا حوارات طويلة، أخبروني بأسمائهم، وأخبرتهم عن عائلتي، أحببتُ «فرح» و«سُليمان»، شعرت بالرّاحة عندما تحدّثت إليّ السيّدة «دولت» فقد تذكّرتُ جدّتي، وتسرّب إلى نفسي شعور بالهدوء عندما جلست بجوار السيّد «كمال»، كان من ذاك النّوع من الرّجال الّذي يمنحك السّكينة، بهيئته، ونظراته، ونبرة صوته، أشفقت على السيّدة «مرام» كان القلق على ابنها ينهش قلبها نهشًا.

أمّا السيّد «أنس» فيبدو أنّه يشبه جدّه الأكبر «أبادول»، فكلاهما كثير الصمت، وكثير التّفكير والتحليل، ولهما نظرات عميقة تشي بالكثير.

هناك فتاتان، إحداهما من الأسرة، والأخرى لا. ما فهمته أنّ «رَيْهُقانة» كانت تستغلّ تلك الفتاة الحزينة والمُنكسرة محاولة الوصول إلى «حمزة»، لكنّها فشلت. أمّا الأخرى، فبدت أكثر قوّة منها، كانت عيناها تبرقان وهي تراقب الجميع في صمت.

كانت القطّة السّوداء تطوف حولنا طوال الوقت، أخبرني «خالد» عن هذا النّوع من القطط، وأخبرني أيضًا عن «شَفق» الّتي لم تظهر حتّى الآن، والّتي كانت سببًا في إفشال مخطط «رَيْهُقانة» لقتلهم جميعًا.

جلب «سُليمان» ثمرة تُفّاح وقدّمها إليّ وجلس بجواري، فقلت له:

- «تَنْميرتْ»[1].

حدّق في عينيّ وسألني بفضول:

- وما معناها؟

- «شكرًا».

أخذ يُكررها ليحفظها، انفرد السيّد «أنس» بابنه «خالد» ودار بينهما حوار قصير، عاد بعده إلينا وقال:

- الحرّاس يظنون أننا كنّا هنا وهربنا بطريقة ما، ولهذا ألقوا القبض علينا وساقونا إلى هنا. ألقى بنا الحرّاس في السّجن تأديبا لنا كما يظنون، لكنّ المشرفين أخرجونا في الصّباح باعتبارنا من الوافدين، ولهذا مرّ الأمر بسلام، فالعدد كبير، وكلّ منهم له اختصاصه، ولا أظنّهم يعرفون الوجوه والأسماء جيّدًا.

قال السيّد «كمال»:

---

(١) تَنْمِيرتْ كلمة أمازيغية تعني شكرًا.

- لا بدّ من تقديم «طارق» بطريقة ما، ليسهل عليه التّجوال في المدينة.

قالت السيّدة «مرام»:

- الخوف الآن من عودة الأشخاص الّذين تسللوا بالفعل، فعودتهم ستكشف أمرنا للحرّاس.

قالت «سارة»:

- «المحققون» الّذين لا نعرفهم، و«بيادق الظّلام» الّذين يمتطون خيولًا مُجنّحة ويخطفون النّاس وينقلونهم إلى هنا، و«حرّاس الأسوار» الّذين يقفون بالخارج وهم من ألقوا القبض علينا، وأهل المدينة الّذين نُقلوا إلى هنا رغمًا عنهم ويطلق عليهم لقب «المستبعدين»، ومنهم مشرفون وخدم، نحن نتعامل مع كلّ هؤلاء!

أضفت على كلامها قائلًا:

- والأطياف الّتي تدور في السّماء فوق المدينة، فهناك الكثير منها.
- لا بدّ أنّها عشيرة «شَفق»، ولكن كيف رأيتهم؟
- معي «ناظور» ورثه أبي عن جدّي، وأعطاه لي.

أدركوا جميعًا أنّه من ميزاتي كمحارب، قالت السيّدة «دولت»:

- لا بدّ أن ننتبه لأنفسنا، فهناك امرأة ثرثارة سألتني اليوم الكثير من الأسئلة، فقد ينكشف أمرُنا.

قالت السيّدة «مرام»:

- وددت لو ضممت الصغار الّذين كانوا معها إلينا، فهي قاسية عليهم، كما أنّ هذا الرّضيع الّذي كانت تحمله مزّق فؤادي وهو يبكي..كيف يقومون بخطف رضيع من أُمّه!

رفع «أبادول» رأسه وسألني:

- هل ظهرت أيّ جملة في كتابك يا «طارق»؟

- نعم.

توجهوا جميعًا بنظراتهم تجاهي، فأخرجت كتاب «كُويكُول»، وقرأت عليهم أوّل جملة نُقشت فيه بصوت مسموع. سألني السّيد «أنس» عن «النّاظور»، فأخرجته من حقيبتي فبدأ يتفحّصه، واقترب به من النّافذة ووضعه على عينه وحرّك رأسه به يمينًا ويسارًا، وانتفض فجأة وكأنّ عقربًا قد لدغه، كانت عيوننا جميعًا معلّقة بوجهه وهو يضع «النّاظور» على عينه تارة، ثُمّ يُبعده وينظر تارة أخرى، فسأله «خالد»:

- ما بك يا أبي؟

أستدار قائلًا:

- هناك جيش من المخلوقات الغريبة يحيط بالبيت!

تناولت النّاظور منه فرأيتهم، لكنّهم اختفوا في لمح البصر، أخذنا نتناقل «النّاظور» بيننا، لم يعودوا، فأغلقنا النّوافذ، وجلسنا نترقب.

بعد قليل طُرق الباب ففزعنا جميعًا، دلف رجلان ملثّمان بثيابهما السّوداء، فأدركنا أنّهما من الحرّاس، كان أحدهما يحمل كتابًا، قال بعد أن ألقى علينا التّحيّة:

- سأنادي على أسمائكم للتأكد من حضوركم حرصًا على سلامتكم.

ارتبكنا ووقفنا نتبادل النّظرات، أسماؤنا ليست مدّونة في دفاترهم، سينكشف أمرنا الآن، اقترب أفراد الأسرة من بعضهم البعض، بدأت أسير ببطء لأقترب من الباب لعلّني أتمكّن من الهروب والعودة للجبال في الوقت المناسب، بدأ الرّجل بالنداء على أوّل الأسماء، قال بصوته الجهوريّ:

- «توفيق»؟

هزّ «أبادول» رأسه فأدركت أنّ هذا اسمه الحقيقيّ. سرت الطّمأنينة في أوصالهم بعد أن توالت أسماؤهم على لسانه، «كمال»، «أنس»، «دولت»، «مرام»، «سارة»، «فرح»، «سليمان»، «نور»، «خالد».

ثُمّ توقّف والتفت نحوي وكُنت أمام الباب مُباشرة، فقال وهو يطالعني بعينيه الغائرتين:

- هل أنت «حمزة»؟ اسمك مكتوب لكنّ أحدهم قام بشطبه! وأُعيد كتابته مرّة أخرى، لا أدري لماذا.

قال السيّد «أنس» وهو يقبل علينا:

- خطأ من الكاتب في الهجاء ربّما.

- يبدو هذا، ولكن ما لقب عائلتكم؟

قال «كمال»:

- عائلة «أبادول».

في وادي «الهماليل»، حيث كانت الرّياح تزفر كالنّمور الرّقطاء، وتزمجر كالوحوش الضّارية، أفاق «حمزة» من الإغماء على صوت الذّئاب وهي تحوم حوله، فتح عينيه فرأى عيونها تضيء في الظّلام، اعتدل محاولاً الابتعاد عنها ووقف متأهّبًا لقتالها كما تعلّم خلال رحلته السّابقة، أراد أن يُمسكها ويصارعها كما فعل مع وحوش جبل «أمانوس»، لكنّه سريعًا ما اكتشف أنّ تلك الذّئاب الغبراء لا تراه، وربّما تشمّ رائحته فقط!

أدرك الآن أنّ «رَيْهُقانة» كانت صادقة في كلامها بشأن اختفائه عن أعين النّاظرين، كانت ظُلمة الليل تكتنفه من كلّ صوب، لم يشعر بخوف ولم يرفّ له جفن، فقد اعتاد هذا في رحاب جبل «أمانوس»، حتّى تلك الذّئاب لا تُخيفه، فقد رأى الأكثر منها شراسة وتغلّب عليها من قبل، عاد لسيره في يأس، وكانت الذّئاب تزوم بالقرب منه، لكنّه لا يكترث بها، كانت تقترب ثُمّ تتوقف بعيدًا عنه خطوة وكأنّ هناك ما يمنعها عن الاقتراب أكثر من هذا الحدّ، لكنّها تشعر بوجوده!

طال المسير في تلك الأرض العفراء، رفع رأسه تجاه السّماء، كان القمر هو أنيسه الوحيد ورفقته بعد أن يئست الذّئاب وابتعدت، من بعيد لاح له طيف يتحرّك بتؤدة، هرول نحوه، كان رجلًا بدويًا لوّحت الشّمس وجهه وتركت على وجنتيه تغضّنات متعرّجة، له جلد يُشبه ثنيات جسم السّحلية، ثيابه المتهالكة توحي بفقره الشديد، كان يتكئ على عصاه ويحمل مصباحًا في يده الأخرى ويسير بحذائه المتقرّح بجوار حمار لا يختلف حاله عن حال صاحبه، يكاد هيكله العظميّ يبرز من تحت جلده من شدّة ضعفه وهزاله، كان الشّيخ يحمل على حماره جرابًا من القماش، اقترب «حمزة» منه، وسار بجواره، جرّب أن يتحدّث لعلّه يسمعه، لكنّ

الرّجل لم يلتفت، كان يسير شاردًا وهو يضع يده على ظهر حماره، واليد الأخرى تحمل المصباح الّذي يتأرجح يمينًا ويسارًا كلّما خطا خطوة للأمام.

جرّب «حمزة» أن يلمس يده، كانت يد الرّجل ساخنة وكأنّها خرجت من الموقد للتوّ! توقف الرّجل عن السّير، لاحظ «حمزة» تغيّرًا مفاجئًا في عينيه الغامضتين، لم يرتعد سوى فمه وهو يُتمتم بشيء ما، ثُمّ عاد لسيره وكأنّ شيئًا لم يكن. وجد «حمزة» فيه صحبة تؤنسه، وقرر أن يسير بجواره، وصلا إلى خيمة هذا الرّجل الغريب، أطعم الرّجل حماره، وتناول شيئًا يسيرًا من الطّعام، ثُمّ استسلم للنوم، فاضطجع «حمزة» في ركن من خيمته واستسلم للنّوم هو الآخر.



«خالد»

كانت ليلتنا عامرة بالأحاديث، والنّقاشات، قررنا أن نضع خطّة لكي نخرج من مدينة «كُويكُول»، لنتحرر من الأسر، ونُحرر معنا «المستبعدين».

لكننا سنُحاول أوّلًا اكتشاف سبب انتخاب هؤلاء الأشخاص بالذّات لخطفهم من كلّ قرية، ومن كلّ قبيلة، ومن كلّ بقعة من بقاع «مملكة البلاغة». ستقوم جدّتي بالخروج مع أمّي، و«سارة»، و«نور»، و«فرح»، سيعملن مع النّساء والبنات، ويتولين بعض المَهام، ويتبادلن معهم الأحاديث ويجمعن المعلومات.

أمّا «أبادول» فسيتوجّه إلى «الدّيوان» مع أبي ليتحدّثا مع المشرفين حيث يتّخذونه مقرًا لهم. جدّي «كمال» سيذهب إلى السّوق ويختلط بالتُّجار، خرج معه «سُليمان» وتبعتهما القطّة السّوداء، رافقتهما أنا و«طارق»، لم

يلتفت أحد إليه كما توقّعنا، فهم حتّى لم يألفوا وجوهنا رغم لقائنا بهم بالأمس، فغالب من بالمكان يحذَرون من بعضهم البعض.

كما أنّ هناك وافدين جدد وصلوا للتوّ مع «بيادق الظّلام»، والعديد من الغُرباء، أخبرني أهل المدينة بالأمس أنّ عدد المستبعدين يزيد يوميًا، فكلّ صباح يصل المزيد منهم.

مررنا بالمخبز، فوقفنا نراقبهم وهم يقومون بعجن الدّقيق بالماء، كان هناك غلامان، أحدهما يبكي بحُرقة، والآخر يعمل في صمت، فسأل جدّي «كمال» الغلام البَكّاء عن سبب بكائه، فقال الرّجل الّذي كان يقف أمام التنّور وقد غمر العرق جبينه:

- وافدٌ جديد ويبكي بحُرقة يفتقد أهله.

قال الغُلام الآخر وهو يرنو إليه:

- كُنت مثله في البداية، لكنني اعتدت الأمر.

ربّت جدّي على كتف الغلام البكّاء، ثُمّ قام باحتضانه، وقال موجها كلامه للخبّاز:

- لماذا نحن هنا؟ لماذا يختطفنا «بيادق الظّلام»؟

ضحك الرّجل حتّى بانت نواجذه وقال:

- السؤال الّذي لم نجد له إجابة أبدًا، ولا تحاول أن تطرحه على الحرّاس، فقد تُحبس لثلاثة ليالٍ حتّى تنساه، لطالما كررناه عليهم ودومًا يجيبوننا «ليس الآن..ليسَ الآن»...فمتى إذًا!

لم يتوقف الغلام عن البُكاء، سألته وأنا أعبث في شعر رأسه الذّهبي:

-ما اسمك؟

- «أمنوكال»[1].

قال الخبّاز وهو يُخرج بعض الخبز من التّنور:

- إنّه من الأمازيغ.

التفت «طارق» إليه قائلًا:

- من أيّ القبائل أنت؟

- «آيت أومالو»[2].

أدركتُ أنّ تلك قبيلة من قبائل الأمازيغ، همس إليّ «طارق» بأنّه رأى ذلك الغلام و«بيادق الظّلام» يسلّمونه للحرّاس بالأمس، سألناه عن والديه، فأخبرنا أنّ أباه كان من كبار رجال القبيلة، وأنّه مات منذ يومين، وأنّ أمّه مريضة جدًا، ولديه شقيقة في الرّابعة من عُمرها، تأثّرنا لحاله، كان من عُمر «سُليمان» الّذي وقف بجواره وأخذ يُربّت على كتفه. طلب جدّي من الخبّاز أن يعفي «أمنوكال» من العمل فوافق، كدنا ننصرف ومعنا «أمنوكال» فاستوقفنا الغلام الآخر ويداه عالقتان بالعجين، وكان الدّقيق يغطّي ذقنه ويغرق صدره، قال وعيناه تسكنهما نظرتان حائرتان:

- لماذا يا سيدي يعاملوننا هنا وكأننا نسيج واحد، ونوع واحد، وقالب واحد، أليست الأيام تخبزنا بطرق مختلفة؟ أليس لكل منا نكهته الخاصة ومذاقه المميز، والنضج يختلف؟ تارة تلفحنا الحياة بأطراف لهيبها فيبرق سطحنا كالخبز الشهي الطازج، وتارة

---

(١) أمنوكال اسم أمازيغيّ معناه الأمير.

(٢) آيت أومالو اسم قبيلة من قبائل الأمازيغ بمعنى أبناء الظلّ.

ثُمّ أضاف بابتسامة لطيفة:

- تحلَّ بالصّبر... سنعثر على «حمزة».

انخرطنا في عملنا مع الخبّاز وبدأنا نسأله عن سكّان المدينة، وكان لديه الكثير من الأسرار والأخبار.

-٦-

«ماسيليا»

كانت «ماسيليا» تُلاحق «سِيفاو»، وكان يُسرع الخطى فرارًا منها، تصنّع أنّه لا يسمع صوتها الرّقيق وهي تُناديه، لكنّه أشفق عليها عندما طال مسيرها خلفه، فقد ظنّ أنّها ستيأس من تتبّعه عندما تؤلمها قدماها، فالمدينة كبيرة، والسّير من شرقها لغربها يهلك الرّجال، فكيف بفتاة هشّة كندف السّحاب الرّقيق!

توقّف عن السّير فجأة، وسكن مكانه هنيهة قبل أن يستدير تجاهها، خفق قلبه عندما رآها وقد بدت على وجهها آثار الإرهاق والتّعب من طول المسير، شعر بتأنيب الضّمير، ليته أجاب نداءها من البداية، كانت ستتحدّث إليه كعادتها على استحياء وتسأله عن حاله ثُمّ تمضي إلى حال سبيلها، وتتوجّه إلى مطبخ المدينة حيث تعمل مع النّساء، كانت «ماسيليا» ترى فيه الأمان، والحصن، والسّند، والعائلة، والأمل..

فهي ترجو رضاه عنها وتتمناه زوجًا لها، لكنّها لم تُصرّح قط أمامه بهذا الحبّ إلّا مرّة واحدة عندما سألها «قائد الحرس» وهو يستجوبها فور وصولها مع «بيادق الظّلام» عن سبب تشبثها بساقي «سِيفاو» وهم يحملونه إلى «كُويكُول» فأجابت بعد ضغط هذا القائد عليها قائلة:

- خشيت ألّا أراه مرّة أخرى.. وهذا يحرق فؤادي.

مرّ بخاطر«سِيفاو» هذا المشهد وهو يراقب قطرات العرق الّتي تجمّعت على جبينها كحبّات اللؤلؤ، قالت بتلهّف عندما وجدته ينظر إليها:

- ما سبب خوفك إذاً؟

عقدت حاجبيها الرّقيقين وقالت:

- أشعر دومًا بالتّيه وبالخواء، وكأنني في صحراء جرداء، كل هؤلاء النّاس لم يشعروني أبدًا بالأمان..أشعر فقط بالاطمئنان عندما أراك يا «سِيفاو».

قال «سِيفاو» بحزم:

- لا بدّ أن تكوني قويّة يا «ماسيليا»، اعتمدي على نفسك، واعتبريني غير موجود هُنا، بل اعتبريني مِتّ ودُفنت و...

شهقت وقاطعته قائلة بانزعاج شديد وكانت يداها ترتجفان:

- كيف تقول هذا؟ أرجوك...لا تكررها!

تعثّرت الكلمات في فمها وهي تقول:

- يبدو أنني ضايقتك كالعادة.

قال بحرج:

- أقصد أن تكوني قويّة وحسب، فالحياة هنا شاقّة، وغامضة، ونحن لا نعلم مصيرنا، ثُمّ أين إيمانك بالله يا «ماسيليا»؟ وأنتِ الّتي اشتهرت بين بنات قبيلتها بمناجاتها وابتهالاتها الّتي تُرقق القلوب.

تعانقت نظراتهما لبرهة فهرب من عينيها وأشاح بوجهه عنها، فجمعت أطراف شجاعتها وقالت:

- لا تقلق، سأكون قويّة يا «سِيفاو».

ابتسم لها، كان يشعر أحيانًا أنّها تتحوّل إلى طفلة أمامه، تراجعت خطوة للوراء استعدادًا للانصراف وسألته:

- متى ستأتي إلى الحانوت؟ المكان هناك موحش بدونك.

- لا أرغب في العمل اليوم.

- لماذا؟

غضّن حاجبيه، وبدا عليه الضّيق الشديد، شعرت «ماسيليا» بالحرج، فاستدارت مسرعة وسارت مبتعدة عنه، كان يؤلمه أنّها تُحبّه، ولا يدري ما الّذي يفعله ليوقف شلال المشاعر الّذي كان يتدفّق من صوتها، وعينيها، وكلماتها، ونظراتها كلّما التقى بها.

من الصّعب أن تتعامل بلطف مع شخص يُحبّك بينما أنت لا تبادله نفس المشاعر، فأنت دومًا في حيرة من أن يظنّ هذا الشّخص لُطفك معه حبًا، وأنت في الحقيقة تُكنّ له الاحترام والتّقدير فقط، لكنك لا تُحبّه بالطّريقة الّتي يظنّها ويخالها في نفسه، أو تخشى أن يبدو له أنّك تُحبّه عندما تهتمّ به، فيشجّعه هذا على الاستمرار في السعي إليك!

وأنت تريده أن يتوقف عن ذلك فالطريق مُغلق، فتشعر بالضّيق وتُفكّر في طريقة لتردعه، أو تخاطبه بأسلوبٍ غليظٍ لتجعله ينفر منك، أو يكرهك، أو ينصرف غاضبًا لكرامته المُهْدَرة، فتبدأ في إيذائه بفعلٍ أو بكلمة، وعندما ينصرف جريح الفؤاد، يلازمك الشّعور بالذّنب، وتلتصق بك تفاصيل آخر لقاء بينكما، لن تنسى نظراته، وحزنه، وانكساره، وارتجافة كفّيه، وتعرّقه وهو يتخبّط من الصّدمة، وستتذبذب مشاعرك، وتتساءل في حيرة لماذا أُفكّر فيه؟ هل تعلّقت به؟ أم هو مُجرّد تعاطف؟

أم هو الحبّ لكنّك لم تكن تعلم؟ وأخيرًا تهدأ العاصفة الّتي تجتاح كيانك عندما تردد في نفسك أنّ هذا هو الأصح والأسلم له ولك.

قد نكون قساة أحيانًا لنغلق الطّريق على من يرغبون فينا ولا نرغب فيهم حتّى لا تضيع حيواتهم هباء وهم يُلاحقوننا، وقد يتصدّعون من الدّاخل، لكنّ تلك الصّدوع ستبرأ عندما يتعافون منّا، وسيبرد جرح قلوبهم حتمًا بمرور الزّمن، والحبّ ينزح الحبّ، وهذا ما كان يرجوه لها، أن تُحبّ غيره ليبرأ جرح قلبها.

ابتعدت «ماسيليا» وهي تلوم نفسها على ما قالته للتوّ، لماذا كانت ضعيفة، ومنكسرة هكذا؟

سالت دموعها وهي تبتعد عنه، تشعر أحيانًا أنّها تتسوّل منه الحبّ، والحبّ لا يأتي بالتّسول والرّجاء. هكذا نحن البشر، نخطئ ونعود، ثُمّ نخطئ مرّة أخرى! ندمت على ما بدر منها، حاولت مرارًا أن تبتعد عنه، لكنّها في غربة مقيتة هنا، ولا تجد من يسمعها أو يحتويها. في كلّ مرّة يدور بينهما حوار مُشابه كانت تقرر في النّهاية أنّها لن تتحدّث إليه مرّة ثانية، ولن تبحث عنه أبدًا، لكنّها تضعف!

بدأت تتمتم كعادتها وتُحدّث الله في وحدتها، قالت هامسة بصوت تقطعه تعثّرات خطواتها على الطّريق:

-«إلهي، ها هو قلبي بين يديك، امسح عليه برحمتك، وضع في ضعفي قوة منك، وارحم عبرة تترقرق شوقًا، وكبدًا تحترق حنينًا، يا ربِّ لا تترك بيني وبين أقصى مرادك حجابًا إلا هتكته حتى تبرّد بالرضا منك فؤادي، وحتى لا أختار غير ما تختاره لي!»

كان «سِيفاو» يتتبعها بنظراته وهو يتأرجح في مكانه من الحيرة، فهو يخشى عليها من نسمات الهواء، ويتتبع أخبارها داخل المدينة دون أن تشعر به، ويتابع كلّ شاردة وواردة تخصّها، لو لم تكن «أريناس» عروسه لتزوّج منها في الحال، فهي جميلة ورقيقة، وحنونة، وفيها الكثير من الخصال الطّيّبة الّتي يرجوها كلّ شاب في عروسه.

كانت أمّه دومًا تُلحّ عليه ليتزوجها، لكنّه كان يرفض، ربّما لأنّها نشأت في بيتهم فاعتاد على وجودها، ولم يكن لها نفس بريق «أريناس»، هكذا طبيعة بعض الرّجال، دوما يركضون خلف الممنوع، والغامض، أمّا المتاح والقريب فيبدو مألوفًا وسهل المنال، ويزهدون فيه. هزّ رأسه عندما اختفى طيفها من أمام عينيه، هي جميلة، وتُحبّه، لكنّه ما زال ينتظر لحظة عودته لدياره لتزفّ إليه عروسه الفاتنة «أريناس». عاد إلى فقاعته الخاصّة، وسار في أروقه المدينة، يفكّر في طريقة للهروب منها.



المطرقة

دلفت السيّدة «دولت» إلى المطبخ الكبير، وكان فسيحًا واسع الأركان وكأنّه قاعة احتفالات تضمّ عددًا كبيرًا من النّساء اللاتي يعملن لخدمة أهل المدينة، ودلفت خلفها «مرام»، و«سارة»، و«نور»، و«فرح». كانت هناك امرأة بدينة على وجنتيها وعُنقها وشوم زرقاء غريبة، همست «سارة» لجدّتها:

- ما سرّ تلك الوشوم الزّرقاء؟

- سنعرف الآن.

أشفقت «نور» عليها، وأخذت تُفكّر في السّبب الّذي يدعوها للبكاء بتلك الطريقة، هل تفتقد والديها؟ وهل هما على قيد الحياة؟ أم توفّاهما الله؟ أم هي تبكي لفراق حبيب؟ وربّما هناك من يُعذّبها هنا! أو مريضة، أو تبكي نظرًا لهشاشتها ووحدتها، فهي رقيقة جدًا، ولا شكّ أنّ العمل بالمطبخ شاقّ عليها، فهي لم تعتد عليه مثلها، فقد كانت هي ورفيقاتها في شقّة «غيداء» يقمن بطلب الطّعام من الخارج، وماتت أُمّها قبل أن تعلّمها فنون الطّبخ.

تذكّرت آخر عهد لها برائحة طبخ أُمّها، شعرت برغبة في البكاء هي الأخرى، وكأنّ بكاء «ماسيليا» أعادها إلى لحظة علمها بوفاة والديها، ازدردت ريقها بصعوبة، وابتلعت ذكرياتها المؤلمة، وقررت أن تسألها عن سبب بكائها، وبدأت كلٌّ منهما تهمس للأخرى، واكتشفتا للتوّ أنّهما متشابهتان، يتيمتان، وحيدتان، تم اختطافهما ونقلهما إلى تلك المدينة، شقّت ابتسامة طريقها بين دموع «ماسيليا» عندما بدأت تتحدّث عن «سِيفاو»، فأدركت «نور» أنّها تذوب فيه عشقًا وحبًا، بينما قلب «سِيفاو» متيّم بفتاة أخرى، فانقبض صدرها، وازدادت شفقتها على صديقتها الجديدة، ودّت لو بكت معها، لكنّهما انشغلتا بالعمل في المطبخ، همست «ماسيليا» وهي تُكفكف دمعاتها:

- «يا ودود، ارحم عَبراتي وعَثراتي.»

انخرط الجميع في عملهم بالمطبخ، كانت «فرح» تُراقب الرّجال وهم يقومون بذبح الخراف من النافذة وهي في انزعاج شديد، في ركن الحظيرة الملحقة بالمطبخ كان هناك ثور عظيم له عينان مخيفتان، نهرتها جدّتها ونادت عليها لتبتعد عن النّافذة.

اقتربت «فرح» من أُمّها الّتي كانت تقوم بتقشير البصل وهمست بصوت يرتجف:

- سيذبحون ثورًا عظيمًا يا أُمّي.

- لا بدّ من هذا لإطعام أهل المدينة.

- الثّور له قرنان عظيمان!

- أمرٌ طبيعي، كلّ الثيران لها قرون!

- أنا خائفة يا أُمّي.

تركت «مرام» ما بين يديها وجذبت ابنتها وقالت لها:

- كيف تخافين وأنت مُحاربة؟

- لا بأس من الخوف، أنتِ أخبرتني بهذا من قبل يا أُمّي، ولا بأس من البُكاء، فأنتِ كنتِ تبكين طوال الليل!

- أنا أبكي قلقًا على أخيك «حمزة»، لكنني استودعته الله وأعلم أنّه سيكون بخير، قلبي فقط يحنّ إليه.

- فلتكوني مُحاربة إذًا يا أُمّاه..وكُفّي عن البّكاء.

- أنا أبكي الآن من البصل!

ضحكت «مرام» واحتضنت ابنتها، لكنّ «فرح» كانت قلقة للغاية، اتسعت حدقتا عينيها البندقيّتين، وجفّ حلقها، بدأ جبينها يتعرّق، وتسارعت أنفاسها، أمسكت بمطرقة غليظة كانوا يستخدمونها في تفتيت ثمار جوز الهند، وطرق شرائح اللحم الغليظة قبل طهيها. تشبثت بها بقوّة، وجلست تُنصت لخوار الثّور بالخارج، وعيناها معلّقتان بباب المطبخ المؤدي للحظيرة الواسعة.

تعالت أصوات الرّجال، يبدو أنّ الثور هائج بالفعل، أحدث الثّور جلبة شديدة، ودلف إلى المطبخ من بابه الواسع المطلّ على الحظيرة، قلب القدور على الأرض فانسكب ما فيها وأحدث حالة من الفوضى، وحطّم الأواني وهشّم القوارير الزّجاجيّة، وأصاب امرأة في ظهرها بجرح بليغ فسقطت وهي تنزف، هربت النّساء من باب المطبخ الرئيسي، استدار الثّور نحو باب الحظيرة ففر الرّجال من أمامه، وبقيت «فرح» الّتي كانت تُسمّر قدميها بالأرض، دلفت أمّها مرّة أخرى بعد أن انتبهت لعدم وجودها، كان الثّور يتأهّب للهجوم على ابنتها الصغيرة!

فرفعت «فرح» يدها بالمطرقة وصاحت وكأنّها تخوض حربًا مع خوفها وهوت بها على رأس الثّور مُباشرة، كان هناك وميض يُصاحب المطرقة وهي تطير في الهواء، أصابت الثّور بين عينيه فسقط على الأرض في الحال، أسرعت «مرام» وسحبتها للخارج، كانت دقّات قلبها تتواثب وقلبها يكاد يقفز من بين أضلاعها، همست في أذن ابنتها قائلة:

- لا تُخبري أحدًا بما فعلتِه للتوّ.

- لماذا يا أُمّي؟

- سأُخبرك لاحقًا.

دلف الرّجال واستطاعوا السّيطرة على الثّور، وجرّوه للخارج، ما زال يخور، يُحاول النهوض، يرميهم بنظراته المخيفة، ذبحوه في الحال، بينما كانت «مرام» تُخفي المطرقة الّتي استخدمتها «فرح» في معركتها مع ثور يبلغ من الحجم أضعاف حجمها الضئيل، لتأخذها معها للبيت، انتهى اليوم، وتم علاج المرأة الّتي أصابها الثّور في مشفى المدينة، على يد الطبيب «الحارث»، ذاك الطبيب العربي الّذي كان من أوائل الوافدين إلى مدينة «كُوِيكُول».

عند الظّهيرة، عادت نساء عائلة «أبادول» للبيت، كما عاد الرّجال تباعًا، وكان السيّد «كمال» آخر من وصل للبيت، بعد أن اطمأن على الغلامين «أمنوكال»، و«ميسرة»، وسلّمهما للشّاب الّذي تعهّد برعايتهما من سُكّان المدينة، كانت «مرام» في غاية الحماس وهي تروي لهم ما حدث مع ابنتها وقد وضعت المطرقة على الطّاولة أمامهم وهي تقول:

- كانت «فرح» تلقي المطرقة كما تلقيها أيّ فتاة صغيرة في عُمرها، لكنّ المطرقة انطلقت كالقذيفة، وصاحبها صوت غريب، ووميض عجيب، لو عاد الرّجال بعد فرارهم من الثّور لرأوه، ولما مرّ الأمر مرور الكرام.

توجّه «أنس» بحديثه لابنته وسألها:

- لماذا أمسكتِ بالمطرقة يا «فرح»؟

- لا أدري، شعرت بالخوف الشّديد، خوف لم أحسّ به من قبل! وداهمني شعور لوهلة أنني لا أرى أيّ شيء بالمكان، لا الأشخاص، ولا الأدوات، كلّ ما حولي قد اختفي إلّا تلك المطرقة، فأمسكتها وقبضتُ على يدها بقوّة، وجلستُ بجوار أُمّي، وعندما دلف الثّور شعرت بسخونتها بين يديّ، ووجدتّني أُلقيها عليه فأصابته في الحال.

قال «كمال»:

- يبدو أنّنا سنُمنح أدواتنا الجديدة.

أضاف «أبادول»:

- ويبدو أننا سنخوض معاركَ من نوع خاصّ، فالأسلحة تُمنح لمن يخوضون معاركَ جديدة لم تدُر على أرض مملكة البلاغة من قبل!

سألهما «خالد»:

- ولكن متى؟ وأين؟ وكيف؟

قال «أبادول» وهو يقلّب عينيه بين وجوههم:

- عندما نواجه خطرًا شديدًا بشجاعة، فقد ثبتت «فرح» رغم خوفها وواجهت الثّور بمهارة، لهذا انتبهوا جيّدًا لما حولكم، وعندما تشعرون بالخطر تذكّروا ما وصفته «فرح» للتوّ.

قال «كمال» موجهًا كلامه لزوجته:

-هل من أخبار عن أهل المدينة تمكّنتّ من جمعها من النّساء؟

-كلّ واحدة منهنّ لها قصّة، هناك امرأة تُدعى «تانيرت»[1] كانت تعيش وحدها بعد زواج أولادها الثلاثة، الّذين كانوا يتناوبون على زيارتها. وكانت في طريقها لمأدبة أعدّتها لها زوجات أولادها بعد انقطاع عنها لفترةٍ طويلة عندما اختطفها «بيادق الظّلام».

قالت «نور»:

-وهناك فتاة لطيفة تدعى «ماسيليا»، أتت طواعية عندما تعلّقت بشاب يسمّى...

قاطعها «خالد» قائلًا:

- «سيفاو»!

---

(١) تانيرت اسم أمازيغي للإناث بمعنى المَلاك.

- نعم هو.

قال «طارق»:

- لقد التقينا بـ«سيفاو»، إنّه شاب ثريٌّ، لديه متجر كبير للأقمشة، مات أبوه وهو صغير، وتولّى إدارة تجارة أبيه منذ أن كان في الرّابعة عشرة من عمره وكان ابن عمّه يُساعده.

أضاف «خالد»:

- يبدو عنيدًا وقويًّا، وهو يتمرّد على المشرفين دومًا، أخبرونا أنّه دائم الشّجار معهم، وهو يرغب في الخروج من هنا.

سألت السيّدة «دولت» «طارقًا» قائلة:

- رأيت الوشوم على وجه السيّدة «تانيرت»، وعلى عنقها وكفّيها، ما قصّة تلك الوشوم؟ لا بدّ أنّك تعرف، فهي من الأمازيغ.

أضافت «نور» قائلة:

- وكذلك «ماسيليا»، فهناك على وجهها وعنقها ويديها نقوش من منمنمات زخرفيّة رقيقة ومتداخلة!

قال «طارق»:

- دقّ الوشوم عادة توارثتها نساء الأمازيغ، فالوشم له دلالات جمالية كما هو عملية إثبات اتصالية ضمن سياق المجتمع ويُمرر بعض الرّسائل، وصار الصفة التي تميز المرأة الأمازيغية عن غيرها.

قالت «سارة»:

- هل يكتبون حروفًا من التيفيناغ؟

- بل يرسمون الشمس والنجوم والعقرب وحتى غصن الزيتون والثعبان، بالإضافة إلى رموز ودلالات أخرى تتعلق بتاريخ صاحبة الوشم والقبيلة التي تنتمي إليها.

تنهّد «كمال» وقال وهو يرنو لأبيه «أبادول»:

- «أمنوكال» غلام خُطف بعد موت أبيه بيوم، كان يبكي بحرقة، فقد مرضت أمّه مرضًا شديدًا وطلبت منه رعاية أخته الصغيرة، فأقبل «بيادق الظّلام» واختطفوه من بيته، لقد رأتهم شقيقته وتركها وهي تصرخ من الفزع.

قال «أبادول»:

- يا لهم من قساة غلاظ، لا أدري لم يقومون باختطاف الأطفال، والتفريق بين الأهل والأحبّة.

- هل وصلتم لشيء خلال حواركم مع كبار المشرفين بـ«الدّيوان» يا أبي؟

- لم نتمكّن من لقائهم، لقد منعنا الحرّاس، وأبعدونا في الحال.

أضاف «أنس»:

- عرفت اثنين منهما من أصواتهما، كانا من الكوكبة الّتي اختطفتنا، يبدو أنّهم يخشون أن نفشي سرّ الهروب والفرار لقادتهما، فنحن في أعينهما حفنة من «المستبعدين» قاموا بالفرار وأعادونا للمكان في الخفاء.

هزّ «كمال» رأسه قائلًا:

- عدد أهل المدينة ليس بالقليل، وهذا من تقدير الله حتّى لا ينكشف أمرنا. رعايتهم تحتاج لجهد عظيم، وهم يوفرون الطعام والشّراب والمسكن والعلاج، ويسمحون لأهلها بالعمل، ولكن داخل الأسوار فقط!

قالت «مرام» في حيرة:

- ولماذا على أرض «الكَنَهْوَر» بالذّات؟

ران عليهم الصّمت للحظات، قال «طارق» وهو يترقّب ردود أفعالهم:

-لم تكن مدينة «كُويكُول» على أرض «الكَنَهْوَر».

-ماذا!!

- عندما وصلتُ والتقيت بحرّاس المكتبة العظمى، وأمدّوني بالخريطة الخاصّة برحلتي، كانت «كُويكُول» حسب الخريطة تقع بعيدًا عن جبال «الخرافة»! وعندما وصلت إلى البقعة الّتي يتوجّب أن تكون عليها المدينة لم أجدها هناك، وكان عليّ العودة مع الصّقر الّذي أحضرني إلى المكتبة العظمى لأبلغ الحرّاس أنّها اختفت، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- قررتُ أن أعبر جبال «الخرافة» واخترق الحاجز الّذي يمتدّ فوقها، لأبحث عن «كُويكُول» فربّما هُناك خطأ في الخريطة!، وعاد الصّقر ليُخبرهم، فهو لا يستطيع اختراق الحاجز، ولن يتمكّن من التحليق في سمائها.

سأله «خالد»:

- وكُنت تعرف عن أرض «الكَنَهَور»؟ وأنّك ستنقطع عن الجميع هنا؟ وكأنّك تسير في مقبرة!

- نعم.

- ألم تخف من الوحدة؟

- لا.

- كيف هذا؟ ومن أين أتيت بالثّقة أنّك ستستطيع عبور هذا الحاجز؟

لاح شبح ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يقول:

- ألم أُخبرك؟ فضولي شديد، وقلبي حديد!

بادله «خالد» الابتسامة، كانت طبيعة «طارق» المرحة تروق له، فهو شاب خفيف الرّوح ودائمًا يوقّع كلماته بابتسامة، قال «أبادول» وهو يرنو إلى «طارق» في إعجاب:

- فليكن قلبك من حديد، فنعم المُحارب أنت. ولكن بعض الفضول قد يُفيد، والبعض قد يؤذيك، فاحذر يا بنيّ.

ابتسم «أنس» وتذكّر «الحوراء» وهي تردد عليه نفس الجملة، وسريعًا ما انزوت تلك الابتسامة وتركت ارتجافة ألم على شفتيه عندما تذكّر كيف كان يُكررها دومًا على مسامع ابنه «حمزة»، وقد كان يشتاق إليه بشدّة. انتبه من شروده القصير على صوت «خالد» وهو يقول بحماس:

- وددت لو رأيت تلك الخيول المجنّحة مرّة أخرى.

سأله «طارق»:

قال «طارق»:

- وكأنّهم يخططون لمدينة فاضلة ويتخيّرون سكّانها بعناية!

قال «سِيفاو»:

- ولكن بعضنا فيه خشونة، وبعضنا فيه أنانية، وبعض النّساء عفيفات حييات، وبعضهن جريئات! ونحن من بقاع مختلفة، من الأمازيغ ومن العرب ومن غيرهما.

- هل حاولت الاستغاثة برفاقك أو المقاومة يا «سِيفاو»؟

- لم أتوقف عن المُحاولة، لكنّهم أذكياء جدًا وعدد الحرّاس كبير. ومنذ وصولي حاولت الهروب عدّة مرّات مع شباب المدينة، دومًا نُخطط ونحاول لكننا نفشل، لم نكن على دراية بتضاريس المنطقة هنا، لهذا اجتمعنا لسؤال «خالد»، فهو يعرف تقسيم المدينة وتخطيطها.

سأله «طارق»:

- وكيف لم تعرف «كُويكُول» وأنت من الأمازيغ؟

- كُنت أعرف أنّ هناك مدينة رومانية، لكنني لم أرها أبدًا، ولم أزرها قطّ.

اهتزّ كتاب «كُويكُول» في حقيبة «طارق»، هناك جمل جديدة تُنقش على صفحاته، سارع بإخراجه من حقيبته واطلع على الجمل الّتي ظهرت، كان يحكي عن «سِيفاو»، يصف ملامحه، وما يشعر به الآن، وعن خطر شديد يتهدده. أغلق الكتاب وجلس بجواره وقال له:

- ما رأيك أن نُجرّب الهروب معًا من هنا، أنا وأنت و«خالد»، يقولون إنّ «بنات الرّيح» ترعى في بُستان قريب.

اندهش «خالد» عندما كشف «طارق» لـ«سِيفاو» عن خطّتهما وعن الخيول المُجنّحة، وحدّق في وجهه، كان «طارق» ينتظر من «سِيفاو» إجابة على سؤاله، فأجابه «سِيفاو» بعد تفكير:

- و«ماسيليا»؟

- ما بها؟

- هل تضمن لي أن تستضيفها عائلة «أبادول» وتعتني بها وترعاها حتّى أعود إليها؟

قال «خالد»:

- أضمن لك هذا.

قال «سِيفاو» بتأثّر:

- في كلّ مرّة أحاول فيها الهروب، تتعرض «ماسيليا» للأذى بسببي.

- هل يلقون القبض عليها؟

- لا.. لكنّها تمرض مرضًا شديدًا، فأنا أُخفي عنها الأمر، وتُفاجأ به، وعندما أفشل في الهروب ويعيدونني إلى هنا، ويتم حبسي عقابًا لمحاولتي الهروب، تأتي لرؤيتي بعد خروجي وقد نحل جسدها، وتقرّحت عيناها من البُكاء.

- يبدو أنّها تُحبّك حدّ الشّغف، لقد تعلّقت بساقيك أثناء اختطافك، ولم تخشَ «بيادق الظّلام».

- أعرف هذا، لكنني متيّم بـ«أريناس»، عروسي الّتي حُرمت منها ليلة زفافي، لا بدّ أنّها أيضًا تبكي بحرقة من أجلي وتنتظرني فهي مسكينة أيضًا، وقد اشتقت إليها..ما ذنبها هي الأخرى؟

- كان الله في عونك، التّعامل مع شخص يُحبّك ويشقى بحبّه لك أمر له أثر شديد على النّفس.

- لعلّ الله يُخرج حبّي من قلب «ماسيليا» الطّيب، ويعيدنا لديارنا بسلام.

قال «طارق» بجديّة شديدة:

- حسنًا يا «سِيفاو»، فليكن الأمر سرًا بيننا، ولا تُخبر به أحدًا هنا، وسنخرج معًا عندما يهبط الظّلام.

قال «خالد»:

- من الأفضل أن تُخبر «ماسيليا» هذه المرّة، لكي تقبل بالانتقال إلى بيتنا، فهل هي قادرة على حفظ هذا السرّ؟

- نعم، أثقُ في«ماسيليا» ثقة عمياء، ستحفظ السرّ، لكنّها ستتألّم.

- ستعتني أمّي بها، وكذلك ستفعل جدّتي.

أقبل شباب المدينة عندما رأوا «خالدًا»، أدخلهم «سِيفاو» إلى المتجر بعيدًا عن الأنظار، ووقف أمام الباب ليحذّرهم عند اقتراب المشرفين. التفّوا حول «خالد»، وألقوا عليه المزيد من الأسئلة عن «كُوِيكُول»، كان «قتادة» أكثرهم سؤالًا واستفسارًا، وكان شابًا حاذقًا واسع العينين، له نظرة ثاقبة وكأنّه على وشك التهام من أمامه بنظراته. تم الاتفاق على

موعد آخر للاجتماع بهم في اليوم التّالي، يُريدون الهرب، فقد اشتاق كلّ منهم لأهله وذويه.

استيقظ «حمزة» بصعوبة، كان يشعر بنشرٍ في عظامه، داهمه صداع شديد يشقّ رأسه، فتح عينيه أخيرًا وفوجئ بذلك الشّيخ البدويّ يجلس أمامه على الأرض، وقد خطّ حوله دائرة على الرّمال، واختفت الخيمة، والحمار، وكلّ شيء! كان قد نقش على الرّمال رموزًا غريبة، وجلس يحدّق تجاه «حمزة»، وكأنّه يراه. تحدّث «حمزة» إليه، لكنّه لم يُظهر أيّ تفاعل لأنّه كان لا يسمعه، حرّك يده أمام عينيه فأدرك أنّه لا يراه، لكن يبدو أنّه يشعر به، كان يردد شيئًا ما، فقرّب «حمزة» أُذنه من فمه بحذر ليسمعه، شهق الشّيخ بصوت عالٍ عندما اقترب منه «حمزة» ومدّ أصبعه وكتب على الرّمال:

- من أنت؟ انقش على الرّمال، وعليك منّي السّلام.

استيقظت كلّ حواسّ «حمزة»، فهناك من يشعُر به، وبدأ يكتب على الرّمال بأصبعه:

- اسمي «حمزة»، وأنا أسير.

سأله الشّيخ بذات الطريقة، ودون أن يُحرّك شفتيه بعد أن قرأ كلماته:

- موسوم؟

- نعم.

- من قام بوَسْمِك؟

مسح «حمزة» على الرّمال ليمحو ما كتبه سابقًا، ثُمّ كتب من جديد:

- ساحرة من ساحرات «ماذريون» تُسمّي «رَيْهُقانة».

ظهر الانزعاج على الشّيخ وهو يكتب:

- معشوق!

أسرع «حمزة» يكتب له:

- نعم، ولكن! كيف علمت بوجودي، فأنت لا تراني ولا تسمعني؟

- حرارة جسدك، أنفاسك، وآثار خطواتك على الرّمال الّتي ظهرت في الصّباح، لا بدّ أنّ وَسَمَك حديث، فتلك الآثار ستختفي بعد ليلتين من لحظة وَسْمِك.

- تبعتك ليلًا وأنت تسير.

- نعم، شعرتُ بك، وأعرف أنّك لا تضمر الشرّ.

- وكيف تعرف هذا؟

- هذا أمر ورثته عن أبي، كنّا دومًا نشعر بـ«الهماليل».

- ومن هم «الهماليل»؟

- الضعاف أمثالك.

- لستُ ضعيفًا..أنا مُحارب.

- مُحارب! وكيف تَخلّى حرّاس المكتبة عنك!

- هم لا يعرفون بوصولي، فقد كُنت على أرض «الكَنَهَوَر».

بقي الشّيخ يُحدّق في الرّمال، فكتب له «حمزة»:

- ساعدني.

ظهرت معالم الأسى على وجه الشّيخ وهو يكتب:

- ليتني أستطيع، لن يُفكّ أسرك بسهولة، تحتاج قلبًا نبيلًا يضحّي لخلاصك بحبٍ طاهر وصادق، فالمعشوق يُبذل له من الرّوح، وتلك السّاحرة بذلت من روحها.

- أرجوك.. ساعدني.

- لا أستطيع.

- افعل أيّ شيء.

أطرق الشّيخ قليلًا ثُمّ كتب له:

- أستطيع نقلك إلى مكان آخر، حيث المحاربين، هؤلاء فقط سيرونك وسيتحدثون معك.

- انقلني إذًا إلى أرض «الكَنَهْوَر».

- لكنّها أرض الموت، الخالية من البشر! لا وجود للمحاربين هُناك!

- لديّ صديق هُناك، انقلني حالًا أرجوك.

- صديق!

- نعم، وهو مُحارب، كان يراني ويتحدّث إليّ.

- سأفعل.. وإن صدقت، فهو سيساعدك.

جلس «حمزة» يراقب الشّيخ وهو يتمتم بلسانه بينما يحدّق في السّحاب، ثُمّ يعود وينظر للرمال داخل الحلقة الّتي خطّها حول «حمزة»، فاستوقفه «حمزة» وكتب على الرّمال:

- هل ستعرف «رَيْهُقانة» بما دار بيننا؟

- لا، فالأمر بيننا فقط، ولن يخرج من تلك الدّائرة، لقد حصّنتها بحِرزٍ مِنيع، لن يطّلع عليه أحد أبدًا.

قل «حمزة» بثقة:

- لكنّ الله يعلمه.

حرّك الشّيخ رأسه فجأة، وكأنّه فزع من شيءٍ ما، لاحظ «حمزة» هذا فسأله:

- ما اسمك؟

- «حَنْطَريرَة»[1].

عاد الشّيخ «حَنْطَريرَة» لترديد كلماته المُبهمة، بصوتٍ فيه شيء من النّشاز، اهتزّت الأرض من تحت قدمي «حمزة»، وشعر أنّ الأرض تنشق وكأنّها تبتلعه، غاص في الرّمال، ودارت به بسرعة شديدة، مرّت به لحظات عصيبة، قبل أن تهدأ عاصفة الرّمال من حوله، فتح عينيه ووقف ينفض الرّمال عن جسده وهو يسعل بشدّة، وعندما هدأ السّعال، جلس تحت شجرة صفصاف عظيمة، وأسند ظهره لجذعها، كان هُناك شيء غريب يحدث!

الأرض ترتفع وتنخفض، وتتباعد الأشجار، وتقترب الجبال من بعضها، أصيب بتوتّر شديد، وانطلق يجري من هنا إلى هناك، هاربًا من تلك الجبال الّتي تقترب، ومسرعًا بالخروج من هذا السّهل الّذي ينحدر إلى الأسفل ويهوي بشدّة، ومبتعدًا عن الأشجار الّتي بدت وكأنّها

(١)الحنْطَريرَة: من أسماء السّحاب.

تتهاوى فوقه، حتّى أنّه وضع يديه كلتيهما على رأسه وقد رأى أمام عينيه قلاعًا وقصورًا وبيوتًا ومدنًا بأكملها تظهر في الأفق وتختفي وتنطوي بها الأرض.

انزلقت قدماه وتدحرج على الأرض، حاول أن يحمي رأسه بيديه، توقف جسده عن الدوران، وبقي مكانه رغمًا عنه، ويبدو أنّ هذا كان هو الصّواب، فأرض الكنهور تتمزّق، وتتباعد، وتتمدد، وتنقبض وتنبسط، ولا ينبغي عليه الفرار من هذا، بل السّكون والتّسليم! حملته أرض «الكَنَهْوَر» إلى أسوار مدينة «كُويكُول»، حيث كان الحرّاس يطوفون بها وهم مدجّجون بالسّلاح ويراقبون الطّريق، فوقف أمامهم وكانوا لا يرونه ولا يسمعونه، وهمس لنفسه مُتعجّبًا:

- هناك حياة على أرض الكَنَهْوَر! هناك بشر!

ركض نحو المدينة، وتسلل من بين الحرّاس دون أن يشعروا به، مرّ بالأروقة، وشاهد القاعات، ووقف مُتأمّلًا أمام التماثيل الرّومانية في كلّ مكان هنا وهناك، مرّ بالدّيوان، وقوس النصر، والحيّ المسيحيّ، ورأى النّوافير المرمريّة الفوّارة فأقبل ينهل من مائها نهلًا، وجلس يستريح وهو يُفكّر أين هو «طارق» الآن.

كان «حمزة» يسير بمدينة «كُويكُول»، يُجرجر كآبته معه في طُرقات المدينة، ويتنقّل من ركن لآخر بعينيه المتعبتين، يُراقب النّاس وهو يشعر بالانكسار.

وحيدًا رغم الزّحام حوله، أسيرًا رغم حرّية التّجوال، باحثًا عن نظرة عين تعطيه ذرّة أملٍ أنّه موجود بالفعل، وهناك من يراه، صار مجرّد رؤية ملامحه من قِبل شخص آخر أمنيته الوَحيدة!

نحن نحتاج للآخرين، لانعكاس صورتنا بأعينهم، حتّى وإن مرّوا بنا مرور الكرام، يكفي أنّ نظراتهم إثبات لكوننا على قيد الحياة، نتنفّس، نعيش، ويشعرون بنا. بدأ قلبه يئنّ؛ هل أنا حقًّا موجود هنا؟

أن تكون خفيًّا فذاك مؤلم للغاية، أن تصرخ من الألم ولا يسمعونك فهذا يُمزّق الفؤاد. أن يصاب كلّ من حولك بالعمى عنك أنت بالذّات رغم قوّة إبصارهم ذلك محطّم للذّات، أن تكون موجودًا لكنّك غير موجود، كائنًا لكنّك بالنّسبة إليهم لم تكن، حيًا لكنّك كالميت يسير في تابوت، كلّ هذا مؤلم ومخيف وموجع. وكونك بعيدًا عن بيتك، ووطنك، وأهلك وهم لا يعلمون أين أنت فتلك غربة مرّة، وفقدانك لكلّ من كانوا يدعمونك هو الهزيمة الكبرى هنا.

الآن يدرك معاناة هؤلاء الّذين يعيشون على الهوامش، أولئك الّذين يتجاهلهم النّاس، لفقرهم ربّما، لقُبحهم ربّما، لضعفهم أحيانًا، لعجزهم عن تقديم أنفسهم بشكل لائق والحديث عن ذواتهم بطلاقة، أو لصمتهم عند الإساءة إليهم مرّات ومرّات، لعجزهم عن التعبير عن أنفسهم لسبب ما، لشخوصهم الهشّة التي تتلاشى في حضور آخرين يلمعون كالنّجوم فيخطفون الأضواء، أو لأنّهم تنازلوا عن حقوقهم ببساطة، وابتلعوا الإهانة مرّة بعد مرّة فغضّ النّاس أبصارهم عنهم، واستهانوا بهم واستبعدوهم من إطار رؤيتهم فدهسوهم!

تراكمت كلّ تلك المعاني على صدره، انحنى بظهره وكأنّه يحمل معاناة كلّ هؤلاء المتعبين على كتفيه، فهو الآن يُشبههم جميعًا، جلس يرتجف من البرد متعجّبًا من عدم شعور أهل المدينة بهذا البرد الشّديد!، كان مُنهكًا، وجائعًا، رفع عينيه إلى السّماء وقال:

- ما زلت معي يالله وإن غابوا جميعًا، تسمع سرّي وَتراني وتعلم خبيئتي وتسمع أوجاع قلبي، فلا تتركني وحيدًا تتخبّطني الخطوب، فمن لي سواك!

تكوّر في ركن من أركان السّوق، وضمّ ساقيه إلى صدره كالجنين في رحم أمّه، وغلبه النّعاس.

كانت «رَيْهُقانة» تطوف بوادي «الهماليل» كالمجنونة، أين «حمزة»؟ كيف له أن يختفي وقد تركَته في هذا الوادي الآمن، كانت تعلم أنّ فيه الكثير من الأسرى، بعضهم يطوف بأرضها، وبعضهم أصابه الجُنون، وبعضهم مات دون أن يشعر به أحد، قضت وقتًا طويلًا تفتّش عنه فوق الأرض وتحتها، كانت تميّزُ من الغيظ عندما ظهر «أسحم» أمامها فجأة، فقالت بغضب:

- ماذا تُريد منّي يا «أَسْحَم»؟

كان «أسحم» يزوم كالوحش الكاسر وهو يدور حول «رَيْهُقانة»، ما زالت تفعل أفاعيلها فجأة دون الرّجوع إليه، وها هي تُعرّض اسمه للخطر بخروجها فجأة، صاح قائلًا:

- ماذا أُريد!! لقد أنقذتك بالأمس!

تململت في ضيق، فأردف قائلًا:

- لماذا تهربين منّي؟

- لم أهرب!

- لكنّك تسللتِ دون أن تُخبريني يا «رَيْهُقانة»، وتعلمين أنني خسرتُ مكانتي بين «المجاهيم» بسببك، وأنّهم يتربّصون بكِ، و«القنّاصون» يبحثون عنكِ في كلّ مكان.

- «وادي الهماليل» بعيد عن سُلطانهم، هنا أستطيع حماية نفسي.

- في كلّ مرّة ستخرجين من مملكتي ستمرّين ببراكين «طِرمساء» حتّى تصلين إلى هنا، كُنت أتبعك الآن في كلّ لحظة، ولقد ضللتهم لأخفيكِ عن أعينهم. ولكن.. لماذا «وادي الهَماليل»؟ هل لديك أسير؟

- نعم.

- ألهذا ضعفت قوّتك؟

- نعم.

- هل هو أسير من الجنّ؟ أم من البشر؟

- من البشر.

- من؟

اقتربت منه وقالت بدلال:

- هل أستطيع أن أثق بك؟

- بالتّأكيد، فأنتِ تعلمين أنّ قلبي ملك لكِ يا «رَيْهُقانة».

- ولكن ما سأبوح به سيكون وقعه على قلبك ثقيلًا.

- كيف هذا؟

أشاحت بعينيها عن وجهه وقالت:

- لقد وَسَمْتُ «حمزة».

- حفيد «أبادول»؟ كيف تفعلين هذا؟ ولماذا؟

طالعها بنظرات تملؤها الغيرة، فأسرعت بدهائها لتبعد تلك الخاطرة عن رأسه وقالت:

- أُريد الانتقام من عائلة «أبادول».

- لماذا؟

- لقد احتقرني «حمزة» عندما عثر على الجمجمة الّتي كُنت محبوسة فيها، بعد تلك اللعنة الّتي أصابتني قديمًا، أنت لا تدرك حقيقة ما مررت به هنا خلال رحلته للبحث عن أخيه، لقد أذاني حقًا هو وذلك البائس الّذي يُدعى «هِشام»، عائلة «أبادول» لا تستحقّ كلّ هذا القدر من الاهتمام!

فقال بعد صمتٍ مؤلمٍ قصير:

- وما الفائدة من وَسْمه؟

كانت «رَيْهُقانة» تعلم أنّ «أَسْحَم» مُغرم بها حدّ الصبابة، ولن يقبل مُساعدتها في البحث عمّن تُحبّه، فتحايلت عليه قائلة:

- أُساوم به «القنّاصين»، لو أعادوا الكرّة واختطفوني وهددوني بالحبس في مقبرة «طرمساء» سأخبرهم أنّني أسرت حفيد «أبادول»، وعندها فقط سأتمكّن من إجبار زعيم «المجاهيم» على إعطائي الأمان، بل وسأجعله يُعاهدني على عدم المساس بي أبدًا.

- كان من المُمكن حبسه بدلًا من أسره بتلك الطريقة!

- كان الأمر سريعًا، خفت أن يُعيده المجاهيم لموطنه ولا أصل إليه مرّة أخرى.

- كيف تعرّضين نفسك للخطر؟ هذا يُضعف قواكِ!

- لم أتمكّن من استيطان جسده أو تخلخله، لقد مُنعت.

- تعلمين أنّه مُحارب، وقد عاد إلى رحاب مملكة البلاغة مرّة أخرى.

- نسيت من شدّة الخوف، عندما سمعت أصوات القنّاصين وَسَمْتُه في الحال دون تفكير.

قال «أَسْحَم» بمرارة:

- على العموم، لن يلمسك هذا الأحمق، فهو من طين لازب، وأنتِ من مارجٍ من نّار.

احتقنت عينا «رَيْهُقانة» عندما واجهها بالحقيقة، أخفت مشاعرها وهي تُنصت لباقي كلماته:

- تلك اللعبة نلعبها كثيرًا مع البشر، لكنّها بلا فائدة، كثيرًا ما نراقبهم من طرف خفيّ في كلّ حالاتهم، ثّم نتلبسهم فضولًا منّا حين يضعفون أو يزلزلهم الخوف فنمرق في أجسادهم، وعندما

يغفلون عن ربّهم، لكننا لن نعيش حياتهم، ولن يشعروا بنا، نحن نلعب بهم يا «رَيْهُقانة»، ما تفعلينه لهو ولعب وهُراء.

قالت بحنق شديد:

- يكفي أن يكون ملكًا لي وحدي.

- أتحسبينه حيوانًا أليفًا؟

- فليكُن!

- أنتِ في غنى عن هذا، فلجدّه «أبادول» فضل على عشيرة «المجاهيم»، وقد يقتلونك.

رمته بنظرة ساخطة وسألته:

- وهل ستسمح لهم؟

تراجع للخلف وهو يقول:

- يكفيك الآن الجرائم الّتي ارتكبتِها في حقّ رفيقاتك!

- لا يهمّني.

- تعلمين أنني أُحبّك، أطلقي سراحه وانسي ما فعله بك هو و«هشام»،، وكوني لي، وسأكون أسيرًا لكِ بحقّ، ستتوّجين ملكة على عشيرتي، وملكة على قلبي، سيكون لنا سُلطان خاصّ بنا، سنسيطر على المزيد من الأرض، وسنستميل الكثيرين من أترابنا.

- وثقت بك وبُحت إليك بسرّي، فساعدني، وإلّا سأرحل وأبتعد عنك للأبد.

- وكيف أُساعدك؟

- احتويني بكيانك لتُخفيني عن أعين القنّاصين كما فعلت من قبل، واحملني لنبحث عن «حمزة» في ربوع مملكة البلاغة، فما عدت أشعر به، يبدو أنّ هناك من يُساعده، ويحجبه عنّي!

قال بحنق شديد:

- ولو رفضت مُساعدتك في البحث عنه؟

طالعته بنظرة اهتزّ لها فؤاده وقالت:

- بل فكّر فيما سأُقدّمه لك لو ساعدّتني، فهو الآن الفرصة الوحيدة لنجاتي من عقاب «المجاهيم».

قال بهُيام:

- لا يوجد شيء على رحاب هذه المملكة أرجوه وأُريده سواكِ.

ضحكت بدلال قائلة:

- سأكون لك للأبد، فأنا أميرتك العاشقة.

أقبلت «رَيْهُقانة» على «أسحم»، فغلبته بكلماتها النّاعمة وهو المتيّم، فأحاطها بطيفه ولفّها بكيانه الأثيري حتّى اختفت معالمها، وطار بها في سماء «مملكة البلاغة»، يُفتّش في كلّ مكان عن «حمزة» وهو كاره له ليتمكّن من مساومة «القنّاصين» إن أعادوا اصطياد حبيبته وساقوها لزعيم «المجاهيم» كما حدث من قبل، على أمل أن تفي بوعدها الّذي قطعته له، والّذي كان يرجوه بشدّة، وليبدأ البحث من أرض «الكَنَهْوَر». حدّثت «رَيْهُقانة» نفسها في تلك اللحظة قائلة:

بالتّامازيغت، وهنّ من العرب، ولكن عندما أقبلت السّيدة «تانيرت» وهي من الأمازيغ، وقرأت جملة من رسالتها العامرة بعبارات الحبّ، أدركت ما يعتمل ـ في صدر تلك الفتاة المسكينة، فهمست إليها:

- قلب من تُحبّينه بيد الله، اتركي الأوراق وارفعي كفّيك إلى السّماء وحدّثي ربّك كما تفعلين دومًا، وتضرّعي إليه ليسوقه إليك، أو ليُخرج هذا الحبّ من قلبك!

لو كُنت مكانك ما أرسلت تلك الرّسالة، إنّ الرّجال يزهدون ـ في المرأة الّتي تسعى إليهم بنفسها يا بُنيتي. ارتجفت أنامل «ماسيليا» فتركت ريشتها، كاد الحبر ينسكب على الطّاولة، هزّت رأسها بهوان، وطوت الرّسالة، وكانت تكتب له الكثير من الرّسائل وعندما تلقاه لا تُسلّمها له أبدًا، بل كانت تُلقي بها ـ في نار الموقد بالمطبخ لتُحرقها وكأنّها لم تكن!

خرجت من البيت وأخذت تتأمّل النّجوم ـ في السّماء، وراحت تُناجي ربّها حتّى عجز لسانها عن التّعبير، فواصلت مناجاتها بالدّموع، وكان بوح القلب أسرع وصولًا إلى السّماء، فأنزل الله السّكينة على فؤادها المتعب. أخبرها «سِيفاو» أن تجمع ثيابها لتستعدّ للانتقال إلى بيت «أبادول» لتقيم معهم حتّى يعود، فأذعنت لأمره دون أن تناقشه، فالتقى بها على الطّريق ليقوم بتوصيلها إلى بيت «أبادول»، حيث كانت تسير ـ في سكينة على غير عادتها!. فليرحل «سِيفاو»، وليكن ما يكون، لن تبكي أمامه، ولن تنهار، ربّما لم يكتبه الله لها، أو لتتماسك الآن أمامه، ولتؤجل انهيارها حتّى ينصرف، لا ينبغي أن يراها وهي تبكي هذه المرّة، فقد تعبت، واهترأ فؤادها، وهلكت جوارحها.

انصرف عنها «سِيفاو» وهو يتعجّب من صمتها المطبق، وكيف أنّها لم تنظر إليه كما كانت تنظر في كلّ مرّة يلقاها أو يتحدّث إليها، كانت عينُها ساجيةَ الطّرفِ ساكنتَهُ، افتقد هذه المرّة لمعانها عندما كانت تتعانق نظراتهما، وشعر بانقباضة في صدره وهو يستدير مغادرًا، التفت نحوها ثلاث مرّات، فوجدها ساكنة كتمثال من الزّجاج، تحدّق في الأرض أمامها، لم ترفع عينيها تجاهه حتّى وهو يبتعد، كاد يعود إليها ليسألها عن السبب، لكنّها استدارت، ومضت نحو بيت «أبادول»، واختفت خلف بابه فكان هذا بمثابة انغراز خنجر في قلبه! يا للعجب! لماذا يشعر بهذا الآن؟ وضع يده على صدره فقد كان قلبه يختلج، فهمس قائلًا:

- كوني بخير يا «ماسيليا»..أرجوكِ.

توزّعت العائلة على الطريق بين مخازن الغلال والحبوب، و«ديوان الرّئاسة» حيث يبدّل الحارسان اللذان يعرفهما «طارق» سابقًا مع زميليهما في دوريّة الحراسة، وكانا كما لاحظ وهو يراقبهما بـ«النّاظور» فوق الجبل لا يصبران حتّى يأتيهما البديلان، بل يسيران إليهما ليتعجلاهما، وكان هذا يتيح وقتًا كافيًا لتكون فيه الجهة الخلفية من أسوار المدينة عند مخازن الغِلال خالية لدقائق من أي حارس، مما يُتيح لـ«طارق»، و«خالد»، و«سِيفاو» فرصة لتسلّق السور بالحبال والقفز للجهة الأخرى.

كان «أبادول» أقربهم للدّيوان، يراه من بعيد، لكنّه يراقب وصول الحارسين المقصودين، ويبعُد عنه «أنس» بمسافة كافية ليراه وهو يعطيه الإشارة أنّهما وصلا، وفي ذات اللحظة كان «أنس» يقف في مكان واضح

تحت شعلة كبيرة ليراه أبوه «كمال» الّذي يقف بعيدًا بقدر كافٍ ليراه بوضوح ومعه حفيده «سليمان» وهو يحمل القطّة السّوداء، ويتحقق من إشارة «أنس» أنّ الحارسين وصلا لـ«الدّيوان»، وبين «كمال» وزوجته «دولت» نفس المسافة.

ترى زوجها وتنقل الإشارة في ثانية لزوجة ابنها «مرام» الّتي كانت ابنتها تلتصق بها، والّتي أشارت بدورها لـ«سارة»، الّتي أبلغت الشّباب مباشرة وكانت الأقرب إليهم، تعاونت الأُسرة بأكملها لكي يتمكّن الثّلاثة من الخروج من مدينة «كُويكُول»، وكانت «نور» في البيت مع «ماسيليا»، الّتي حملت ثيابها وانتقلت للإقامة معهم حتّى يعود «سِيفاو»، وكانت تبكي في نشيج مسموع. ألقى «طارق» بخطاطيفه بقوّة من فوق السّور، وكانت الحبال مربوطة بها، بدأ يتسلّق بسرعة بعد أن قام بتوجيه «خالد» و«سِيفاو» وإرشادهما لكيفية الصّعود عدّة مرّات، استغرق «خالد» وقتًا أطول منهما، لكنّهم نجحوا في النّهاية، كان «خالد» قد ربط كفّيه كما فعل «طارق» حتّى لا تجرح الحبال باطنهما، وكذلك فعل «سِيفاو»، هرولوا مبتعدين عن الأسوار قبل وصول الحارسين الجديدين، بدا الطريق مُوحشًا ومُظلمًا، سترهم الليل بجلبابه الأدهم الفضفاض، همس «طارق»:

- معي أحجار كريمة لو فركتها بيديّ ستضيء لنا، لكنني أرى ألّا نستخدمها الآن، ليس قبل أن نجد مكانًا لنبيت فيه حتّى يطلع الفجر.

سأله «سِيفاو» بفضول:

- أيّ أحجار؟

- سأُخبرك لاحقًا.

قال «خالد»:

- بدأت عيناي تعتادان الأمر، ضوء القمر يكفينا الآن.

- هل كان الغوص في قاع بحر «حِندس» أكثر ظلمة من أرض الكَنَهْوَر» يا «خالد»؟

- نعم، لكنني كُنت أرى بعيني «سِنِمّار»، وأشعر كما تشعر الحِيتان، أحدد المسافات حولي بأصوات أُصدرها.

سألهما «سِيفاو» مُتعجّبًا للمرّة الثّانية:

- ما الـ«حِندس»؟ ومن «سِنمّار»؟ وكيف يرى «خالد» بعيني حوت!

ضحك «طارق» و«خالد»، قال «طارق» وهو يُمسك بذراع «سِيفاو»:

- سأُخبرك بكلّ شيء ولكن لنُسرع الآن.

أكملوا سيرهم الّذي كان بمحاذاة الجبال، وعندما انتهت سلسلة الجبال، أخبرهما «خالد» أنّ من الأفضل أن ينتظروا حتّى طلوع الفجر ليتحقق من الجهة الّتي كانت فيها السّهول حيث ترعى الخيول المُجنّحة، قال «طارق»:

- سنسهر ليلتنا، ما رأيكما أن نتسلق هذا الجبل، ونجلس فوق تلك الصّخرة العريضة؟

- فلنفعل هذا.

صعدوا إلى مسافة قصيرة وكانت كافية لتكشف لهم المكان من أعلى، كان الليل يبسط رداءه على المكان فلم يتبينوا غير خيالات الأشجار، فانتقلوا بأعينهم للسّماء، كانت ليلة قمريّة رائعة، وكانت النّجوم تتلألأ

وكأنّها تلقي عليهم التّحيّة، مضى الوقت وهم يتسامرون، روى كلّ منهما قصّته كمحارب لـ«سيفاو» الّذي كان يُنصت إليهما بفضول وانبهار شديدين، وهو لا يُصدّق ما يسمعه!

أطرق «خالد» وترك زمام الحديث لـ«طارق»، كانت صورة أخيه لا تغيب عن مخيلته، كان يفتقد جلسته معه في مكان كهذا، أخذ يتساءل، تُرى أين هو الآن؟ عندما انتهى حديثهما عن المُحاربين، بدأ «سِيفاو» يتحدّث عن «ماسيليا»، فتبادل «طارق» و«خالد» النّظرات في تعجّب! كان يقول إنّه لا يُحبّها، فلماذا يتحدّث عنها كثيرًا بتلك الطّريقة! لماذا يُخبرهما عن طفولتها بالتّفصيل؟ ونشأتها في بيتهم، وكيف أنّها تعلّمت الكثير من أمّه الّتي كانت تحنو عليها، بدأ يصف لهما خصالها الطّيبة، وكيف أنّها من دَفَعته للتمسّك بارتداء زيّه الأمازيغيّ مثلها ورفضت تبديله كبقية سكّان المدينة، وكيف أنّها تحفظ الأشعار، حتّى أنّه أخبرهما عمّا تُحبّه وتكرهه من الطّعام!

كاد «طارق» يقاطعه ليسأله عن سبب حديثه المستمرّ عنها، لكنّ كتاب «كُويكُول» اهتزّ في حقيبته، فأخرجه واطلع على الجمل الجديدة الّتي نُقشت على صفحاته، وعقد حاجبيه في حيرة، وجلس يتأمّل وجه «سِيفاو» ويُنصت إلى حديثه في سكون.

لاحظت «نور» سكون «ماسيليا»، أين البكاء والدّموع؟ أين ذبولها كلّما أعرض عنها «سِيفاو»؟ سألتها بلطف وهي تقترب منها:

- لماذا لا تبكين هذه المرّة يا «ماسيليا»؟ البكاء سيُخفف عنك.

رنت إليها «ماسيليا» وقالت بصوت خفيض:

- جفّ معيني من البكاء عليه.

- ربّما هي السّكينة الّتي تتنزّل عندما يقع القضاء.

- نعم، هو الله يا «نور»!

- ونعم بالله.

ركنت «ماسيليا» إلى الصّمت بُرهة وقالت:

- أتعلمين؟ كنت أُساهر القمر كلّ ليلة وأناجيه، وأحدّثه عن حبّي، وأبوح له بما لا أجرؤ على البوح به لأحد، حتّى ملّني القمر، وضاق كلّ منا بالآخر، ولم أجد سندًا من البشر، حتّى «سيفاو» يتحدّث إليّ وهو ضَجِرٌ، أدركت أنني إلى نفسي أحوج منّي إلى النّاس، والقمر، والليل، والشّعر، و«سِيفاو» نفسه وكلّ شيء، فعدت إلى نفسي فوجدّتها تلوذ بالله!

قامت «ماسيليا» وأخذت تروح وتجيء أمامها في الغرفة وأردفت قائلة:

- غادرتني نفسي الّتي كُنت أعرفها بالأمس، كانت لحظة واحدة هي الفيصل، لم أعد أنا، أخرجت ما بجعبتي من أسرار وبعثرتها في السّماء، أخبرتُ الله بكلّ شيء، أنني وحيدة، وأنني أشعر بالخوف وبالضّعف، وأنني أُحبّ «سِيفاو» وأعشقه حدّ الصّبابة، وأنني أعلم أنّه لا يُحبّني، لكنني لا أعرف كيف أتخلّص من كلّ هذا، طلبت من الله أن يشفي جرح قلبي، ويجعلني قويّة لأتحمّل ما أنزله بي من قضاء.

تنهّدت «نور» بحُرقة وقالت:

- نحن متشابهتان يا «ماسيليا»، نتشارك اليُتم يا صديقتي. كان وجعي وما أمرّ به عصيّ الفهم على المقرّبين منّي، فكتمته كغصّة في حلقي، وتجرّعته حتّى يتوقفوا عن لومي وعتابي على البكاء، كان حزني ثقيلًا على الجميع، ملّوا من دموعي.

- حدّثي الله بأوجاعك يا «نور»، ليس أمامنا إلّا مناجاته، أخطأنا عندما رجونا العون من سواه، هرولنا نحو النّاس، وهم أضعف حالًا منّا، رحل «سِيفاو»، وحتّى أنتم سترحلون وتتركونني هنا، سأبقى وحيدة مع الأقدار.

اضطربت «نور»، وكانت تظنّ أنّها هي الّتي ستواسي «ماسيليا»، فقالت بصوت محزون:

- ماذا سأقول لله وأنا قد أخطأت، وقصّرت، كُنت دومًا ضعيفة، ولجأت إلى رفيقات السّوء، أشعر أنني..

أقبلت «ماسيليا» على «نور» وأمسكت بكتفيها وقالت:

- اطرحي أوجاعك ومخاوفك بين يدي الله، فوالله منذ أن ناجيته لكأنّ كل مخاوفي صارت أمنًا وسكينة، ولكأنّ أحزاني جمعت حقائبها وارتحلت، ولكأنّ وجع قلبي قد تفتت وتلاشى وذاب!

- أخبريني ماذا قلتِ في مناجاتك؟

توجّهت «ماسيليا» نحو النّافذة، ورفعت عينيها الدّامعتين إلى السّماء، ثُمّ أغمضتهما فانزلقت دمعة إلى زاوية فمها وهي تقول:

-يا من أنِسَتْ به أفئدةُ المُتعَبِين، وعليه عطفت حنايا المقهورين، اشتدّ ألمي، وزاد رهقي، ويئست من عون خلقك، واحتارت معارفي، حاجتي في

نفسي، وأنت تعرفها وتعلم خبيئتي، وثقتي في قدرتك دفعتني للدُّعاء، وأنا الضّعيفة وأملي فيك غير متناهٍ، ورجائي فيك غير مقطوع، فلبيك يا رحمن فلا ملجأ يؤويني سواك، ولا راحة إلّا في حماك، أخرج من قلبي ما لم تكتبه لي، وانزع الخوف من قلبي انتزاعًا، وأبدلني راحة وسكينة، رحماك.. رحماك.

بكت «ماسيليا»، لكنّ مذاق دموعها الآن يختلف! فالدّموع قبلُ كانت تجري ألمًا من الأقدار، وحزنًا لفراق حبيب، لكنّ دموع لذّة مناجاة الله والانكسار بين يديه لها حلاوة أخرى!

ارتقت نفس «ماسيليا» إلى حيث ترتقي أرواح القانتين المتبتلين، كانت تلك الفتاة لطيفة الحاشية، نفسها بريئة من أدران الرّذائل وأقذارها، وكان هذا جليًّا من أحاديثها الطاهرة البريئة، وكان حبّ «سِيفاو» هو ابتلاؤها، التفتت نحو «نور»، وقامت ابتسامتها المتماوجة مقام الكلام، فانفتح لها قلب «نور» عندما قالت لها:

- أخبرتني السيّدة «تانيرت» أن العلاقة بيننا وبين الله ليست محصورة في ساعة مناجاة مقسومة إلى خمس مرات وحسب، بل هي تواصل دائم مع الله، في الحركات، والسّكنات، وفي الإسرار، والإعلان.

- لكنني بعيدة، أنا غارقة في الظّلمة والعتمة.

- اسمك «نور» فاغتنمي منه!

- أشعر أنني كضوء الشمعة الّذي يتضاءل حتى ينطفئ.

- التمسي النور في دموعك فكل دمعة تخرج تحرر قلبك من أسر ذنب ما، لأنها دمعة طُهرٍ أمطرتها سحابة توبة صادقة.

- سامحيني لأنني أسأت الظنّ بك يا «ماسيليا».

- كيف؟

- ظننتك بعيدة عن الله لمجرّد معرفتي بحبّك لـ«سِيفاو»! حتّى أنني استنكرت همسك بالدّعاء ونحن نعمل بالمطبخ.

- الحبّ دومًا مرتبط بالخطيئة في أذهان النّاس، لم أكن لألطّخ الأمانة الّتي ائتمنني الله عليها.

- لماذا تعلّقتِ بساقيه؟ ألم تخشي من «بيادق الظّلام»؟

- الخوف من فقدانه وقتها كان أكبر من أيّ خوفٍ آخر، أمّا الآن فأنا أخشى ألّا أرى وجه الله! هذا أكبر مخاوفي، أشعر أنني سأموت قريبًا!

اقشعر بدن «نور»، وأجهشت بالبكاء، فاحتضنتها «ماسيليا»، ولم تتركها حتّى نزعت الهمّ عن جبينها. وقفتا متجاورتين قبالة النّافذة، وأخذت «ماسيليا» تُردد مناجاتها، و«نور» تكررها خلفها بصِوت تخنقه العبرات.

ثارت «رَيْهُقانة» عندما رأت بيت «أبادول» أمام عِينيها على أرض «الكَنَهْوَر»، صرخت صرخة ارتجّت لها الأجواء، كان «أَسْحَم» يحاول كبح جماحها وكيانها يمور من الغيظ، ثُمّ سألها في حيرة:

- ما الّذي أغضبك؟

- بيت «أبادول» هنا.

- ماذا؟ وكيف انتقل إلى هنا!

- كُنت قد ألقيته تجاه فجوة الموت لتلتهمه، لأقضي على العائلة بأكملها ويبقى لي «حمزة»، ولكنّ يا للعجبّ فالبيت هنا! وكيف فعلتِ هذا وحدك؟

- استخدمت تعاويذ كتاب «القَلْقَدِيس».

- وأين هذا الكتاب الآن؟

- تركته بجوار «حمزة» وعندما عُدت لم أجده، فبحثت عن «حمزة» ووجدته يسير مع شاب آخر أدركت أنّه مُحارب جديد لأنّه يراه ويسمعه، ربّما الكتاب معه.

حاولا دخول البيت، لكنّهما لم يتمكّنا، حتّى النّوافذ كانت معتمة، لا أثر لوجود البشر بالبيت!، قال «أَسْحَم»:

- ما هذا؟ هناك شيء يحجبني عن الدّخول!

- هذا ما كان يحدث معي هُناك في عالمهم.

- يبدو البيت ميّتًا كباقي بيوت أرض «الكَنَهَوَر»، لا بدّ أنّه تحوّل إلى مقبرة ككل الأماكن هنا.

- لعلّ «حمزة» هنا بداخله.

- هل تشعرين به؟

- لا، ما عُدتُ أشعر بحضوره، ولا بصوته أو أنفاسه.

- دعينا نُفتّش في باقي ربوع أرض «الكَنَهَوَر»، لعلّكِ تشعرين به وترينه.

- نعم، هيّا بنا.

ارتقى بها نحو السّماء وهو يحتويها في كيانه، لاحت من بعيد أضواء الشّعل المنتشرة في ربوع مدينة «كُوِيكُول»، فانطلق «أَسَحَم» تجاهها كقذيفة اللهب، هناك حياة هنا! هناك بشر، ومدينة بأكملها، وهناك خيول مُجنّحة بالقرب من أسوارها!

وهناك شُعل تتراقص أضواؤها بتلاعب الرّياح خلف تلك الأسوار المنيعة، حطّ «أَسَحَم» على أرض المدينة مع «رَيْهُقانة»، وقررا اقتحام كلّ البيوت للبحث عن «حمزة»، فهو الآن سبيلها الوحيد لمساومة «القنّاصين»، فرارًا من عقاب «المجاهيم».

من خلف الغيوم البيضاء كان ضوء الفجر يتسلل مداعبًا أركان مدينة «كُوِيكُول»، البعض يستيقظ مُبكّرًا ليُراقب كلّ شيء، والبعض يفضّل الانزواء تحت سقف بيته قدر استطاعته، فما عاد هُناك توقٌ للحياة بعيدًا عن الوطن. دلف «تميم» بقامته القصيرة وقوامه الهزيل للمطحنة وهمس لرفيقه «قتادة» قائلًا:

- خرج الوافدان الجديدان مع «سِيفاو» الخائن، قفزوا من فوق السّور خلال الليلة الماضية، دون أن يُلاحظ الحرّاس يا «قتادة»، الرّفاق يسألونك.. ماذا سنفعل الآن؟

- لم يخبرنا «سِيفاو»، يا له من ماكر! ألم نتفق أن نخرج سويًا؟

قال «قتادة» بتصميم:

- سنهرب مثلهم.

- ولكن «خالد» أخبرنا أننا في أرض «الكَنَهْوَر»، وتعلم أنّها أرض لا أثر للحياة فيها... أتظن عائلة «أولاد عيدون» هلكت بالخارج؟

- لا أثق بـ«خالد» ولا بعائلته، فهم غامضون، أرأيت كيف لكزه أبوه في كتفه فتوقّف عن الكلام.

- نعم رأيت.

حملق «قتادة» في الفراغ وقال بصوت يشبه الفحيح:

- الأحمق «سِيفاو» وثق بهم، أمّا أنا فلا، وراءهم سرٌّ غامض.

- كل من حولنا وراءهم أسرار، «بيادق الظّلام»، «المحققون»، وفصيل الجنود الّذين يحرسوننا وهم في الأصل من بيادق الظّلام، وعائلة «أبادول» الّتي وصلت حديثًا.

- نعم، ويومًا ما سنكشف النّقاب عن كلّ هذا.

- ما زال الشباب يتناوبون على حفر الأنفاق من داخل البيوت المجاورة تجاه الأسوار الخارجيّة.

هزّ «قتادة» رأسه وقال عابسًا:

- سيفشلون كالعادة، في كلّ مرّة يصلون إلى حد معين، ولا يتمكّنون من إكمال الحفر، وكأنّ صخور الأرض لا تقبل أن يخترقها أحد فرارًا من هُنا! لا بدّ من طريقة أُخرى.

- نحتاج لجيش كامل لكي نتمكّن من السيطرة على هؤلاء الجنود المدججين بالسّلاح والمنتشرين حول الأسوار، لقد تعبت، اشتقت لدياري وأهلي، وأمّي، وأبي، وأشقّائي، وطرقات قريتي، حتّى تلك اللحظات الحزينة الّتي مررت بها هناك، الفشل، الألم، الانهيار.. اشتقت إليه! أريد أن أعود لدياري.

- لا بدّ أن نصبر يا «تميم»، وكما ترى هناك جنود أغبياء، كهذين الحارسين الغبيين، فقد تمكّن الخائنون الثّلاثة من استغلال غيابهما للقفز من فوق السّور.

- فلنفعل مثلهم!

- أتذكر عندما تسللنا ونحن نجمع المحاصيل، وكيف أعادنا الحرّاس قبل أن يطلع الفجر، كانت الجبال مهيبة ومخيفة، «خالد» و«طارق» يعرفان عن تلك الجبال ما لا نعرفه. كان هروبنا معهما سيكون آمنا.

- لكننا الآن نعرف أنّها أرض «الكَنَهَوَر» كما أخبرنا «خالد»، ولا أثر للوحوش والذّئاب هناك، نستطيع الهروب مرّة أخرى.

- كيف وقد كثّفوا الحراسة كلّما خرجنا للزراعة؟

- سنتدبّر الأمر مع الرّفاق، ونراقب الحرّاس بدقّة.

ثُمّ أضاف «قتادة» محذّرًا:

- أين «ماسيليا»؟

- في بيت عائلة «أبادول».

- خائنة مثله.

انصرف «تميم» وترك «قتادة» وهو يدير المطحنة بذراعه مفتول العضلات، وجبينه العريض يتصبب عرقًا، وفي عينيه ينزوي إصرار كبير على مغادرة تلك المدينة، مهما كان الثّمن.

-٧-

«حنبش» و«حنبريت»

استيقظت «مرام» على صوت مواء القطّة، هناك شيء غريب يحدث بالمدينة، أسرع الجميع تجاه النّوافذ يراقبون ما يحدث، هناك جلبة شديدة، أسرع «أنس» يفتح الباب، كان هناك الكثير من القطط هنا وهناك، فوق البيوت، وأمام الأبواب، وفي الطّرقات، وأهل المدينة يتعجّبون! من أين أتت تلك القطط فجأة؟ همس «أبادول» وهو يقترب من «أنس»:

- قطّط «الماو»!

قال «كمال» وهو يحمل قطًّا منها:

- يشبهون قطّتنا تمامًا، نفس العلامات، لكنّ ألوانها مُختلفة.

همست «مرام»:

- أين «شَفق»؟

قال «أبادول»:

- نحن في أرضها، وهذا موطنها! وهم حولنا في كلّ مكان، وظهور قطط «الماو» يعني أنّهم هنا.

قالت «نور»:

- لا بدّ أنّ لـ«شَفق» دورًا في تبديل أسمائنا بأسماء عائلة «أولاد عيدون» المفقودة.

همست «سارة» وعيناها تتابعان القطط في قلق:

- فلنستعدّ، فمطلوب منّا أن نذهب إلى «الدّيوان» لنثبت تواجدنا هذه الليلة، وسيُكشف أمر «خالد»، و«طارق»، و«سِيفاو».

قرر أفراد الأُسرة الخروج للعمل، واتفقوا جميعًا على قول واحد إن سُئلوا عن «خالد» و«طارق»، ستكون الإجابة باختصار:

- «خرجا للسّوق مع رفاقهما ولم نرهما».

أمّا «ماسيليا» فقد اعتادت الأمر، فـ«سِيفاو» له مغامرات عديدة مع المشرفين لكثرة محاولاته للهرب، وتوقفوا عن سؤالها عنه، لكنّ تزامُنَ اختفائه مع الشّابين هو ما سيثير قلق الحرّاس.

توجّه السيّد «كمال» إلى المخبز ومعه «سُليمان»، كان الحُزن يبدو على وجه الصّغير، فهو يفتقد أبويه «يُوسف» و«حبيبة» بشدّة. التقى على الطّريق بـ«أمنوكال»، و«ميسرة»، سار معهما نحو المخبز، توجّه الغلامان للعمل، فنصحه جدّه «كمال» بمشاركتهما في العمل لعلّه يكتسب خبرة جديدة، فأسرع خلف «ميسرة» ليغسل يديه معه، اعترض طريقه قزمان، ابتسم أحدهما وهو يقترب منه، ثُمّ بسط كفّه ومدّها نحوه، كان يحمل ثلاث كرات صغيرة تبرق كاللجين، تعجّب «سليمان» وسأله:

- ما هذا؟!

- كما ترى، كُرات فضّية لتلعب بها.

قذف القَزَمُ بكرة منها في الهواء فأضاءت كما وأنّها جمرة من نار، ثُمّ التقطها بكفّه مرّة أخرى فانطفأت، أمسك القزم بكفّ «سليمان» ودسّ فيها الكُرات، كانت دافئة، قبض عليها «سُليمان» بقوّة! وانصرف القَزَم

مُسرعًا خلف رفيقه، انتهى «مَيسرة» من غسل يديه ووقف يحدّق نحوه في فضول وسأله:

- مع من كُنت تتحدث الآن؟

- هذان الـ..

أشار في الجهة الّتي هرول نحوها القزمان، لكنّهما كانا قد اختفيا، رأى «مَيسرة» الكرات في يده فقال بازدراء:

- كرات صدئة! ألقها يا «سُليمان».

كانت الكرات تبرق كاللجين! لم تكن صدئة أبدًا! دسّها «سُليمان» في جيب قميصه، وهرول ليغسل يديه وانضم لرفيقيه وبدأ العمل بالمخبز.

كانت نساء العائلة في طريقهن إلى المطبخ، أمّا «أنس» فقد كان القلق يقتات عليه وهو يسير بجوار «أبادول» متوجهين نحو السّوق ليبحثا عن الطبيب «الحارث»، فـ«أبادول» يشعر بالهوان الشديد والضّعف، ولا بدّ أنّ هناك دواءً مناسبًا ليقويه. دلفا إلى السّوق، وكان «أبادول» يمسك بذراع «أنس» وهو يسير بتؤدة، مرّا بحانوت للنجارة، كانت برادة الخشب تغطّي الأرض، وهناك قزمان يعملان بنشاط، كانا نفس القزمين الّذين تحدّثا لـ«سليمان» للتوّ، «حنبش»، و«حنبريت»، وهما من قرية بعيدة تقع خلف غابة «الأطياف السّوداء»، تلك الغابة الّتي يهرب النّاس من أمامها، هكذا أخبرا «أنس» و«أبادول» وهما يعرضان عليهما عصا خشبية منحوتة بشكل بديع، فقد لاحظا أنّ «أبادول» يحتاجها ليتوكّأ عليها، قال لهما «أنس» وهو يردّها إليهما بلياقة وامتنان:

- لم نتسلّم المال من المشرفين بعد، فنحن من الوافدين الجُدد، أخبرونا أنّهم سيمدّوننا بمبلغ بسيط لنبدأ تجارتنا وأعمالنا هنا، عندما يتوفّر لدينا المال سأعود إليكما وأبتاعها منكما.

قال «حنبش» وهو يبتسم:

- فلتكن هديّة منّا.

- لا..لا.

قال «حنبش»:

- أرجوك يا سيّدي اقبلها.

ثُمّ أقبل عليه وأضاف هامسًا:

- فلتكن هديّة من صديق لمُحارب!

ثُمّ غمز بعينه اليُمنى، تلاقت نظراتهما لوهلة، هزّ القزم رأسه ليُشجّعه على قبولها، فتناولها «أنس» منه مذهولًا، وأعطاها لـ«أبادول»، الّذي أمسكها والتفت مع حفيده ليسألا القزمين كيف علما بكونهما من المُحاربين، ولكن! فوجئ كلاهما باختفاء حانوت «حنبش» و«حنبريت» فجأة، لا أثر لهما، ولا وجود للحانوت، باب مُغلق فقط، وأمامه الكثير من القمامة تشي بأنّه لم يُفتح منذ زمن طويل. تبادل «أنس» النّظرات مع «أبادول»، وعادا لسيرهما، كان «أبادول» يقبض على العصا ويتأمّلها وهو يسير، قال «أنس»:

- من أرسل هذين بالعصا؟

- لا أدري يا «أنس»، تلك المملكة ستظلّ غامضة للأبد.

- ظننتك تعرف كلّ شيء هنا يا جدّي.

- أعرف الكثير، لكن كلّ ما أعرفه لا يساوي قطرة ماء من محيط.

أخذ «أبادول» يحرّك العصا، تارة يرفعها لأعلى، وتارة يهزّها، وتارة يطرق بها الأرض، ثُمّ قال بعد أن يئس منها:

- ستظهر ميزتها في الوقت المُناسب.

تذكّر «أنس» العجوز«ناردين»، مرّ على شفتيه شبح ابتسامة، ولاحت صورة وجهها في ذاكرته وهو يسير بجوار جدّه.

كان «حمزة» يتنقّل من بقعة لأخرى بالسّوق باحثًا عن شيء يأكله، فهو يحاول لمس الأشياء لكنّه لا يستطيع، والعجيب أنّه تمكّن من لمس الماء فقط بيده، لكنّه لا يستطيع لمس الأكواب والأقداح! لهذا كان يشرب من النّوافير الفوّارة المنتشرة في كل مكان، وكان هذا من جملة العذاب الّذي يعانيه. وقف أمام حانوت للعطارة، لم يُدرك أنّ رائحة التّوابل بتلك الرّوعة إلّا اليوم!

حاول أن يلمس شيئًا لكنّه لم يتمكّن، تناهى إلى سمعه صوت عطاس «أبادول»، وصوت أبيه وهو يشمّته، فانتفض وركض نحوهما وبدأ ينادي عليهما، لم يسمعاه، لم يرياه، ولم يشعرا به، لكنّهما هنا، هنا معه، وقد أفاق جدّه من غيبوبته، وها هو يسير على قدميه! ودّ لو احتضن أباه، لكنّه لم يستطع، نسي الجوع والعطش وسار خلفهما، ووصل معهما إلى الطبيب، ووقف يُنصت للحوار الّذي دار بينهما وبينه، قال «أنس» بعد أن تبادل التّحية مع الطبيب:

- جدّي يعاني من إرهاق شديد ودوار و...

قاطعه الطبيب «الحارث» قائلًا:

- دعني أسمع منه، واسمح لي بفحصه للتحقق من دائه.

تراجع «أنس» وترك «الحارث» يفحص «أبادول» بطريقته، بينما كان «حمزة» يلتصق بوالده، حاول أن يلمسه، أن يهمس في أذنه، لكنّه لم يره ولم يسمعه. سرت الطّمأنينة في أوصاله، فهو بالقرب من أبيه، على الأقل هو يراه، تُرى هل «خالد» أيضًا هنا؟ أخذ يتساءل في نفسه، انتهى الطبيب من الفحص، وأمدّ «أبادول» بشراب ليتناوله مرّتين باليوم، وأمدّه بمسحوق آخر ليضيف ملعقة منه على العسل أو الماء، ويتجرّعه مع الدّواء. انصرفا وسار «حمزة» خلفهما، سمع أباه وهو يقول:

- نسينا إحضار الأدوية من البيت.

- لا عليك، فهذا الطبيب من العراق، درس في «البيمارستان»، تتلمذ على يد الطبيب البارع «عطيّة الله»، الّذي التقى به «حمزة» هنا على أرض المملكة، أخبرني بهذا بكلّ فخر...ولكن!

- ولكن ماذا يا جدّي؟

- أشعر أنّه يختلف عن أهل المدينة، ليس مُستبعدًا، بل أتى هنا بعد ترتيب، فحديثي القصير معه كشف لي -دون قصد منه- أنّه لم يأت عنوة، بل أعدّ العُدّة قبل مجيئه، فمعه كتبه، ومخطوطاته، وأدواته وأدويته!

- ربّما أحضر له «بيادق الظَلام» كلّ شيء.

- ربّما! ولكن هو فقط من بين كلّ المستبعدين؟

- معك حقّ، فلنعد الآن إلى البيت يا جدّي، عليك أن ترتاح قليلًا.

- لا بدّ أن نستعيد أدواتنا من «بيادق الظّلام»، لعلّها تسترد ميزاتها، وقد نستطيع الانتقال بها إلى قصر «الحوراء» أو «المكتبة العظمى» باستخدام الخنجر، ونطلب مساعدتهم لإنقاذ «حمزة»

- يبدو أنّ هذا مستحيل يا جدّي، فنحن في أرض «الكَنَهْوَر».

- أعرف يا «أنس»، أعرف، فنحن معزولون عن كلّ شيء بالمملكة، فقط دعني أتحدث إليك بصوت مسموع وأخرج ما بصدري، فرأسي سينفجر.

- وأنا كذلك يا جدّي، رأسي يضجّ بالأفكار السّوداء، كلّما فكّرت في ولدي «حمزة» أشعر بقلبي ينسحق، «رَيْهُقانة» ألقت ببيتنا تجاه فجوة الموت، لتتخلّص من كلّ ذويه ومحبّيه، وتنفرد به، ولعلّها أخبرته بهذا وهو الآن يشعر باليأس، والقهر، والانهزام، ويظن أننا هلكنا.

- سينقذه الله وينقذنا كما يفعل دائمًا يا «أنس».

- ونعم بالله. أرجو أن ينجح «خالد» و«طارق»، و«سِيفاو» في عبور جبال «الخرافة».

قال «أبادول»:

- لو تمكّنوا من ترويض «بنات الرّيح» سيعبرون الحاجز.

- بالتّأكيد، يبدو أنّ تلك الفصيلة المُجنّحة من «بنات الرّيح» هي فقط المخوّلة بعبور حاجز «الكَنَهْوَر».

- حمدًا لله أنّ «طارقًا» رأى «حمزة»، لو لم يره ويُخبرنا بما حدث له

من «رَيْهُقانة» لكنّا الآن حائرين، لذلك أنا مُطمئنّ بشدّة، أشعر بمعيّة الله لنا فلطفه يحوطنا، ما رأيك أن نمرّ على المخبز؟

- هيّا بنا، فأنا قلق على ابن أختك، بدأ الصّغير يفتقد والديه.

كان «حمزة» يُتابع حديثهما وهو يحترق، تحدّث كثيرًا حتّى بُحّ صوته، لم يسمعاه، ولم يشعرا به، أدرك الآن أنهم يعلمون بما حدث له، وأنّهم التقوا بـ«طارق»، كما أدرك أنّ جدّه «كمال» و«سليمان» هنا، وكذلك «خالد»، بدأ بصيص من الأمل يتسرّب إلى نفسه، وسار خلفهما نحو المخبز.

كانت «رَيْهُقانة» تدور في «كُويكُول» من بيت لبيت، ومن ركن لآخر باحثة عن «حمزة»، لم تره رغم وجوده بالمدينة، ولم تشعر به، وكان اختفاؤه غريبًا ومُحيّرًا لها. لكنّها رأت «أبادول» وقد أفاق من غيبوبته وهو الآن يمشي على الأرض مع حفيده «أنس»، كانت تميز من الغيظ وهي تقول لـ«أسحم»:

- ها هو اللئيم «أبادول»، لقد أفاق من غيبوبته، وخرج من بيته.

تَبعتهُما مع «أَسْحم» فرأت «كمال»، وتبعت الثلاثة وهم يتوجهون نحو بيتهم بمدينة «كُويكُول»، رأت نساء العائلة وهم يدلفون خلفهم عائدين من المطبخ، ورأت «نور» بينهم، فقالت بحنق شديد:

- يبدو أنّ أفراد العائلة كلّهم هنا، ومعهم البائسة «نور»، ليتني قتلتها مع «حسّان» أمام بيت «أبادول».

سألها «أَسْحَم»:

- و«حمزة»؟

- غير موجود، ولا أرى «خالدًا» أيضًا.

حاولا دخول هذا البيت أيضًا، لكنّ هناك ما حجبهما!

كانت ثائرة كالبركان، صرخت صرخة فارتجّت مصارع النّوافذ بجدران البيوت، تعجّب أهل المدينة! حتّى عائلة «أبادول» شعرت باهتزاز الجدران، واضطَربَ كلّ من بالبيت، أغلق «أنس» باب البيت بإحكام، وتوجّهت «مرام» نحو النّافذة وأغلقتها، حمل «أَسْحَم» «رَيْهُقانة» عنوة وعاد بها إلى مملكته حتّى تهدأ، ليعودا للبحث عن «حمزة» في وقت آخر، هدرت وهو يطير بها:

- سأقتل تلك العائلة كلّها، فردًا فردًا.

تحت سقف البيت، حيث كان «حمزة» بينهم وهم لا يرونه، وهو يتكوّر بجوار أُمّه، تحلقت العائلة حول الطعام، والمكان يعبق برائحة الخبز الطّازج، وكان «حمزة» لا يستطيع لمس الطّعام، الماء فقط هو الّذي يستطيع الوصول إليه ويشربه دون لمس الأقداح، وما زال هذا أمرًا غريبًا عليه، كانت بطنه تُقرقر من الجوع، حاول لمس اللحم، والأرز المسلوق فلم يتمكّن. حاول لمس الفاكهة فلم يتمكّن، تذكّر كيف تناول التّمرة من يد «طارق» وأكلها! كان يستطيع لمس الطّعام، فماذا حدث؟ تمنّى لو كان «طارق» معه الآن. أخذ يُكرر المحاولة، فاستطاع الإمساك بالخبز الطازج! لماذا استطاع لمسه بالذّات! التهم رغيفًا خلف الآخر بنهم شديد، وكانت سلّة الخبز بجوار جدّه «كمال»، الّذي لاحظ نُقصان الأرغفة فقال:

- ذاك الخبّاز غريب! كيف يفعل هذا؟

سأله «أنس»:

- وماذا فعل؟

- كان يعطيني الخبز وكأنّه يقتطعه من جلده، لقد أنقص عدد الأرغفة!

- لا عليك يا أبي، لقد شبعنا جميعًا والحمد لله.

- لقد خبزته بيدي!

جلس «حمزة» يراقبهم في حيرة، ربّما استطاع لمس الخبز لأنّ جدّه «كمال» أعدّه بيديه، وهو من أهله، هربت دمعة من عين «مرام»، لم تقرب الطّعام منذ جلوسها، كانت تُفكّر في ابنيها، ذاك الأسير المقهور«حمزة»، و«خالد» المسكين الّذي خرج للبحث عنه، ابتلعت لقمة بصعوبة، وتركت الطّعام وتوجّهت نحو النّافذة وأعادت فتحها وزفرت زفرة كادت تخترق حجاب قلبها، ثُمّ أجهشت بالبكاء، كان «حمزة» يقف خلف كتفها، لكنّها لا تراه. همس وهو يرى دموعها تسيل على وجنتيها:

- آسف يا أُمّي عن كل تلك المرّات الّتي انفطر قلبك فيها عليّ، آسف على كل لحظة أحزنتك فيها دون قصد منّي، آسف لأنني لم أُدرك أنّك تُحبينني ذاك الحدّ.

اقترب «أنس» من زوجته واحتضن كتفها قائلًا:

- حفظهما الله من قبل، وكانا وحدهما، فما ظنّك بربّك؟

- ونعم بالله. أحيانًا أشعر أنّ «حمزة» معنا بالغرفة.

سألها «أنس» بتلهّف:

- كيف؟ أخبريني هل شعرتِ بشيء غريب؟ ربّما أنت على حقّ!

تاهت نظراتها وهي تقول:

- وكأنني أشُمّ رائحته! لا أدري، قلبي يُحدّثني أنّه هنا.

أخذ «أنس» يتلفّت في حيرة، دمعت عيناه وهو يقول:

- ربّما، على العموم.. إن كنّا لا نراه فالله يراه، وسيحفظه ويثبّته.

ثُمّ أضاف:

- لعلّ «خالد» ينجح في الوصول إليه قبلنا.

ظلّ «حمزة» واقفًا بجوارها، وقلبه يتمزّق، كان يتساءل، لماذا لا يشعر بحرارة يد أمّه وأبيه كما كان يشعر بحرارة يد «حنطريرة»! جلست السيّدة «دولت» تسأل «ماسيليا» عن الأمازيغ، وبدأت تحكي لها عن عائلة «أبادول» وقصص المحاربين من العائلة، وبدأت «سارة» تجمع الصّحون لغسلها، فاقتربت «نور» منها لتعاونها وتوجّهتا نحو المطبخ فهمست لها:

- أشعر بالحرج الشّديد، كلما التقت عيناي بعينيّ السيّد «أنس» والسيّدة «مرام» أودّ لو انشقّت الأرض وابتلعتني.

- لماذا يا «نور»؟

- لا بدّ أنّكم جميعًا ترونني فتاة غير مهذّبة، فما فعلته مع «حمزة» كان جرأة وسوء خُلق منّي، كما أنّ الثّياب الّتي كُنت أرتديها كانت غير محتشمة وسيئة للغاية.

رمشت «سارة» بعينيها وقالت:

- كانت «رَيْهُقانة» من تتحكم بك، الآن نعرف كلّ شيء!

سألتها بحرج:

-ماذا كان «حمزة» يقول عنّي؟

- كان يقول دومًا: «هناك فتاة تتبعني باستمرار ولا أدري لماذا!» وكانت جدّتي تضحك، وكنّا نمزح معه، كان «خالد» يشاكسه باستمرار، ويسير خلفه ويُصفّر ويصفّق، وخاصّة عندما كان يعتني بمظهره ويُصفف شعره قبل الخروج من البيت، كُنّا نعرف أنّه لا يقصد التّأنّق لغرض ما، فتلك عادته، لكننا كُنا نمزح معه.

احمرّت وجنتا «نور»، وقالت على استحياء:

- كم هذا مُخجل!

ثُمّ قالت بتلعثم:

- لم أكن أنا الّتي...

قاطعتها «سارة» قائلة:

- أعرف يا «نور»، ولا داعي للشّرح، ما وصلنا إليه الآن بسبب «رَيْهُقانة» لا يحتاج لتفصيل منك.

صمتت «سارة» هُنيهة وسألتها:

- هل كنتِ تشعرين بها؟ أقصد «رَيْهُقانة»؟

- نعم، كلّ ليلة، هبوط الظّلام كان يعني الجحيم بالنّسبة لي، كانت تُحدّثني، وكأنّها في رأسي، وكان لهذا وقع مهيب على نفسي وخاصّة أنني لم أرها بعينيّ، رأيتها فقط في بيت «حسّان» عندما قتلت رفيقاتها.. ظننت أنني فقدتُ عقلي.

- هل هي جميلة؟

- نعم.. جميلة وناعمة، لكنّ نظراتها خبيثة.

قلبت «سارة» شفتيها وقالت:

- «ماذريون» يا له من اسم قميء! حتّى «رَيْهُقانة» ثقيل على اللسان، كان الله في عون «حمزة».

- أسأل الله أن يحفظه من شرّها، يبدو أنّه شابٌ طيّب.

- «حمزة» شاب طيّب، وكذلك «خالد»، كلاهما يملك شفافية ونقاء خالي «أنس».

- هل هما متشابهان في كلّ شيء؟ أقصد الطّباع، فالشّكل واضح جدًا، وكأنّ أحدهما يطالع نفسه في المرآة.

- «خالد» أكثر ثقافة فهو كثير القراءة، كما أنّه اجتماعيّ ويُحسن التعبير عن نفسه والتواصل مع النّاس، أمّا «حمزة» فيتجنّب الاختلاط بالآخرين، ويؤثر الصّمت، خوف خالي الشّديد عليهما في الصّغر أثّر عليه كثيرًا، ولكنّه ذو قلب أبيض كسحاب «الكَنَهْوَر» الّذي رأيناه هنا، وهو شديد التّعلّق بأمّه، وبعد رحلته الأخيرة تغيّر كثيرًا.

- كيف تغيّر؟

- صار أكثر هدوءًا من ذي قبل، فقد كان سريع الغضب يثور كالبركان فجأة، وكان يصدّ خالي ويبتعد عنه، لكنه وبعد عودته صار يتبعه كظلّه، وهذا أسعد خالي «أنس» جدًا، كما أنّه أصبح أكثر رجولة وتحملًا للمسئولية، كسر طوق الخوف الّذي كان يحيط به.. أتدرين ما أقصده؟

- نعم، أعرف أطواق الخوف جيدًا.

شردت «نور»، وتذكّرت كلّ أطواق الخوف الّتي علقت بها منذ وفاة والديها، لاحظت «سارة» شرودها، وفطنت لما تفكّر فيه، فأرادت أن تُخرجها من شرودها فسألتها بفضول:

- ترى لو حصلنا على كتاب «القَلْقَديس» هل نستطيع فعل شيء ما لُمساعدة «حمزة»؟

- ربّما.

- ما السرّ في هذا الكّتاب؟ هل اطلعتِ على ما فيه؟

- هو كتاب للسّحر الأسود، رأيت فيه حروفًا غريبة، ورسومًا لم أفهمها، هناك صفحات عليها آثار دماء، كُنت أشعر أنّ رائحة العرق تفوح منه، وكأنّه كائن حيّ يتنفّس، كما رأيت طلاسمَ كانت ترددها «ريْهُقانة» على لساني بعدد معين وكيفيّة معيّنة.

- هل كانت «رَيْهُقانة» تلازمك طوال الوقت؟

- بالليل فقط، لهذا كنت أكره الليل، منحها «حسّان» جمجمة غريبة كانت تسكنها نهارًا، حاولت تحطيمها فشُلَّتْ يدي لساعة كاملة ولم أتمكّن من تحريكها، في كلّ ليلة كُنت أشعر أنني أُحْبَسُ في زاوية بصدري، روحي تُخنق وكأنّ تلك المأفونة تجثم على أنفاسي، ثُم أجدها تتحدّث من حنجرتي وبصوتي! وتنظر للآخرين بعدوانيّة وجرأة، كنت أرى الخوف في أعين من أتحدّث إليهم، رأيت الكُره في أعينهم.

أخفت «نور» وجهها بيديها في انزعاج، أدركت «سارة» أنّها تتألّم من اجترار تلك اللحظات، قالت لها مازحة لتبعد عنها تلك الذّكريات:

- كان «حمزة» يُلقبّك بـ«فتاة النّينجا»، فقد لاحظ أنّك ترتدين الأسود باستمرار.

ضحكت «نور»، ولمعت عيناها، وشعرت بالخجل، ثُمّ سألتها بفضول:

- هل قال «حمزة» عنّي شيئًا آخر؟

- ظنّك بكماء، فأنتِ لا تتحدّثين إليه! وقال إنّك تخافين من القطط، فقد فقدت وعيك بالمستشفى عندما ركضت نحوك «الماو»، لم نعرف وقتها أنّها «الماو» ولم نعرف عن «رَيْهُقانة»، الآن اتضح كلّ شيء.

- كان لساني ينعقد أمامه، في كلّ مرّة كُنت أحاول إخباره أنّ هناك شيئًا يُجبرني على تتبع أثره ومراقبته، وأنني لا أعرفه، وأنني.. خائفة!

- لا عليك حبيبتي، لقد انصرفت تلك العفريتة عنك.

التفتت «نور» نحوها وقالت بحبور:

- شكرًا لأنّك لطيفة معي يا «سارة».

ابتسمت «سارة» وقالت لها:

- عندما نعود لديارنا لا بدّ أن نكون أصدقاء.

وقفت «نور» ساكنة، كلمة العودة إلى الدّيار أخافتها! كانت تجترّ تلك اللحظات الأليمة عندما قسا عليها عمّها، تذكّرت كلماته، وصوته وهو يوبّخها بقسوة، قالت بخفوت:

- أتساءل دومًا، ماذا لو كنت مكان أخي، ومتّ أنا وبقي هو على قيد الحياة، هل كان سيتحمّل قسوة هذا العالم؟

قالت «سارة» بثقة:

- كان سيتحمّل، فالأيّام تدور، ويومًا ما ستلتقين بمن يحبك وستتزوجين وتنجبين الكثير من الأبناء يا «نور».

- لا أُريد من هذه الدّنيا سوى الإحساس بالأمان، الأمان يا «سارة»، لقد علِق شيء بصدري منذ لحظة وفاة والديّ وأخي، وكأنني أرتدي قميصًا من الخوف، هناك وجع يسكن قلبي.

- حدّثيني عن يوم وفاتهما، ويوم وفاة أخيك، أخرجي ما بصدرك يا «نور»، يقولون إنّ البوح يُخفف كثيرًا.. تحدّثي.

بدأت «نور» تروي لها ما حدث بالتّفصيل، سالت الدّموع من عينيها البريئتين، كان «حمزة» يقف أمامها مباشرة، لقد سمع حوارهما ورأى عينيها الحزينتين، شهد بكاءها على والديها، وكانت تلك المرّة الأولى الّتي يستمع فيها لقصّة «نور»، تعرّف على وجهها لأوّل مرّة عن قُرب، انصرفت الفتاتان لغرفتهما وأغلقتا الباب، وانزوى «حمزة» في ركن صالة البيت، يفكّر في حالها وحاله، وكيف كانت تتعذّب بسببه، فـ«رَيْهُقانة» كانت تستغلّها، الآن يشعر أنّه مسئول عنها!

كم يودّ لو يُخفف عنها هذا الحزن والألم، وكذلك عن أمّه، فبسببه قد عانتا كثيرًا، وما زالتا للأسف! ولكن.. حتّى متى سيظل خفيًا، ومنبوذًا، وحيدًا؟ أو ربّما هو مات وتلك روحه تتجوّل بين أحبّته، لوهلة صدّق هذا الأمر، فشعر برجفة خوف تشق صدره، مضى الوقت و«حمزة» يراقبهم،

كان يتبع والده باستمرار، ودّ لو قرأ ما يُفكّر به، وودّ لو تواصل معه بأيّ طريقة. وعندما خرج من البيت لاستكشاف ما يحدث بالمدينة خرج خلفه.

كان «خالد» يقف حائرًا وهو ينقّل بصره يمينًا ويسارًا، وكان هذا بعد أن هبط من فوق الجبل هو ورفيقاه مبتعدين عنه لمسافة قصيرة، قال بصوت يشوبه القلق:

- الأرض مختلفة تمامًا، لا أثر لتلك السهول الخضراء الّتي كانت ترعى بها الخيول المجنّحة، ولا القلاع والقصور الّتي مررنا بها، ولا القرية الخاوية على عروشها، وكأننا في عالم آخر!

أخرج «طارق» «النّاظور» من حقيبته وبدأ يتفحّص المنطقة حولهم وهو يقول:

- عندما اختفى «حمزة» مع «رَيْهُقانة» كُنت أخبره بنفس الكلمات، كُنت أشعر وكأنّها أرض أخرى!

قال «سِيفاو»:

- لم أبتعد بهذا القدر من قبل، في كلّ مرّة كنت أهرب فيها كان الحُرّاس يلقون القبض عليَّ على مقربة من أسوار المدينة.

قال «خالد»:

- أخبرتنا «شَفق» أنّ أرض «الكَنَهْوَر» ليس لها خريطة، وأنّها تتغيّر طوال الوقت، وقد تختفي بقعة منها وتظهر أخرى مكانها.

التفت «طارق» قائلًا:

- عجيب أنّها لم تظهر حتّى الآن! كان ينبغي لها مساعدتكم أثناء أسركم، لا بدّ أنّها ترى كلّ شيء وهي معلّقة في الهواء.

- هناك بقاع محجوبة عن أعين عشيرتها، وهناك أماكن هنا ليس لهم سُلطان عليها، ولا يقربونها بأمر من أبيها «سرمد».

- وهل تُصدّق الجنّ يا «خالد»؟

- «أبادول» يثق بهم، أنت لا تعرف جدّي يا «طارق».

عقد «طارق» ذراعيه وسأله:

- خذ قرارك الآن.

- أيّ قرار؟

- هل سنعود لـ«كُويكُول» قبل أن تتغيّر الخريطة ونفقد الطريق إليها؟ أم نواصل المسير؟

صاح «سِيفاو» بتصميم:

- من المستحيل أن نعود! سأكمل الطريق مهما كان الثّمن.

طرق «خالد» برفق على صدر «طارق» وسأله:

- وما رأيك أنت؟

- نكمل رحلتنا، أليس هذا دور المحاربين؟

لمعت عينا «خالد» وهو يجيبه بنظرة تعني الكثير، أطرق هنيهة ثُمّ قال:

- لو وصلنا لـ«بنات الرّيح» سنحلّق فوق أرض «الكَنَهْوَر» وسنصل إلى «كُوِيكُول» مجددًا بإذن الله.

- حسنًا.. سنكمل المسير، ليس أمامنا إلّا هذا.

أكملوا الطريق، ما زال السّكون يعمّ المكان، قصور مهيبة، بناؤها مذهل، النّقوش على جدرانها تخطف الألباب، لكنّ خلوّها من البشر ألقى عليها ثوب الحداد، وباتت كأرملة حزينة على ملامحها بقايا جمال مُهمل، قلاع جبّارة أبراجها العالية تداعب السّحاب، لاح لهم من خلف أسوارها المقاصل وحبال المشانق المتدلية، تعجّبوا من خلو كلّ تلك الأماكن من الهياكل العظميّة وبقايا البشر، ألم يكونوا هنا من قبل، فلماذا لم يتركوا أثرًا منهم؟ أو جمجمة، أو عظمة تدلّ على الأنفس الّتي كانت تسكنها!

تعبوا من السّير، كانوا قد اقتربوا من بُحيرة ماؤها يبرق كاللجين تحت ضوء الشّمس، ولاحت لهم مجموعة من البيوت المتجاورة أقيمت حول تلك البحيرة، قرروا أن يقفوا هناك للاستراحة، وحثّوا السير إليها، ولكنّهم وكلّما اقتربوا شعروا بانخفاض درجة الحرارة حولهم، حتّى الشّمس توارت خلف الغيوم البيضاء، فوجئوا بالسّماء تمطر ندفًا من الثّلج، وكأنّهم وصلوا القُطب الشّمالي للتوّ، اشتد البرد، كانت البيوت خاوية كالعادة، لكنّ أبوابها المصنوعة من جلد الحيوانات الثّقيل كانت مُغلقة بإحكام، قاموا بفتح باب منها بصعوبة ودلفوا، فعثروا على بعض الملابس والمعاطف والأحذية المصنوعة من الجلد، وقبّعات من الفراء، وأسلحة للصيد!

دلفوا بيتًا آخر، وقاموا بفتح أبواب العديد من البيوت، لكنّها كانت خاوية. القوارب كانت مصفوفة في ماء البُحيرة وكأنّها توابيت مفتوحة. همس خالد قائلًا:

- حتّى البحيرة ميّتة، لا أثر للأسماك فيها.

قال «طارق» وهو يتوجّه نحو البيت الّذي عثروا فيه على الملابس:

- فلنرتدِ ما يُدفّئنا، فأمعائي ترتجف من شدّة البرد.

تبعه «خالد» ومعه «سِيفاو»، وقاموا بإشعال نار لتُدفّئهم، وجلسوا بجوارها وقتًا قصيرًا قرروا بعده الخروج من تلك القرية في الحال، فالبرد شديد، وهم لا يحتملونه، ولا بدّ من الإسراع قبل هبوط الظّلام. حمل «خالد» بعض الخناجر الّتي عثر عليها، كان هناك رمح قصير ومتين قد لفت نظر «سِيفاو»، فتناوله، وكان هناك سيف غريب الشّكل، له مقبض ملتو، أمسكه «خالد» وحاول قراءة الكلمة المنقوشة عليه، لكنّه لم يفهم كنهها، ظنّها من الأمازيغية فسأل «طارق» و«سيفاو»، فأخبراه أنّ المكتوب هو اسم لمُحارب أمازيغي عظيم هو «ماطوس»[1]، وأخبراه عنه الكثير.

قال له «سِيفاو» وهو يُقلّب السّيف بين يديه:

- هذا السّيف ذو حدّين، تعامل معه بحذر، حتّى لا يجرح من لا يستحقّ، من الأفضل إبقاؤه في غمده.

---

(١)«ماطوس» مُحارب أمازيغيّ وقائد عسكريّ أظهر شجاعة كبيرة في المعارك والحروب التي خاضتها قرطاجة ضد التوسع اليوناني في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، وضد الهجمات التي شنها الرومان لتطويق صقلية وسردينيا ثم تونس. وتزعم ثورة أمازيغية طبقية وعسكرية ضد القرطاجيين.

ارتدوا المعاطف الجلدية المبطّنة بالفراء، وغطّوا رؤوسهم بقبّعات من الفراء، وخرجوا سريعًا من تلك القرية، قبل أن يموتوا من البرد. وفور خروجهم من القرية، لاح لهم من بعيد ما أذهلهم! ففغروا أفواههم في اندهاش، وتخشّبت ألسنتهم من هول المفاجأة.

-٨-

أبناء «سَرْمَد»

حان وقت الذّهاب إلى «ديوان الرّئاسة» لإثبات الحضور أمام الحرّاس المسئولين عن إحصاء عدد وأسماء «المستبعدين» بمدينة «كُوِيكُول»، كانوا يقفون في صفوف منتظمة، بقيت عائلة «أبادول» للنّهاية، كان القلق يُطلّ من أعينهم، وكان «حمزة» يتبعهم وهو في سجنه المتنقل وعزلته الإجباريّة الّتي فُرضت عليه، يُحاول فكّ اللغز الّذي يحيّره، ما قصّة مدينة «كُوِيكُول»، ولماذا يحتجزون النّاس هنا؟

ما زالت القطط تملأ المكان وسط اندهاش الجميع، تقدّمت «ماسيليا» واكتفت بإيماءة من رأسها وخرجت فقد حفظوها وحفظتهم، ثُمّ تقدّم «أبادول» أفراد عائلته ودلف «الدّيوان»، فرفع الحارس الموكّل بتدوين الأسماء عينيه تجاهه، ثُمّ قال:

- مرحبًا بعائلة «أبادول»، كيف أنت يا سيّد «توفيق»؟

- بخير، أتينا كما طلبت منّا بالأمس.

- أرى هذا، ولكنكم تسعة فقط!

قال «أنس»:

- ولداي يقومان بأداء بعض المهام وسيمرّان عليكم بإذن الله.

- أيّ مهام؟ الجميع في بيوتهم، والسّوق مُغلق! والقوانين لا تسمح بالعمل ليلًا.

قالت «مرام» بانفعال:

- تَعرف الشّباب، لا يمكثون بالبيت يا سيّدي.

قال قائد الحرس بحزم شديد:

- سننتظر ساعة واحدة، وإن تأخرا سيعاقبان بالحبس لليلتين متتاليتين.

قال «أنس» بثقة:

- حسنًا، فليكن هذا..فليُحبسا لعلّهما يتأدّبان، فقد تعِبت منهما!

أشار «أنس» لأمّه وزوجته فخرجتا وخلفهما «فرح»، و«سُليمان»، والفتاتان، وتبعهما «أبادول» و«كمال»، وكان «أنس» آخر من خرج من «الدّيوان». ساروا نحو البيت والقطّط حولهم تموء باستمرار، أقبل «قتادة»، ومن خلفه «تميم»، وبعض شباب المدينة، اعترضوا طريق «أنس» وقد كان يسير خلف الجميع كعادته حرصًا على سلامتهم، وقف أمامه وقال بتنمّر:

- أين «خالد»؟

- لا أدري.

- بل تدري، لقد خرج مع «سِيفاو» و..

ثُمّ اقترب أكثر وحدّق في عيني «أنس» قائلًا:

- أتحبّ أن أدعوه «حمزة» أم «طارق»؟

انتبه «كمال» فعاد لابنه، وتبعه «أبادول»، قال «أنس» بحدّة:

- ماذا تُريدون؟

- بل ماذا تُخفون أنتم عنّا؟

قال «كمال»:

- فلنذهب لمكان آخر بعيدًا عن «الدّيوان».

عقد «قتادة» ذراعيه وسأله:

- لماذا نبتعد عنهم؟ مم تخافون؟

قال «أنس» غاضبًا:

- مهلًا يا «قتادة»، لماذا تُعاملنا وكأننا أعداء لك؟

- من أنتم؟ ومن أيّ البلاد أتيتم؟ وأين اختفت عائلة «أولاد عيدون»؟

لفت اجتماعهم أنظار الحرّاس والمشرفين، خرجوا من «الدّيوان» يراقبونهم، أخذوا يتساءلون عن سبب التفافهم حول «أنس»، قال «أبادول» وهو يُربّت على كتف «قتادة»:

- سنُخبركم بكلّ شيء، تفضّلوا لزيارتنا في بيتنا.

هزّ «قتادة» كتفيه وقال بحنق شديد:

- حسنًا سنتبعكم.

كانت «نور» تراقب ما يحدث وهي ترتجف فقد داهمها الخوف والقلق، ثُمّ شهقت فجأة، وتسمّرت قدماها بالأرض، التفتت «ماسيليا» الّتي كانت تسير برفقتها نحوها قائلة:

- ما بك يا «نور»؟

كانت تلك «رَيْهُقانة»، عادت لاستيطان جسد المسكينة «نور»، فما زالت على هشاشتها وضعفها، وخوفها الشّديد. استدارت كذئبة مفترسة، رفعت رأسها وطالعتهم بتنمّر، سارت نحو الحُرّاس وهي تدقّ الأرض بقدميها وصرخت قائلة:

- دُخلاء، خائنون، لقد هرب «خالد» مع رفيقه وقفزا من فوق أسوار المدينة مع «سِيفاو».

أقبل الحرّاس نحوهم، وبدأوا يُشهرون سيوفهم متأهّبين للهجوم عليهم، طُرقت الطّبول، فتجمّع أهل المدينة، ودلف العديد من جنود الحراسة إلى داخل المدينة، وحاصروا عائلة «أبادول»، اقترب أفراد عائلة «أبادول» من بعضهم البعض وتكاتفوا، وكانوا يتلفّتون في قلق وخوف شديدين، فقد تُنهي ضربة سيف واحدة من أحد هؤلاء الجنود حياة فرد من أفراد العائلة في لحظة، كان «أبادول» يُحاول تهدئتهم، بينما تقدّم «أنس» بصدره ومدّ ذراعيه وكلّهم خلفه، وكأنّه يُريد تلقّي جميع السّهام وضربات السّيوف عنهم، عادت «رَيْهُقانة» تصرخ على لسان «نور» قائلة:

- اقتلوهم.

صاح «أنس» في الجنود:

- لا تلتفتوا إليها، فكلّ ما تقوله هراء وهذيان عقل، كيف نكون دُخلاء وأنتم بأنفسكم قد ألقيتم القبض علينا!

قال «كمال» وهو يتقدّم بجوار ولده:

تمعّضت ملامح وجه «قائد الحرس»، احتقن وجهه وهو يرشق حرّاس البوّابات من جنوده بنظرات حارقة، وأمرهم بالقبض على عائلة «أبادول». بدأ الحُرّاس يعتقلون أفراد العائلة، أمسكوا بـ«كمال»، ثُمّ بالسيّدة «دولت»، اختفت «نور» فجأة في وميض من الضّباب الأرجوانيّ، وكأنّها تبخّرت في الهواء. حملها «أسحم» مع«رَيْهُقانة» إلى مملكته، وكان غاضبًا من «رَيْهُقانة» للغاية.

تراجعت «مرام» مع «فرح» و«سليمان» للخلف، كان «حمزة» أثناء ذلك كلّه ينتفض وهو يُصارع دفاعًا عنهم لكنّه لا يصيب جسد أيٍّ ممن يهاجمون عائلته بلمسة واحدة، ولا يشعر به أحد، يُصارع الهواء وكلّ ذرّة في كيانه تختلج، ما أقسى هذا الأسر على نفسه، تسارعت دقّات قلبه وبحّ صوته من كثرة الصّراخ.

انقضّ أحد الحُرّاس على «أنس» وجذبه من ذراعه فقامت «فرح» بإلقاء مطرقتها على ساق الحارس الّذي يُمسك بأبيها، فأصابته إصابة بليغة وسقط وهو يصرخ من شدّة الألم، وعادت المطرقة ليدها في الحال، تراجع جميع الجنود عندما رأوا وميض مطرقة «فرح»، فتقدّم «أبادول» وصاح غاضبًا بصوت مزلزل وكأنّ شبابه رُدّ إليه وقال:

- أطلب لقاء كبير المحققين.

وأضاف بحزم شديد وبصوت مجلجل:

- الآن.

أنهى كلمته الأخيرة وهو ينتفض غضبًا وضرب الأرض بعصاه، فاهتزّت الأرض من تحت أقدامهم، وشُقت من حيث كان يقف امتدادًا إلى بوابة «الدّيوان»، ذُهل سكّان المدينة، وبدأوا من خوفهم يقذفون

- لا تطرح الأسئلة يا «أبادول»! أنت هنا لتُجيب فقط.

قال «أبادول»:

- لن أتحدّث إلّا في حضور كبير المُحققين.

- حسنًا، وسيبقى ابنك «كمال» و زوجته تحت قبضتنا حتّى تُخبرنا بالحقيقة، ولن يمنعنا أبناء «سَرمد» من اعتقالكم أو قتلكم، هُناك عهد بيننا وبين «سَرمد»، لن يقطعه أبدًا هو وأتباعه.

التفت قائد الحرس لـ«شَفق» وقال لها:

- محظور عليكم إخراجهما من السّجن، وإلّا سيُعدّ هذا خرقًا للعهد بيننا وبين أبيك.

أشار قائد الحرس للرّماة، فبدأوا يصوّبون أسهمهم تجاه أفراد العائلة، كانت الأسهم تتساقط على الأرض قبل أن تصل إليهم، صاح قائد الحرس غاضبًا:

- أتصدين عنهم وهم أسرانا على أرضنا؟

التفتت «شَفق» وقالت ببرود:

- ينصّ العهد على ألّا نُقاتلكم، ونحن لا نُقاتلكم الآن!

ثُمّ تراجعت وخفضت نبرة صوتها وقالت موجهة كلامها لأفراد العائلة:

- عودوا إلى البيت، وسنصدّ عنكم، لكننا لن نتمكّن من مُهاجمتهم، فهناك عهد قطعه أبي لكبيرهم، ألّا يحاربهم، ولهم السّلطان على «كُويكُول» وأرضها.

سألها «أبادول»:

- لماذا؟ وبأيّ حقّ؟

- لم يُخبرني أبي أبدًا! ولم يخبرني بما يفعلونه هنا، فقد أقسم على حفظ السر، ولم أتمكّن من معرفة سبب اختطافهم للمستبعدين.

قال «أنس» بقلق شديد:

- ولكن أبي وأمّي بين أيديهم.

قالت «شَفق» بثقة:

- سنعود، وسنُخلّصهم بطريقة ما.

تراجع أبناء «سَرمد» للخلف بخطوات منتظمة، انطفأت النّار، فتراجع باقي أفراد الأسرة معهم، كان السيّد «كمال» يشير لـ«أنس» مُطمئنا له، وكانت السيّدة «دولت» تبكي بحرقة وهي تلوّح لهم، عادوا إلى البيت بقلوب مُنكسرة، كان «أبادول» و«أنس» يسيران وكلاهما يشعر بالانهزام، فعلى تلك الأرض خاضا الكثير من المعارك كمحاربين وانتصرا فيها، كان دومًا هناك من يدعمهما، وكانت أدواتهما وأسلحتهما مصدر قوّة لهما، اللجوء إلى المكتبة العظمي كان يمنحهما الأمان، مجرّد تحليق الصقور فوقهما كان يُشعرهما بالأنس، أمّا الآن، فالمعركة تختلف، وخلفهم نساء وأطفال لا حول لهم ولا قوّة، مرّت نفس الخواطر برأس «كمال» والحرس يقتادونه إلى السّجن مع زوجته.

كما دارت كطواحين الهواء في رأس «حمزة» الّذي وقع أسيرًا لساحرة حمقاء منعته من حماية أهله، ولم يعد يملك إلّا أن يتبعهم كظلّهم. كان «أنس» طوال الطّريق يُنادي على ابنة أخته «سارة»، لقد اختفت في

غمضة عين هي الأخرى، ظلّ ينادي عليها وقلبه يعتصر خوفًا عليها، وعلى «ماسيليا» الّتي كانت في عُهدته وقطع وعدًا لـ«سِيفاو» أنّه سيحميها كابنته، وعلى «نور» تلك المسكينة الّتي لا تملك أن تدفع عن نفسها ما تلقاه من أذى من «رَيْهُقانة»

أشفق «حمزة» على والده فأسرع يفتّش عن البنات بين الوجوه، كان يركض في تخبّط، لقد شعر بغصّة عندما سمع صوت «رَيْهُقانة» وهي تتحدّث على لسان «نور»، ترى أين ذهبت بها؟

أين «سارة»؟ أين «نور»؟ أين «ماسيليا»؟ أين «خالد»؟ أين «طارق»؟ كان يُحدّث نفسه وهو يركض خلفهم هائمًا على وجهه.



-٩-

«فاتا مُورجانا»

«طارق»

كان ما رأيناه يفوق الخيال، وكيف لا يفوقه ونحن في رحاب مملكة عجيبة، الوميض الأزرق، والخطّ الرّفيع الأحمر فوق خطّ الأُفق العريض، وفوقه تُطلّ مدينة كاملة بأشجارها وأنهارها ونخيلها وبيوتها، لكنّها تلوح بين السّحاب الأبيض!

- فاتا مورجانا[1]!

قالها «خالد» وقد اتسعت حدقتا عينيه من فرط الاندهاش وهو يتأمّل صورة المدينة المعلّقة في الهواء أمامنا، سأله «سِيفاو» مُتعجّبًا:

- وما هي الـ«فاتا مورجانا»؟

---

(١) أتت تسمية فاتا مورغانا من اللغة الإيطالية، ومعناها الجنّية مورغانا، وهو الاسم الإيطالي لمورغان الجنية. تحدث هذه الظاهرة البصرية بسبب انكسار أشعة الضوء عند مرورها في طبقات متفاوتة في درجة الحرارة من الهواء، والتي تكون على شكل منفصل وغير متجانس، والتي تظهر خاصية انعكاس حراري، أي وجود طبقات من الهواء الساخن على تماس مباشر مع طبقة هواء باردة كثيفة وقريبة من سطح الأرض. وجود هذا التماس يؤدي إلى انكسار الأشعة الضوئية مما يؤدي إلى نشوء هذه الظاهرة بسبب تشكل ما يشبه العدسة، والتي تؤدي إلى ظهور الأشكال معلقة بالهواء.

أجابه «خالد» وما زالت عيناه معلّقتين بالمدينة:

- السّراب القُطبي[1]، هل تعرفه يا «سِيفاو»؟

- أعرف السّراب الصّحراويّ وحسب، دومًا يختلط علينا الأمر ونحن نقطع الصّحراء حولنا، نظنّ أنّ هناك ماءً وعندما نقترب لا نجده.

- هذا نوع آخر منه، السراب الصحراوي ينعكس على سطح الأرض، أمّا هذا فينعكس على طبقات الهواء، فتبدو كالمرآة وتظهر الصورة عليها.

أخرجتُ «النّاظور»، وتفحّصت المدينة فوق خطّ الأُفق العريض، ثُمّ التفت نحو رفيقيّ وقُلت لهما:

- ليست صورة! إنّها مدينة حقيقيّة، رأيت «بنات الرّيح» هناك.. انظرا!

- غير معقول!

تناولا «النّاظور» من يدي، وطالعا المدينة المعلّقة في الهواء، زاد اندهاشهما عندما تفحّصا المدينة المقابلة على الأرض، وكانت تلوح من بعيد، فـ«بنات الرّيح» في الأعلى فقط، تنقّل «النّاظور» بين أيادينا ونحن ننقل أبصارنا بين المدينة وصورتها، بل ونسختها الحقيقيّة المُطابقة الأُخرى!، كانت عينا «خالد» تبرقان من شدّة الانبهار، فسألتهما ودقّات قلبي تتسارع بجنون:

---

(١) السرّاب القُطبي أو Fata Morgana

هي ظاهرة بصرية تصنف من أنواع السراب، والذي يشاهد عند شريط ضيق فوق الأفق. تؤدي ظاهرة السراب هذه إلى حدوث تشوه في شكل الأجسام المشاهدة، بحيث يصعب تمييزها.

- هل أنتما مُستعدّان؟

- مستعدّان لأيّ شيء؟

خلعتُ معطفي وقمت بإخراج الخطاطيف والأحبال وقلت لهما:

- «السّراب القُطبي» سريع التغير، أسرعا لكي نتسلّق قبل أن تختفي المدينة. فنحن نتعلّم صعود الجبال من أجل هذا.

- سنتسلّق ماذا؟

- سنعلّق الحبال بالمدينة المُعلّقة ونتسلّق صعودًا لكي نصل إلى تلك المدينة.

عقد «خالد» حاجبيه وقال باستنكار:

- تلك مجرّد صورة.. انعكاس يا «طارق»!

- هذه مدينة حقيقيّة يا «خالد»، ليست سرابًا كما تظن.

- أخشى أن...

قاطعته قبل أن يكملها وقلت له:

- أنسيت أننا في مملكة البلاغة! سأصعد إليها الآن.

- مهلًا مهلًا.. انتظر أرجوك، هل تقدّر عاقبة ما أنت مُقدم على فعله؟ قد يكون هذا عالمًا غريبًا مُختلفًا نتيه فيه، وقد لا نعود.

- لا أستطيع كبح جماح نفسي.. فضولي شديد وقلبي حديد.. أنسيت يا صاح؟

- كفّ عن المزاح يا «طارق».

- لكنني لا أمزح هذه المرّة!

ركضتُ نحو المدينة بسرعة شديدة وكأنّني أُسابق الرّياح، وانطلق «خالد» و«سِيفاو» خلفي وهما يناديان علي، وقفنا أسفل المدينة، وكان دويّ الرّياح حولنا مُخيفًا، استشعرتُ على نحو غامض بداية مغامرة جديدة أكثر خطورة دون شك من سابقاتها، أمسكتُ بخطّاف جدّي «باديس» وكان له قاعدة يُضغطُ عليها الخُطّاف الموصول بالحبال لينطلق كالقذيفة نحو الأعلى، قُمت بضغطه نحو القّاعدة بقوّة ثُمّ دفعت المدوس فانطلق الخطّاف نحو المدينة المعلّقة، كانت الحبال تتمدد بشكل مُستمرّ وعجائبيّ، لا تتوقف إلّا عندما تعلق بهدف، لم يندهش «خالد» فهذا ديدن المُحاربين وأدواتهم العجيبة، أمّا «سِيفاو» فكان في صدمة مما يراه بأمّ عينه، وصل الخطّاف إلى مرماه، فجذبته نحوي بكلّ ما أوتيت من قوّة وتعلّقت به، وصحت في حماس مناديًا عليهما ليتعلّقا خلفي:

- أرأيتما! هيّا، لا تخافا، تلك الحبال قادرة على حمل ثلاثة أفيال.

صاح «سِيفاو»:

- وماذا لو سقطنا على رؤوسنا.

ضحكت بانفعال وصرخت قائلًا:

- سنموت في الحال!

قال «خالد» وهو يجذب الحبل الّذي تعلّقت به:

- أيّها المجنون، نحن لا نعرف شيئًا عن تلك المدينة الغريبة.

- من العقل أن تكون مجنونًا لبعض الوقت، أليس هذا أهون من الغوص بين الحيتان في بحر «حِندس» المظلم أيّها المُحارب؟ ماذا كُنت تعرف عن الأوركا؟

وقف «خالد» هنيهة يفكّر، ثُمّ تعلّق بالحبل، وبدأ يصعد خلفي، كان الصعود صعبًا، ويحتاج لذراعين مفتولي العضلات وشديدين، وكان «خالد» لا يختلف عن «سِيفاو»، فكلاهما قويّ البنية، وكانت تلك الحبال تلتصق بكفوفنا، وكأنّها تتشبث بنا حتّى لا تُسقطنا، صحت لأُنبهها:

-لا تنظرا للأسفل.

نجحنا في الوصول إلى المدينة، وفور أن وطئت أقدامنا أرضها، تناهى إلى مسامعنا صهيل الخيول المُجنّحة، جلسنا لنلتقط أنفاسنا، فقد كُنّا مُتعبين للغاية.

كانت «سارة» قد تسللت مع «ماسيليا» عندما بدأ الحُرّاس بإلقاء القبض على أفراد العائلة، أخبرتها «ماسيليا» أن تتبعها، وركضتا نحو المسرح الرّومانيّ أو كما كان يُطلق عليه قديمًا «مسرح الأُسود»، وقفتا لالتقاط أنفاسهما، قالت «ماسيليا» وهي تتلفّت في خوف:

- المكان هنا بعيد عن أعين أهل المدينة، سنبقى قليلًا فقط، أخشى أن يعثر علينا الحُرّاس فهم يأتون إليه كلّ ليلة بعد أن ينام الجميع.

قالت «سارة» بثبات:

- سيظنون أننا مع باقي أفراد العائلة بالبيت، فأبناء «سَرمد» قد أحاطوا بمن تبقّى من أفراد العائلة وكان عددهم كبيرًا، ولن يتوقّع الحرّاس فرارنا.

- وماذا سنفعل الآن؟

- سنبحث عن «قتادة» و«تميم»، وباقي شباب المدينة ونتحدّث إليهم.

- أتمزحين، إنّهم يضمرون لنا الشّرّ!

- لأنّهم لم يعرفوا الحقيقة كاملة، سأروي لهم كلّ شيء عن عائلتنا وعن المُحاربين، لا بدّ أن نتَّحد لمواجهة «بيادق الظّلام».

- حذّرني «سِيفاو» من «قتادة»، كان يُعامله بحذر شديد، أخبرني أنّ «قتادة» لديه نزعة تحكّميّة، ولا يقبل التّشاور، يُريد أن ينصاع من أمامه لرأيه وحسب.

- لا بدّ من خوض التّجربة، وعلى أسوأ الفروض سيسلّموننا للحرّاس، وسيحبسوننا مع جدّي وجدّتي، ولن يتركنا خالي «أنس» في أسرهم، أثق بحكمته، سيجد خطّة ما.

- لن يتركنا الله.

أغمضت «سارة» عينيها، وتذكّرت كلمات أبادول» فقالت لها:

- نعم يا «ماسيليا»..سيُنقذنا الله كما يُنقذنا في كلّ مرّة.

- سنمكثُ هنا حتّى تهدأ المدينة، فالمسرح مهجور كالعادة، فجميعنا في المدينة نخشى الاقتراب منه، ولا أدري كيف أجلس معك في ركن منه الآن.

- لماذا تخشون الاقتراب منه؟

- الأصوات الّتي تصدر من قاعته الدّاخلية، مُخيفة للغاية، ربّما هناك وحوش ضارية، ومن يقترب من تلك القاعة يعاقب بالحبس، نحن لا نعلم ما يُخفونه عنّا هنا.

أطرقتا السّمع وكلّ منهما تحاول الإنصات إلى الأصوات، لم يكن هناك سوى دويّ الرّياح، بقيتا على حالهما للحظات ثقيلة قبل أن تقول «سارة»:

- أخبرنا «خالد» أنّ المسرح مصمم بطريقة هندسيّة مناسبة لاستقبال الأصوات وتكبيرها، فتلك الكوّات المربعة والمستديرة تعمل على تضخيم تردد الأصوات، وترفعها ليسمعها كلّ من يجلس على مدرّجات المسرح.

قالت «ماسيليا» وهي تهزّ كتفيها:

- يُقال إنّه كان مسرحًا للأسود، فهنا كان الرّومان يُطلقون الأُسود المُفترسة على المعاقبين، ويجلسون لمشاهدتهم بينما الأُسود تلتهمهم التهامًا.

ثُمّ ضيّقت عينيها وهي تطرق السّمع وتحدّق في التّماثيل الموزّعة على جانبيه:

- ها هي الأصوات.. أتسمعينها؟

- هذا هُراء، كفّي عن هذا يا «ماسيليا».

تأملت «سارة» وجهها على ضوء القمر السّاطع في السّماء، وقالت لها:

- حسنًا، سأُثبتُ لك أنّ تلك القاعة فارغة، وأنّ هذا مجرّد صدى للأصوات، اتبعيني.

كان هناك شعلتان مضاءتان على بوابة القاعة الدّاخلية الوحيدة الملحقة بساحة المسرح، وكان ضوء الشّعلتين ينعكس على وجوه التّماثيل فيظهرها في صورة مخيفة بالفعل، فور اقترابهما بدأت «سارة» تسمع

الأصوات الّتي تحدّثت عنها «ماسيليا»، همهمات، وفحيح، وصراخ، صوت غريب وكأنّ أحدهم يغرغر بالماء، وشيء يُشبه الزئير لكنّه ليس زئيرًا.. بل هو صوت إنسان يتحدّث تارة، ويحمحم غاضبًا تارة، توقفت للحظة، وكانت «ماسيليا» خلفها ترتجف وكأنّها عقرب ثوانٍ علق متذبذبًا في ساعة متوقفة، جرّت «سارة» حجرًا وصعدت عليه وأمسكت بالشّعلة، ودلفت للقاعة وقد سرت قشعريرة بجسدها كلّه، لكنّها ثبتت كالطّود وتغلّبت على لحظة الخوف الأولى، وتقدّمت بحذر، وبدت الآن تُشبه أُمّها «حبيبة» في رباطة جأشها وقوّتها.

كان أبناء «سَرمد» يُحيطون ببيت عائلة «أبادول» من كلّ صوب، وأمامهم كتيبة من الحرّاس المدججين بالسّلاح، فرض أبناء «سرمد» طوقًا لحماية البيت ومن فيه، لكنّهم وكما قالت «شَفق» لـ«أبادول» لن يتمكّنوا من القتال، سيصدّون الضربات فقط، ويمنعون الحُرّاس عنهم. وقفت «شفق» أمام «أبادول» فور أن دلف مع من تبقّى من أفراد عائلته، وقالت وهي تُشبّك كفّيها:

- رأيت «خالد» و«طارق» و«سِيفاو»، وددت أن أُساعدهم، ولكنّهم دلفوا نطاق منطقة محجوبة عن أعيننا بأرض «الكَنَهْوَر».

- ما قصّة هذا العهد المُبرم بين المحققين وأبيك؟

- حتمًا سأعرف، ولكن.. هناك ما أودّ أن أخبركم عنه

اقترب «أنس»، ومعه «مرام» من «أبادول» ووقف الثّلاثة يُنصتون في اهتمام، قالت «شَفق» بصوت تشوبه رنّة تحذير:

- لقد رأيت أنا وأخي شيئًا غريبًا اليوم، «بيادق الظّلام» يقومون بإلقاء بعض المستبعدين في فجوة الموت، الّتي كانت «رَيْهُقانة» تهمّ بإلقاء بيتكم فيها.

قال «أنس»:

- أتقصدين «الكوازارات» الّتي أخبرنا «خالد» عنها؟

- فلتُطلق عليها اللقب الّذي يروق لك يا سيّد «أنس»، لكنّها فجوة مميتة، تلتهم كلّ ما يُرمَى بداخلها، وتفتته، وتُحرقه، ويختفي للأبد.

قال «أنس»:

- لماذا يفعل هؤلاء البيادق كلّ هذا؟

- يأتي الأمر المُباشر من «المحققين»، ويبدو أنّ هؤلاء المُحققين لهم رئيس وزعيم هو الرّأس المُدبّر لكلّ هذا.

- نحن في خطر! لا بدّ أن نعثر على «حمزة» بسرعة.

- بالمناسبة، صارت «رَيْهُقانة» لا تراه الآن.

صرخت «مرام» في فزع:

- ماذا؟ كيف لا تراه؟ هل مات ولدي؟

صاحت «فرح» في هلع:

- هل ألقى «بيادق الظّلام» بأخي في فجوة الموت؟

قالت «شَفق» لتُهدّئ من روعها:

- هم لا يرونه يا «فرح» فكيف سيُلقونه فيها.

أردفت «شَفق» مُحدّثة الجميع:

- كما فهمت من حوارها مع رفيقها «أسحَم» وهو من المجاهيم...

قاطعها «أبادول» قائلًا:

- المجاهيم هنا!

- هذا «أسحم»، وهو عشيق «رَيْهُقانة»، ويعرف بأمركم يا سيّد «أبادول».

قال «أنس» بانزعاج شديد:

- وكيف يتركنا «المَجَاهيم» هكذا! وكيف يُعاونها «أَسْحم» وقد كان «حمزة» معهم كتفًا بكتفٍ فوق جبل «أمانوس» وهم يواجهون «الدّواسر»؟

كان «أبادول» حزينًا، ورأسه يضجّ بالأفكار، حتّى «المجاهيم» تخلّوا عنه، قالت «شَفق» موضحة لهم:

- نحن لا نتجاوز حدودنا وليس لنا المرور بأرضهم وسلطانهم، لكنّ «أسحم» خالف العهد، ودخوله نطاق أرض «الكَنَهْوَر» هنا يُعرّضه للخطر، وهو يفعل هذا من أجل «رَيْهُقانة»، ويُخفي أمركم عن باقي «المجاهيم» الشُّرفاء.

سألها «أبادول»:

- وماذا فهمتِ من حوارهما؟

- هناك من حَجب «حمزة» عن عين «رَيْهُقانة»، وهذا يدلّ على وجود كيان آخر أقوى منها يُسيطر الآن على «حمزة».

كان «حمزة» بينهم، يسمعهم وهم لا يرونه، شعر بحرارة تجتاح جسده، حتّى متى سيظل عاجزًا، وأسيرًا، ومعزولًا بتلك الطّريقة؟ لف المدينة ليل أسود ثقيل شديد الوطأة على نفوسهم، انصرفت «شَفق» للبحث عن «سارة» و«ماسيليا» مع بعض أبناء «سَرمد»، وتركت أهل البيت في أسوأ ليلة مرّت بهم، الآن هم ممزّقون في أرجاء مملكة البلاغة، على أرض «الكَنَهْوَر»، ومعرّضون لخطر مُميت.

كان جسد «خالد» كلّه يؤلمه، فتلك هي المرّة الأولى الّتي يصعد فيها متسلّقًا حبلًا يتدلّى من السّماء، كان وكلّما تعب يُراقب «طارقًا» فوقه وهو يتسلّق بخفّة فيزداد حماسه، ودّ لو التفتَ نحو «سِيفاو» أكثر من مرّة ليطمئنّ عليه، لكنّ «طارق» ظلّ يُحذّرهما من الالتفات، كانت الحبال مجدولة ومتينة ولم ير مثلها من قبل، وكانت تلتصق بكفوفهم بشكل تلقائيّ كلّما لمسوها، وكأنّها تقبض على كفوفهم كما يقبضون هم عليها، وصلوا إلى تلك المدينة الغريبة، وكان الليل قد أرخى سدوله، تمددوا على الأرض وكانت عباءة السّماء الموشّاة بالنّجوم مبسوطة فوقهم كآيةٍ من آيات الله، لم يكن لديهم جهد ولا قوّة، ولم يتحرّك أيّ منهم قيد أنملة، مرّ وقت طويل وهم على حالهم يحاولون التقاط أنفاسهم، ويتحدّثون ببطء شديد، بكلمات مقتضبة، يطمئنون على بعضهم البعض بأصواتهم المُتعبة، فقد أرهقهم هذا حقًا. استسلموا للنوم على أرض لا يعرفونها ولا تعرفهم بقاعها! وكأنّ هناك من خدّرهم للتوّ.

-١٠-

مسرح الأسود

كانت «سارة» تتقدم خطوة بخطوة، ناقلة إحدى قدميها ببطء، ثُمّ تُحدّق في أرجاء القاعة، وتتفحّص كل ركن فيها قبل أن تنقل القدم الأُخرى. كانت القاعة الدّاخلية القابعة في صدر المسرح خالية، لا أثر لمخلوق بها، ولا وجود للحرّاس هناك! همست قائلة:

- أرأيتِ يا «ماسيليا»، لا أثر لمخلوق هنا.

- ولماذا تهمسين إن كُنت على يقين أنّها خالية.

التفتت «سارة» نحوها وابتسمت، فقد صدقت «ماسيليا»، فرغم ثبات «سارة» فهي ترتاب في الأمر، فبالفعل هناك أصوات غريبة ومُخيفة، تعالت الأصوات وزادت، فهمست «ماسيليا»:

- ربّما يسكنها الجنّ كأصدقائكم الّذين ظهروا منذ قليل.

- الأصوات تصدر من باطن الأرض.

مدّت «سارة» يدها بالشّعلة لـ«ماسيليا» الّتي قبضت عليها بيديها الاثنتين، ثُمّ انبطحت «سارة» أرضًا وألصقت أذنها بالأرض، وأغمضت عينيها، وأنصتت بتركيز شديد.

الأصوات تصدر من باطن الأرض بالفعل، اعتدلت وتحسست الأرض بكفيها باحثة عن باب خفيّ، عثرت عليه بعد بحث لم يستغرق سوى

دقيقتين، حاولت جذبه لكنّه كان ثقيلًا ويحتاج لذراع قويّة، لم تتمكّن من تحريكه، وقفت متأهّبة وقالت لـ«ماسيليا»:

- حان وقت الذّهاب إلى «قتادة»، لدينا ما سيقنعه بالانضمام إلينا، هناك أشخاص محتجزون تحت أرض هذه القاعة، ولا بدّ أن نُنقذهم.

لم تترك «سارة» لـ«ماسيليا» فُرصة الاعتراض، تسللت الفتاتان للخارج وأعادت «سارة» الشّعلة لمكانها، وأبعدت الحجر الّذي وقفت عليه، كانت الطُرق خالية، إلّا محيط بيت العائلة، فقد كان ممتلئًا بأبناء «سَرمد»، وحولهم حلقة كبيرة من الحرّاس. وكان بيت «قتادة» قُرب السّوق، وصلت الفتاتان لبيته، وتحدّثت «سَارة» إليه هو ورفاقه، سألوها الكثير من الأسئلة عن المُحاربين، وأخبرتهم أيضًا عن ابن خالها «حمزة» وما حدث له.

وعندما أشبعت فضولهم بشكلٍ كافٍ، وكانوا لا يُصدّقون كلّ ما أخبرتهم به رغم صدقها في كلّ حرف تنطقه، أضافت قائلة:

- والآن، أنت القائد يا «قتادة»، والأمر إليك، الظّلم الواقع هنا على الجميع غير مقبول، وليس من حقّ أحدهم أيًا كان أن يُقرر مصائرنا، فماذا تقول؟

كان «قَتادة» حائرًا، هل هو ورفاقه وعائلة «أبادول» قادرين على مواجهة «المحققين» و«بيادق الظّلام» أم لا؟ قال بعد صمت ثقيل:

- ليس معنا أسلحة، أمّا أنتم فمعكم الجنّ من أبناء «سَرمد» يصدّون عنكم الهجمات، ولكلّ مُحارب منكم سلاحه الخاصّ، جدّك الأكبر يضرب بعصاه فيشقّ الأرض ويُزلزلها، وأخوك لديه

كرات يحرق بها من أمامه، وابنة خالك لديها مطرقة عجيبة كسرت بها ساق الجندي، نحن ضعاف وسيسحقوننا في لحظة.

قالت «سارة»:

- ليس لديّ سلاح، وكذلك خالي وجدي كمال وجدتي، وكما أخبرتك، أسلحة العائلة القديمة لا تعمل، وليس لدينا اتصال مع المكتبة العظمى وما يتعلّق بها من أمور، لا يساعدنا «المغاتير»، ولا «المجاهيم»، ولا شعب «أوركا»، ولا جيش مدينة «وراشين»، نحن وحدنا ونحتاج عونكم، كما أنّ الحرب ليست بالسّلاح فقط.

- السّيف للسّيف، والذّراع للذّراع، والسّلاح للسّلاح.. هكذا تعلّمنا.

- ورجال شجعان، ورأس يخطط ويفكر، حبانا الله بالعقل من أجل هذا.

صمت «قتادة» هنيهة، والتفت نحو رفاقه، وبدأ لأوّل مرّة يستمع إلى كلماتهم، كان لديهم الكثير من الأفكار، منها أن يوزعوا أنفسهم على البيوت للحديث مع سكّان المدينة، ومنها الاستعانة بمطرقة «فرح» لضرب جدران الأنفاق الّتي لم يتمكّنوا من إكمال حفرها، ومنها اصطناع معركة بينهم وبين عائلة «أبادول» لخداع الحرّاس والمشرفين المنضمين إليهم، ومنها ومنها....

وبعد أن انتهوا من طرح أفكارهم قالت «سارة»:

- ضع لنا خُطّة يا «قتادة»، ولو علم أبناء «سَرمد» بانضمامكم إلينا سيصدون عنّا وعنكم الهجمات، وعندها سيضطرّ الحرّاس إلى استدعاء «بيادق الظّلام»، و«المحققين»، وسنكتشف الحقيقة، وربّما نتمكّن من الخروج من هنا.

- حسنًا، سنبدأ من الغد بالحديث إلى سُكّان المدينة.

استبشرت «سارة» بكلماته وتبادلت النّظرات مع «ماسيليا»، لكنّ «قتادة» رشقها بنظرة ثاقبة وقال:

- سنُساعد «ماسيليا» على دخول بيتكم الليلة، وستبقين أنت في عهدتنا هنا لنضمن أنّ عائلتك ستحرص على حماية أبناء «سَرمد» لنا، ولتُخبرهم «ماسيليا» بخطّتنا، ونرى ما سيحدث.

هزّت «سارة» رأسها موافقة، وأدركت أنّه ما زال يتشكك في نوايا عائلة «أبادول» رغم كل ما أخبرته به. سألته باهتمام:

- وماذا عن المحتجزين تحت أرض مسرح الأسود؟

- سنذهب لنُخلّصهم من الأسر بالتّأكيد.

خرج «قتادة» مع بعض رفاقه وهم يصحبون «ماسيليا» معهم، وتركوا «سارة» خلفهم، وتوجهوا نحو البيت، افتعلوا شجارًا عنيفًا مما لفت أنظار الحُرّاس إليهم، وكأنّ أحدهم يودّ دخول البيت والآخر يمنعه، ألقى الحرّاس القبض عليهما، وكان «أنس» يُراقب كلّ شيء من النّافذة، رأى «ماسيليا» وهي تُشير إليه من بعيد، فخرج بنفسه وحماه أبناء «سَرمد» وأدخلها للبيت، فدلفت معه وأخبرتهم بخطّة «سارة» و«قتادة».

قبل قليل كان الطبيب «الحارث» يطوف حول البيت، كان يودّ لقاء «أبادول» بعد أن عرف بأنّه من المُحاربين القدامى، لكنّ الحرّاس منعوه، ورفضوا السّماح له بالدّخول، وكانوا صارمين معه للغاية.

كانت «رَيْهُقانة» تُعلّق «نور» من ساقيها مقلوبة في الهواء، وكانت تدور حولها وهي تزوم من شدّة الغيظ، قالت بحنق شديد:

- أيّتها الحمقاء، لم تكوني أبدًا مُفيدة، سأقتلك.

قالت «نور» بصوت يغلبه اليأس:

- فليكن هذا بسرعة، فقد مللت.

أطاحت بجسدها وضربته بالحائط وقالت بازدراء:

- سُحقًا لك ولكم جميعًا، كان لا بدّ من قتلكِ بعدما قتلت «حسّان»، ما يدفعني للإبقاء على حياتك الآن فقط هو حاجتي لخداع حرّاس مدينة «كُوِيكُول» حتّى أصل لمُرادي.

وجّهت«رَيْهُقانة» يدها تجاه «نور»، وحرّكت ذراعها عاليًا في الهواء بقوّة، فارتفعت «نور» عن الأرض، وعُلّقت في الهواء، وشعرت بالاختناق، ثُمّ حُبس صوتها، ثُمّ أرخت «رَيْهُقانة» قبضتها فجأة فأسقطت «نور» على الأرض فاقدة لوعيها.

أرادت «رَيْهُقانة» العودة لـ«كُوِيكُول» للبحث عن «حمزة»، لكنّها كانت تنتظر «أَسْحَم»، فقد وهنت كثيرًا عن ذي قبل، وما عادت تقدر على مواجهة أبناء «سَرمد»، بالكاد تتمكّن من السّيطرة على هؤلاء البشر الضّعاف، كما أنّها تخشى القنّاصين. عاد «أَسْحَم» وكان يتأجج من شدّة الغضب، وأراد الحديث معها.

ذهب «قَتادة» و«تميم» واثنان من الشّباب الأقوياء مع «سارة»، وتسللوا جميعًا للقاعة الملحقة بمسرح الأسود، حملوا الشّعل ودلفوا باحثين عن الباب الأرضيّ الّذي عثرت عليه «سارة»، استطاعوا أن يفتحوه، كان ثقيلًا جدًا ويحتاج بالفعل إلى جهد كبير لرفعه، هبطوا على الدرج الحجري نحو الأسفل، فاحت رائحة القذارة من المكان، وضعوا أيديهم على أنوفهم وأفواههم، كاد بعضهم يتقيّأ، كانت الرّائحة تُشبه رائحة الجثث المتعفّنة.

ساروا بخطوات مُرتعشة، عثروا على ثلاثة سُجناء، شاب ضخم الجثّة له ذراعان عظيمان، وشعر كثيف وطويل، وكان مسلسلًا بقيد من حديد يحاول التّخلص منه باستمرار ولا يتوقّف عن الهمهمة، وعجوز أعمى يجلس على الأرض ويُنكّس رأسه ويهذي بعبارات غير مفهومة وكأنّه مُصاب بالحُمّى، وامرأة عظيمة الكراديس لها ملامح رجولية، وكفّان غليظان، ولا تُحسن الكلام وكأنّ بعقلها لوثة، ورغم قوّة بنيتها كانت آثار التّعب والإرهاق تبدو عليها. وقف «قتادة» قبالة الشّاب الّذي قال مُستغيثًا:

- أخرجوني من هُنا، «بيادق الظّلام» اختطفوني منذ يومين.

أمسكت المرأة بالقضبان الحديدية وطالعتهم بعينيها الجاحظتين وأصدرت أصواتًا غير مفهومة.

سأل «قتادة» الشّاب:

- ما بها تلك المرأة؟

- مسكينة، عقلها به لوثة.

- هل أخبروكم عن سبب احتجازكم تحت الأرض؟

- لا... أنقذونا أرجوكم.

لم ينبس الأعمى ببنت شفة، وبقي مكانه يُنصت إليهم، بدا كهيكل عظميّ يرتدي قميصًا من الجلد، بدأ «قَتادة» ورفاقه يكسرون الأقفال، ثُمّ السّلاسل الّتي كانوا مقيدين بها. نجحوا في تحرير المساجين الثلاثة، وساعدوهم على الخروج من تلك الزنزانة الكئيبة، تسللوا جميعًا وعادوا بهم إلى بيت «قتادة»، وكان الحرّاس مشغولين ببيت «أبادول» وما حوله من أبناء «سَرمد»، فلم ينتبهوا لاقتحامهم تلك الزّنازين الّتي تقبع تحت الأرض، مرّت ليلة عصيبة، «كمال» وزوجته في السّجن ينهشهما القلق، و«أبادول» في حالة انهزام شديدة.

كان «أنس» يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، و«مرام» تبكي ولديها، أمّا الصغيران «فرح» و«سليمان» فقد استسلما للنّوم.

كان «حمزة» يتنقّل بين أبيه وأُمّه، يُحاول الكتابة على أيّ سطح أمامهما، لكنّه لم يُفلح أبدًا، حاول لمس أيّ شيء ليقوم بتحريكه، كان يدور كالقط بالبيت يُحاول فعل أيّ شيء، حتّى أنّه حاول إثارة غضب قطّة «سليمان» لكنّها لم تشعر به على الإطلاق، أخذ يتساءل في نفسه.. لماذا لا يشعر بي القطّ كما شعرت بي الذّئاب في وادي «الهَماليل»؟ ناموا جميعًا من شدّة التعب رغم القلق الّذي كان ينهش رؤوسهم.

وفي بيت «قتادة» نامت «سارة» بعد أن قامت بالاعتناء بتلك المرأة الّتي حرروها من الأسر للتوّ، فقد كانت غريبة الأطوار، وقد نفرت النساء منها، وتركوها لتنام في غرفة وحدها فقد كانت جافّة الطباع وعنيفة معهنّ، وتهذي باستمرار. أمّا المسكينة «نور» فقد كانت وحيدة تترقّب وسط ظلمة الدّيجور، لم يغمض لها جفن منذ أفاقت بعد سقوطها على الأرض، فقد ألقتها «رَيْهُقانة» في جبٍ عميق وكأنه قلب الجحيم، وجبينها

يتفصّد عرقًا من شدّة الحرّ في هذا المكان الكئيب، بينما عيناها تهميان بالدّموع وهي تحتضن ساقيها، وتتقوقع على نفسها في رعب شديد.

وفي بقعة أخرى من بقاع تلك المملكة العجيبة، وفي مدينة معلّقة بين السّماء والأرض، على أرض «الكَنَهْوَر» كان هُناك ثلاثة من الشّباب الأقوياء مستلقين على العُشب الأخضر وكأنّهم في حالة من التّخدير! يطالعون السّماء بعيون مفتوحة، وهم مرهقون للغاية، كانوا يحتاجون للنوم، وهذا ما حدث بالفعل!



-١١-

«بنات الرّيح»

بعثرت الشّمس دنانيرها الذهبية على التلال والسّهول والبساتين في كل بقعة بالمدينة، أيقظ شُعاع الشّمس الحاني «طارقًا» وكان أوّل من فتح عينيه منهم، فأسرع بإيقاظ «خالد»، و«سِيفاو»، ووقف الثّلاثة وهم يتعجّبون كيف استسلموا للنّوم بتلك الطريقة، كان هناك الكثير من المراعي، والسّهول الخضراء، مرّوا بأشجار الفاكهة باختلاف أنواعها، كان «طارق» أكثرهم مجازفة وأكل منها في الحال، فقد كان جائعًا للغاية.

التقط «سِيفاو» ثمرة تفّاح والتهمها هو الآخر، وكان «خالد» آخرهم، فقد بدأ يأكل بعد أن اطمأنّ على سلامتهما، فقد كان مُرتابًا يخشى أن يموت قبل أن يُنقذ أخاه وعائلته، ومرّ الأمر بسلام، مرّوا بنهر جارٍ فشرب كلّ منهم حتّى ارتوى، ووصلوا أخيرًا لمراعي الخيول.

- تبارك الله!

قالها «خالد» بصوت مرتفع وهو يفتح ذراعيه ويقف مشدوهًا متأمّلًا الخيول وهي تهملج وتختلط مع بعضها البعض، وقد شكّل اختلاف ألوانها لوحة ربّانية بديعة.

كان لتلك الخيول مهابة، ولرؤيتها وقع قُدسي في النّفس، سألهما «خالد» فهما قد التقيا بـ«بنات الرّيح» من قبل:

- أين الأجنحة؟

أجابه «سِيفاو» قائلًا:

- تحت أضلاعها، ملتصقة بجذعها، تخفيها بطريقة ما! وعندما تركض وتشتدّ سُرعتها، وقبل لحظة الانطلاق مُباشرة، تبرز وتبسطها، لقد شعرتُ باهتزاز جذع الجواد عندما كان البيدق يحملني عليه، وكأنّه أصيب بصاعقة.

- كيف لخيل أن تطير، وكيف أن يكون لها أجنحة كتلك! هبّت الرّياح مثيرة سحابة من الغبار، فاقشعرّت جلودهم، قال «طارق» وهو يحثّ خطواته نحوها:

- تلك عجائب مملكة البلاغة الّتي لن تنتهي!

حاولوا الاقتراب منها لكنّها كانت تتصرف عنهم، وقفوا وسطها في حيرة، قال «طارق»:

- فليختر كلّ منكما جوادًا مُناسبًا ويحاول ركوبه.

سأله «سِيفاو»:

- وكيف سنختار؟ فهم كثيرون ومختلفون!

قال «خالد» وهو يبتسم:

- «خَيْرُ الْخَيْلِ الأَدْهَمُ الأَقْرَحُ الأَرْثَمُ ثُمَّ الأَقْرَحُ الْمُحَجَّلُ طُلُقُ الْيَمِينِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَدْهَمَ فَكُمَيْتٌ عَلَى هَذِهِ الشِّيَةِ[1]»

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٩٦) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧٨٩)، وأحمد (٢٢٦١٤).

الأدهم: هو الذي يشتد سواده.

الأقرح: الذي في وجهه القُرحة بالضم، أي بياض يسير ولو قدر درهم.

ضربه «طارق» على كتفه وقال:

- صدق رسول الله ﷺ، أعشق الخيول السّوداء.

انطلق يفتّش بين الخيول عن جواد أدهم، وكلّما عثر على جواد أدهم كان يبحث عن قُرحة بيضاء في رأسه بقدر الدّرهم ليكون أقرحَ، ثُمّ يمسح على شفته العُليا وينظر ما بها من بياض ليكون أرثمًا، كان كلّما وجد الجواد الأسود أقرحَ أرثمَ ولا يجده محجّلًا ينصرف عنه، وأخيرًا عثر على جواده الّذي تجتمع فيه الصّفات الّتي يبتغيها، كانت قوائمه مُحجّلة بالبياض ما عدا قائمته الأماميّة اليُمنى، فأدرك أنّه من خير الخيل، فظلّ يمسح على رأسه، وكان الجواد يتشممه وكأنّه يعرفه.

عثر «خالد» على جواد آخر لونه أحمر قانٍ، بأذنيه وعرفه وذيله سواد شديد، وباقي جسده اختلط فيه السواد بالحُمرة. أمّا «سِيفاو» فأتاه فرس أبيض ووقف أمامه وأخفض رأسه طواعية له، دون أن يقترب هو منه أو حتّى يُحاول البحث عنه، فوضع يده على رأسه والتفت نحو رفيقيه وقال لهما:

- هذا جوادي، أحببته!

قال «خالد»:

- أبيض كقلبك يا «سِيفاو».

سألهما «طارق»:

الأرثم: أبيض الشفة العليا.

التحجيل: بياض في قوائم الفرس، أو في ثلاث منها، لا يجاوز الركبتين والعرقوبين.

طُلْق اليمين: بضم الطاء، فمعناه ليس بقوائمها اليمنى تحجيل.

كُمَيْت: أي بأذنيه وعرفه سواد وباقي الجسم أحمر.

الشِية: بكسر الشين معناها العلامة، وهي في الأصل كل لون يخالف معظم لون الفرس.

- هل سنُسمّيهم بأسماء مُميّزة؟

أجابه «خالد»:

- فلنركبها أوّلًا ونرى ما سيحدث.

سألهما «سِيفاو»:

- وماذا لو أسقطتنا؟

ضحك «طارق» وأجابه مرّة أخرى بنفس إجاباته الصّريحة والقاطعة:

- سنموت في الحال.

ضحك «سِيفاو»، كانت إجابات «طارق» دومًا مُباشرة، لكنّها الحقيقة، فلا مجال للتردد والخوف هنا، وهي مُخاطرة لا ريب، ويتطلّب الأمر قلب مُحارب شُجاع، لا يخشى المخاطر، ويثق في ربّه. صمت هنيهة ثُمّ سأله:

- وماذا لو..فرّقتنا وطار كلّ منها في جهة مختلفة؟

- لا أدري، لا بُدّ أن نُجرّب يا «سِيفاو».

قال «خالد»:

- «بيادق الظّلام» يستطيعون ركوبها، وتنصاع لأمرهم، وتنقلهم إلى أيّ مكان يُريدون الذّهاب إليه، وسنقدر نحن أيضًا.

سحب «سِيفاو» الرّمح القصير الّذي كان قد عثر عليه من خلف ظهره وغرزه في الأَرض، وبسط يده وقال بنبرة جادّة:

- حسنًا، فلنتعاهد الآن، لو فرّقتنا تلك الخيول سنبحث عن بعضنا البعض، وسنتعاون حتّى نُحرر«المستبعدين»، ونطلق سراحهم، ليعودوا لأوطانهم، ونقضي على الظّلم المبين الواقع عليهم.

أضاف «طارق» وهو يضع قوسه وسهامه أمامهما:

- لنُدافع عن الحُريّة الّتي منحها الله لنا، ولنكن شُرفاء في معاركنا.

أضاف «خالد» بعد أن أخرج السّيف الّذي عثر عليه ليغرزه بجوار الرُّمح والقوس وقال:

- فلنفعل هذا، فحياتنا معارك، وكُلّنا محاربون.

تلاقت كفوفهم، والتفّت الخيول حولهم فجأة وكأنّها تؤدّي القسم معهم، غابت الشّمس خلف الغيمات، ثُمّ برقت السّماء، وهبّت رياح لطيفة محملة برذاذ بارد خفيف، رفعوا رؤوسهم فتبللت وجوههم بالماء البارد، وقبل أن يهمّوا بتناول أسلحتهم برقت السّماء مرّة أخرى، فمرّ وميض فضيٌّ في الرّمح والسّيف والسّهام فأجفلوا منه، وانتظروا حتّى اختفى، ومدّوا أيديهم ببطء وتناولوها، اشتعلت النّيران الدّافئة في أعينهم، وركب كلّ منهم جواده، صهل الجواد الأبيض، وبدأ يسير بـ«سِيفاو» مهملجًا قبل أن يُسرع في العدو مُستعدًا للتحليق.

انحنى على عنقه فسمع صوت ضبحه وأنفاسه المُتلاحقة، شعر أنّه اتصل به وصارا ككيان واحد يركض ويُسابق الرّيح، ارتجّ كتاب «كُويكُول» في حقيبة «طارق» وهو يعدو ببطء خلفه، فأوقف الجواد وأخرج الكتاب من حقيبته، وقرأ الجملة الّتي ظهرت فيه للتوّ، ثُمّ صاح مناديًا على «خالد»:

- فلنتبع «سِيفاو» بسرعة، لا بدّ أن نذهب معه الآن إلى قبيلة «كتامة».

قفز الجواد الأبيض بـ«سِيفاو» في الهواء، اهتزّ كما لو أنّ صاعقة أصابته، برز الجناحان من جذعه وبسطهما في الهواء، وأخذ يحلّق به، تبعه جواد «طارق» الأسود، الّذي صاح صيحة مجلجلة في نفس توقيت

بروز الجناحين، وكان «خالد» يتبعهما بعد أن بسط جواده جناحيه وقد اختلط فيهما اللون الأسود بحُمرة قاتمة، فكانا جناحين بديعين بحقّ، بدت الخُيول وكأنّها تعرف الطريق، وتتبع بعضها في نظام، وحملت الثلاثة إلى ديار «سِيفاو»، فخفق قلبه وهي تهمّ بالهبوط، وتسللت دمعة من عينه.

دُقّت الطّبول بقوّة وتتابع، كان هناك حالة من الاستنفار في مدينة «كُويكُول»، استيقظ الجميع على صيحات الحرّاس وهم ينهرونهم ويُفتّشون البيوت، كانوا يقتحمون الأماكن باحثين عن السّجناء الثلاثة، فقد ألهاهم ما حدث مع عائلة «أبادول» عن تفقّدهم كما اعتادوا كلّ ليلة، أخرجوا أهل المدينة من «المُستبعدين» من بُيوتهم، وأوقفوهم في صفوف، كان الحرّاس في غاية القسوة كما لم يحدث من قبل، هربت «سارة» مع المرأة الّتي حُررت من الأسر، توجّهت بها نحو الحمّامات فغسلت وجهها وارتدت الثياب الخاصّة بالمدينة، ولفّت رأسها بشالٍ كباقي نساء المدينة فاختلفت هيئتها تمامًا، واختفت بين النّساء مع «سارة»، وكان الشّاب الآخر مع «قتادة» خلف مخازن الحبوب، كان «قتادة» يحلق له شعر رأسه بالموسى، حتّى لا يستدلّ عليه الحُراس، أمّا الأعمى فقد كان يتهادى بين اثنين من رفاق «قتادة»، وعندما أقبل الحرّاس واشتدّ الزّحام تركاه، فانزوى وجلس قرب جدار أقرب البيوت له، وسكن حتّى عثر عليه الحُرّاس، وأدخلوه في زنزانة «كمال» وزوجته.

كان قائد الحرس غاضبًا للغاية، توجّه نحو بيت «أبادول»، قطع «الحارث» الطريق عليه واعترضه وهو يسير وقال له:

- لم تُخبروني عن الزنازين الّتي تحت أرض مسرح الأُسود!

كان «أبادول» يجلس وبجواره حفيده «أنس»، وكانت «فرح» تقف متأهّبة بمطرقتها، لم تكن تلك نظرة الطّفلة الّتي كانت تبكي منذ ليلتين، بل صارت نظرة مُحاربة صغيرة، وكان «سُليمان» أكثر منها هدوءًا وهو يُقلّب الكرات في يده، رغم غياب أخته عنه، فقد كان ثابتًا.

«ماسيليا» تقف هناك، وما زالت «مرام» تعاني من فرط القلق على ولديها، بينما «حمزة» يقف خلفها وهي لا تشعر به، ويسمع كلّ شيء. تحدّث قائد الحرس قائلًا:

- سنُطلق سراح ولدك وزوجته يا «أبادول»، واخرجوا من «كُوِيكُول» أنتم وأبناء «سَرمد».

- غريب أمرك؟

- وما الغريب؟

- ألقيتم القبض علينا وسُقتمونا إلى هنا عنوة والآن تُطلقون سراحنا! ما سبب احتجازنا؟ بل ما سبب احتجاز كلّ هؤلاء؟ وما المُقابل لخروجنا؟

- دعك من السبب، فليس هذا من حقّك، أمّا المقابل.. السّجينان.

- أيّ سجينين؟

- اللذان كانا في زنازين الوحوش القابعة تحت أرض المسرح لقد أطلق رجالك سراحهما مع سجين ثالث قبضنا عليه للتوّ.

قال «أبادول» مستنكرًا:

- ليس لي رجال بالخارج!

- لا تتذاكَ عليّ يا «أبادول»، لا بدّ أن حفيديك يعملان مع «سِيفاو» وهم الّذين قاموا بإطلاق سراحهم، ولا بدّ أنّهم وراء هذا الأمر.

تبادل «أبادول» النّظرات مع «أنس»، قال «أنس» وهو يتمعّن في عيني قائد الحرس:

- لماذا تحتجزون هؤلاء بالّذات تحت الأرض، ولماذا ليسوا بيننا كباقي «المستبعدين»؟ فجميعنا في زنزانة كبيرة تسمّى «كُويكُول»!

لم يُجبه قائد الحرس، قالت «مرام» مع «حمزة» في آن واحد:

- رهائن!

لم تسمع «مرام» صوت ابنها «حمزة» وهو يتحدّث تزامنا معها، لكنّه ارتاح لمجرّد توارد نفس الخاطرة على رأسه ورأس أُمّه في ذات اللحظة، التفت قائد الحرس نحوها وقال:

- لا وجود لأيّ رهائن هنا.. وإن كنتم حريصين على سلامة «المستبعدين» بحقٍ فسلموا السّجينين لنا في الحال.

ثُمّ استدار مُغادرًا فرفع «أبادول» صوته قائلًا:

- هل يعرف حرّاس المكتبة بما يدور هنا؟

توقّف قائد الحرس فجأة، والتفت نحوه بارتباك وقال:

- وما شأنك أنت بهم وبنا؟

- أنسيت أنني مُحارب؟

- لو كُنت محاربًا لأخبرنا «المُحققون» عنك.

استدار مرّة أخرى مُغادرًا البيت، ما زال لا يثق بهم، ولا يُصدّق أنّهم من المُحاربين، فالمحاربون لا يصلون إلى أرض «الكَنَهْوَر» كما يُردد «المحققون» على مسامعهم دائمًا. تناول أسلحته مرّة أخرى وكانت كما هي على الأرض، كان لا بدّ من انتظار وصول «بيادق الظّلام» لينقلوا الخبر إلى «حَيْدَرَة»، فلن يتمكّن أحد من عبور حاجز «الكَنَهْوَر» للوصول إلى «المحققين» ليبلغوه. قرر قائد الحرس قلب المدينة رأسًا على عقب حتّى يعثر على السجينين، وكان في حالة من التّخبط، هل يُخبر أهل المدينة بحقيقتهما، أم لا، فالخطبُ جلل، والأمر جدّ خطير، ولا بدّ من مُشاركة السرّ مع شخص يثق به، أخذ يتلفّت حوله، لم يجد سوى «الحارث»، ذلك الطّبيب الّذي انضم إلى جماعتهم طواعية عندما عرض «كبير المُحققين» الأمر عليه، وجده لا يزال يقف خارج بيت «أبادول»، فوقف أمامه وغرز عينيه في عينيه قائلًا:

- اتبعني أرجوك، فهناك سرٌّ خطير أودُّ أن أُخبرك به.

١٢

قرية «شيليا»

خففت الخيول من سُرعتها تدريجيًا، هبطت بهم على السّهول الخضراء الّتي اعتاد «سِيفاو» دائمًا على الرّكوض فيها بجواده كلّ يوم قبل اختطافه، قبضت «بنات الرّيح» أجنحتها، وضمّتها لجذعها، واختفت الأجنحة وكأنّها لم تكن موجودة للتوّ! ترجّل «سِيفاو» عن جواده الأبيض وركض في حماس شديد، وقلبه يتدحرج ويسبقه على الطريق، تبعه «طارق»، وكان في غاية القلق عليه، وكأنّه قد قرأ شيئًا في كتابه للتوّ!

وكان يحمل له رمحه، ويتعجّل «خالد»، وبقيت «بنات الرّيح» ساكنة تنتظر عودتهم. عرفه رجال قبيلة «كتامة» فور أن أقبل بوجهه عليهم، تعالت صيحاتهم، وأخذوا ينادون بعضهم البعض، لم يتلقّوه بالترحاب، بل بالصياح على بعضهم البعض! تعجّب بشدّة! بدت الأجواء قاتمة ومنذرة بالخطر.

هرول نحو بيته ووقف يطرق الباب مناديًا على أُمّه، لم تُجبه، ولم يُجبه أحد ممن سألهم عنها، كانوا يطالعونه بنظرات متشككة يملؤها اللوم والعتاب، وكأنّه ارتكب جُرمًا ما، أقبل رجل ضخم الجُثّة وقام بتوجيه لكمة قويّة لوجهه فأسقطه أرضًا، وجثم فوق صدره، وكان من أقرب أصدقائه، ظلّ يسدد إلى وجهه اللكمات وهو يقول:

- الآن عُدت أيّها اللص؟

صاح «سِيفاو» قائلًا:

- ما بك يا «أذْرَار»[1]؟ ولم تضربني؟

- لأنّك خائن، تركت «أريناس» ليلة زفافكما وهربت مع «ماسيليا»، وسرقت مال ابن عمّك «أكسل» أيّها الغبي.

- لم أفعل! ولم أسرق! كان مالي ومال أبي، وهو من كان يعمل معي في تجارتي وأنت تعلم هذا، وما زلت على حبّي لـ«أريناس»!

انقضّ «خالد» على «أذْرَار» وجذبه من ذراعيه ودفعه بعيدًا عن «سِيفاو» وقال غاضبًا:

- اسمع منه أوّلًا، فقد قام «بيادق الظّلام» باختطافه.

- «بيادق الظّلام»!

- نعم، هذا ما حدث بالفعل، ونقلوه إلى أرض «الكَنَهْوَر».

ردد الحشد كلمة «الكَنَهْوَر»، وتعالت همهماتهم، وكان للاسم وقع مهيب على أسماعهم، صاح أحدهم:

- وأين «ماسيليا»؟

قال «سِيفاو» وهو ينقل عينيه بين وجوههم:

- يحتجزونها هُناك، وجئت أطلب العون منكم، ولكن.. أين أُمّي؟

ران عليهم صمت مطبق، انقبض صدر «سِيفاو»، أسرع يطرق الباب مرّة أُخرى، لم تُجبه أُمّه، دفع الباب بكتفه ليفتحه، أسرع «طارق» يُعاونه،

---

(١)أذْرَار اسم أمازيغي بمعنى الجبل.

فُتح الباب ودلف كالمجنون يُفتّش في غرفات البيت، لا وجود لأمّه الحنون، خرج وجسده يرتجّ خوفًا وغضبًا وقهرًا، وعاد ليقف أمام «أدّرَار» وسأله:

- أين أُمّي؟

- أخبرنا ابن عمّك أنّها خرجت من القرية للبحث عنك.

أسرع نحو بيت ابن عمّه «أكسل» وكان على مقربة من بيته، مرّ بداره الجديدة الّتي كان قد شيّدها ليتزوج فيها فوجدها مهدومة! هرول نحو بيت ابن عمّه والحيرة تنهش عقله، تبعه الحشد حتّى وصل إلى هناك، وقف أمام الباب وطرقه بقبضته القويّة وهو يناديه، خرج «أكسل» فأجفل عندما رآه أمامه، قال وهو يتصنّع الغضب ليُخفي ارتباكه:

- «سِيفاو»! أين كُنت أيّها الأحمق؟

- أين أُمّي يا «أكسل»؟

أجاب سؤاله بسؤال آخر قائلًا:

- لماذا هربت مع «ماسيليا»؟

- لم أهرب معها، خطفنا «بيادق الظّلام»؟

ثُمّ كزّ على أسنانه وأغمض عينيه وأعاد سؤاله وهو يحاول كبح غضبه:

- أين أُمّي؟

أجابه ابن عمّه بتلعثم قائلًا:

- خرجت للبحث عنك.

- كيف هذا وهي عجوز لا حول لها ولا قوّة، وكيف تركتها تخرج يابن العمّ؟

قال «أكسل» وهو يرفع صوته:

-نعم خرجت وحدها بعد فضيحتك مع «ماسيليا»، سرقتَ مالي وهربت معها وخنت «أريناس»، لا بدّ أنّ بينكما خطيئة.

صاح أحدهم:

- تركت الشريفة بنت الكرام ليلة زفافكما من أجل تلك اللعوب الحمقاء، يا لك من غبيّ.

أخذ «سِيفاو» يصرخ غاضبًا عليهم وهو ينفي ما يتّهمونه به، تجمّع أهل القبيلة حوله، وأقبل السيّد «مَاسين» في كوكبةٍ من جنوده، وعندما رأى «سِيفاو» وهو يصيح على ابن عمّه، أمسك بتلابيبه وجرّه نحوه وهو يتهدده قائلًا:

- الآن عُدت أيّها الزنديق الكاذب.

- سيّد «مَاسين»..أنا لم أهرب، أنا...

ضربه على رأسه بقبضته ضربة قويّة كادت تُفقده وعيه، لولا قوّة جسده وجمجمته ما تحمّلها! وكان «سِيفاو» لا يُصدّق أنّ أهله وعشيرته يفعلون به هذا، صاح «خالد» قائلًا:

- لم يهرب مع «ماسيليا»، اختطفهما «بيادق الظّلام» وكُنا مُحتجزين معهما في مدينة «كُويكُول» بأرض «الكَنَهْوَر».

تعجّب «مَاسين» وقال وهو يتمعّن في وجه «خالد»:

- أرض «الكَنَهْوَر»!

ذُهل السيّد «ماسين» وحرر «سِيفاو» من قبضة يده، ووقف واجمًا بينهم، تعالى الصّياح وكان «سِيفاو» يدافع عن نفسه، و«أكسل» يكيل إليه الاتهامات ببرود شديد رغم ما يسمعه منه، بينما لزم السيّد «مَاسين» الصّمت، وانقسم أهل القبيلة، كان هناك رجلان قد شهدا برؤية «بيادق الظّلام» ليلة اختفاء «سِيفاو»، لكنّ «أكسل» ظلّ يُكذبهما، وفجأة.. فُتح باب بيت «أكسل»، وأصدر أزيزًا لفت الأنظار تجاهه، وخرجت «أريناس» بكامل زينتها من البيت، فلمحها «سِيفاو»، التفتت الأعين تجاهها، قال «سِيفاو» باضطراب وهو يراها تخرج من بيت ابن عمّه:

- «أريناس»!

تلاقت نظراتهما، كان كمّ المشاعر الباردة في نظراتها له كبير حتّى أنّ صقيعها كاد يُمزّق مقلتيها، كيف هذا!

التفتَ «أكسل» نحوها وقال غاضبًا:

- ادخلي وأغلقي الباب ولا تظهري طرف ثوبك.. أفهمتِ؟

رمته «أريناس» بنظرة تشي بالكثير، ودلفت إلى البيت طائعة له بعد أن أومأ إليها أبوها برأسه موافقًا على كلامه، فوقع في نفس «سِيفاو» أنّها صارت زوجة «أكسل»، لم يجرؤ على طرح السّؤال عليه، لكنّ «أكسل» قالها له صراحة:

- صارت زوجتي!

كان رجال القبيلة يقفون وكأنّ على رؤوسهم الطّير، بينما كان «خالد» و«طارق» يتبادلان النّظرات، وكأنّ بينهما حوار صامت، هُناك شيء مُريب

يحدث هنا، يبدو أنّ أحدهم استغل غياب «سِيفاو» وسرق حبيبته، وماله، وطرد أُمّه من القرية، اقتربا من «سِيفاو» وجذباه عائدين به للخلف، وكان يرتجّ من فرط التأثّر، قال بصوت منكسر:

- أين أُمّي؟

كرر «أكسل» إجابته:

- خرجت منذ ليلتين للبحث عنك يا «سِيفاو»، وأنت ستخرج من قريتنا الآن.. أنت لا تستحقّ البقاء هنا.

هدر «سِيفاو» غاضبًا:

- لماذا تفعلون هذا بي؟

- لا مكان لك بيننا، سرقت مالي، وأسأت إلى زعيمنا.

- كيف سأسرق مالي! هذه تجارة أبي!

- أيّ مال تتحدّث عنه؟ لا مال لك عندي، هذه تجارتي وكُنت أعتني بك لأنّك يتيم، اخرج من قريتنا يا «سِيفاو».

سحب «سِيفاو» الرّمح من يد «طارق» ووقف متأهّبًا به أمام «أكسل» وقال بتنمّر:

- أيّها الخبيث الماكر، تعلم أنني لم أهرب مع «ماسيليا»، وأنني كُنت أعشق «أريناس»، وأنّ المال لأبي، أنت سرقت مالي، وسرقت «أريناس»، والآن تطردني من دياري!

أشهر جنود «مَاسين» سُيوفهم، وأحاطوا بـ«سِيفاو»، كاد أحدهم أن يقطع ذراعه بسيفه، لولا «خالد» الّذي استلّ سيفه الغريب وأطاح بسيف

هذا الجُنديّ، فتراجع وأقبل جُنديّ آخر على «خالد» ليقتله، فسحب «طارق» سهمًا من جعبة السّهام ورماه بقوسه فرشق في كتفه، صاح «مَاسين» قائلًا:

- توقفوا.

توقّف الجميع عن القتال، وعيونهم معلّقة بوجه زعيمهم، الّذي قال بصوتٍ جهوري:

- صدق «سِيفاو»، فقد أخبرنا جاراه أنّهما رأيا «بيادق الظّلام» يقومون باختطافه، لكننا لم نُصدّقهما، وصدّقنا تلك القصّة الملفقة عن فراره مع «ماسيليا»..

قاطعه «أكسل» قائلًا:

- سيّدي...

أشار إليه «مَاسين» إشارة أسكتته، ورماه بنظرة قاتمة انخلع لها قلبه، وأكمل قائلًا:

- تعال يا «سِيفاو»، أُريد أن أتحدّث إليك.

كان «مَاسين» يفهم الأفكار الّتي تتملّك «أكسل» الآن، فعندما يرغب شخص بكلّ ما أوتي من قوّة أن يُشوّه سُمعة آخر فإنّ جميع الطّرق تكون سهلة وحسنة ومُباحة.

سار «سِيفاو» بجوار زعيم القبيلة نحو بيته، وكان «أكسل» يتميّز من الغيظ، جلس «مَاسين» أمام «سِيفاو» وأمر جنوده بالخروج، وطلب «خالد» و«طارق» الدّخول فأذن لهما، وجلسا يُنصتان لحوار زعيم القبيلة مع صديقهما، الّذي نظر إلى «سِيفاو» نظرة متفحّصة ثُمّ قال بهدوء:

- صارت ابنتي زوجة لـ«أكسل».

- ولكن يا سيّدي..

قاطعه ونظر إليه بحزم قائلًا:

- صارت في عصمته، فلا تزد.

كانت إشارة يده مع نبرة صوته ونظرته كافية لكي يتوقّف «سِيفاو» عن ترديد اسمها، فهم الرّسالة في الحال.. فهو يُجلّه ويحترمه ويعدّه أبًا له. كان «ماسين» زعيمًا قويًا وله هيبة، ففي شبابه كان يُشبه الفيضان، لا يُعرف له شاطئ، ينزع رؤوس أعدائه باستمرار، ويُرسل الخائنين إلى الموت بحركة واحدة من حاجبيه، وجنوده يطيعونه لثقتهم به، وأوّلهم «سِيفاو». مرّت لحظة صمت طوت صفحة من حياة «سِيفاو» وانتهى الكلام عنها، وعاد يسأله في حيرة:

- وأُمّي؟

تغيّرت نبرة صوت «مَاسين» لأوّل مرّة منذ أن التقى بـ«سِيفاو»، وقال له بتأثّر شديد:

- ماتت أُمّك يا «سِيفاو».

أجهش «سِيفاو» بالبكاء، وأمسك برأسه بين كفّيه، وصرخ بصوت تخنقه العبرات:

- أُمّي..أُمّي.

ثُمّ رفع رأسه وسأله:

- كيف؟

- عثر جنودي بالأمس على جثّة امرأة خارج حدود قريتنا، وتم دفنها بطريقة لائقة بعد أن تعرّفت النّساء عليها، لم أُخبر أهل القرية بعد.

ثُمّ أضاف:

- لم أعلم أنّها خرجت وحدها إلّا الآن عندما أخبرك «أكسل»، ولو علمت ما تركتها تخرج أبدًا من قريتنا.

ثُمّ سكت «مَاسين» وعيناه تجوسان في قلق، كان يشعر أنّ «أكسل» هو من طردها وأخرجها، بدأت بعض الأمور تتضّح له الآن. ظلّ يُحدّث «سِيفاو»، يصبّره، ويهوّن عليه، أثنى على خلقه، وكيف كان دائمًا معجبًا بشهامته، وأخلاقه، وهو الفارس الحرّ النّبيل، كما أثنى على والده، ووصف له كيف كان يقاتل ويدافع عن قبيلته، ويصدّ الغزاة، وكان «سِيفاو» في عزلة عنه، يسمع لكنّه لا يُنصت، وكان يبكي بحرقة.

أمّا «طارق» و«خالد» فقد جلسا بجوار صديقهما في صمت، الآن يعرفان أنّه إنسان رائع بشهادة زعيم قبيلته، أدرك «سِيفاو» بفطنته أنّ زعيم قبيلته في موقف صعب، فتلك ابنته، وزوجها قويّ الشّكيمة، كما فهم من كلامه أنّ المال لن يُسترد بتلك السّهولة، فالوعود الّتي بدأ السيّد «مَاسين» يعده بها تشي بذلك، فقد وعده أن يزوّجه أجمل بنات القبيلة، ووعده بدعمه إن بقي بينهم ليقيم تجارته من جديد، وهذا يعني أنّ الأمر قد انتهى، ضاعت الحقوق، لكنّه لم يأبه إلّا لفراق أُمّه، حتّى أنّه كره اسم «أريناس»، وكره أن يُكرره «مَاسين» أمامه.

مرّت لحظات ثقيلة، وتحدّث «طارق» مع السيّد «مَاسين» عن مدينة «كُوِيكُول» و«المستبعدين» هناك، وعده أن يتحدّث إلى زعماء قبائل

الأمازيغ الأخرى، ليجمعوا جيشًا ويزحفون نحو جبال الخُرافة، لكنّه طلب منه وقتًا كافيًا ليفعل هذا. تبادل «خالد» و«طارق» النّظرات، فقد انتهى الحديث، أمسكا بذراعي «سِيفاو» وأسنداه وسارا به نحو بيته، وجلسا جواره حتّى يفرغ معين عينيه من البكاء.

ضرب الطبيب بقبضته على الطّاولة، وصاح غاضبًا:

- كيف لم تُخبروني؟

قال قائد الحرس في اضطراب شديد:

- كانت الأُمور تتم بسريّة شديدة، وكان بقاؤهم هنا لن يتعدّى يومين، وقد شدد كبير المحققين على سريّة الأمر.

صاح الطّبيب في وجهه:

- وكيف تركتم تلك الزنازين بدون حراسة خلال تلك السّاعات القليلة الماضية؟

- لم ينصرف الحُرّاس إلّا عندما اشتعلت حلقة النّار حول عائلة «أبادول»، حينها دُقّت الطّبول، فأسرعوا إلى هناك تاركين المسرح وأحاطوا مع البقية بأبناء «سَرمد» الّذين ظهروا فجأة!

- لا بدّ أن نُحذّر أهل المدينة.

- ستشيع الفوضى، وسينتشر الرّعب بينهم.

قال الطبيب بانفعال شديد:

- وقد يُصاب بعضهم بالأذى ويفقد حياته، لا بدّ أن نخبرهم حالًا.

- أنت طبيب، أمّا أنا فجنديّ، وأرى ألّا نُخبرهم، أحببت فقط أن أشاركك السرّ، لأنني... بدأت أفقد صوابي.

شبّك الطبيب يديه خلف ظهره وقال:

- لستُ جُنديًا مثلك، لكنني إنسان، ومهنتي تفرض عليّ أن أحترم حقّ كلّ نفس تسكن تلك المدينة، والأمر في غاية الخطورة، أخبرهم بطريقتك وإلّا سأُخبرهم بنفسي وليكن ما يكون.

- بوحنا ببعض الحقيقة سيحُتّم علينا البوح بها كاملة، وسيسألوننا الكثير من الأسئلة.

- أليس هذا أفضل من تركهم عرضة للخطر وللموت؟
صمت قائد الحرس هنيهة وقال:

- الوقت ضيّق، وكبير المحققين لن يأتي إلّا غدًا مع «بيادق الظّلام» لتنفيذ مهمّتهم.

- اخرج للنّاس، وأدّ الأمانة، فأنت مسئول أمام الله.

تردد قائد الحرس للحظات، لكنّه اقتنع في النّهاية بكلام الطّبيب «الحارث»، خرج للنّاس وتبعه الطبيب، ووقفا في ميدان من ميادين مدينة «كُويكُول»، وبدأ قرع الطّبول لينتبه أهل المدينة، وليستمعوا لكلمته، وعندما التفّ الحرّاس حوله لحمايته، بدأ يتحدّث إلى «المستبعدين»، وكان الليل قد أرخى سدوله على المدينة، وأُضيئت الشّعل، فانعكس لهيبها على وجوه النّاظرين إليه، رفع قائد الحرس صوته قائلًا:

- السُّجناء الثلاثة الّذين تم تهريبهم من الزنازين القابعة تحت أرض مسرح الأسود في غاية الخطورة، ووجودهم بينكم يجعلكم عرضة للقتل.

علت الأصوات، وشاعت الفوضى، صاح «قتادة»:

- وما الخطورة من رجل أعمى! وامرأة مسكينة؟ وشاب لا يختلف عنّا؟

- الشّاب سفّاح وقاتل مأجور، تم إلقاء القبض عليه بعد ذبحه ثلاثين ضحيّة، منهم تسعة أطفال من قرية من قرى مملكة الشّمال.

امتقع وجه «قتادة» وسقط قلبه بين أضلاعه، تلفّت حوله فلم يجد الشّاب الّذي حلق له شعر رأسه للتوّ، تبادل النّظرات مع «تميم» ووقفا يستمعان لبقيّة كلام قائد الحراس الّذي أكمل وسط صياح العامّة قائلًا:

- والمرأة سفّاحة شرسة، لا تكتفي بقتل الفتيات وحسب، بل وتقوم بنهش لحومهن بأسنانها، فهي من آكلة لحوم البشر.

فزعت النّساء، وتلفّت «قتادة» باحثًا عن «سارة»، فلم يجدها بين الجموع حوله، كانا قد اتفقا على اللقاء قرب مخزن الحبوب، لينتظرا معًا «ماسيليا» الّتي من المفترض أن تأتيهم بخبرٍ من «أبادول» و«أبناء سَرمد» يطمئنهم بأنّهم سيحمونهم أيضًا خلال معركتهم مع الحُرّاس. سأل أحدهم قائد الحرس قائلًا:

- والسّجين الثّالث؟

- ساحرٌ لا بد من قتله.

تعالت الأصوات:

- كاذبون.

- كيف هذا وهو ضعيف هزيل أعمى!

- رأيناه اليوم يسير ويتنقّل بيننا.

صرخ قائد الحرس في وجوههم قائلًا:

- ذاك الجسد الضئيل قادر على فعل ما لا يخطر بعقولكم، إنّه خبيث ومُضلّ ومُخادع.

شاعت الفوضى، وكان أهل المدينة يُطالعون وجوه بعضهم البعض في حيرة وارتياب، ترك الجنود حصار بيت «أبادول» بأمر من قائدهم، فهناك ما هو أكثر خطورة الآن، وبدأوا يفتّشون المدينة، وصل الخبر لعائلة «أبادول»، فانقبض صدر «أنس»، كان قلقًا للغاية، فقرر الخروج للبحث عن ابنة أخته، تبعه «حمزة» وسار خلفه بلا حول له ولا قوّة، فهو لا يزال خفيًّا، ولا يملك أن يفعل شيئًا ليُساعده، وبدأت «شفق» تبحث هي الأخرى عنها.

ادلهمّت السّماء بالغيوم تنعي اليوم الرّاحل، وأرسلت مطرًا هتونًا كالبُكاء تندب وفاة أمّ «سِيفاو».

يبكي الرّجال قهرًا عندما تموت أُمّهاتهم، مهما بلغت قوّتهم، ومهما علت مكانتهم، وحتّى لو كانوا من المُحاربين، ما أضعفنا ويا لهشاشتنا حين نقف في هذه الدّنيا وحدنا بعد وفاة أُمّهاتنا وآبائنا، بظهور مكشوفة، وأعباء كُنّا لا نشعر بها في وجودهم، لكنّها ثقلت على أكتافنا عندما

غابوا عنّا تحت التّراب. غابت أُمّ «سِيفاو» فغاب معها الأمان، والحصن، والسّند، والقلب الحاني الّذي كان يستقبله بابتسامة، ويودّعه بالدّعاء.

كفكف «سِيفاو» دموعه، وخرج يبحث عن قبر اُمّه، فدلّوه على مكانه، فجلس يُحدّق فيه في صمت، ما عاد لديه دموع ليذرفها، كان يُشبه تمثالًا من الشّمع تعرّض لوهج شديد فجأة فبدأ ينصهر، استدار فجأة وسار غاضبًا نحو بيت «أكسل»، كان يدقّ الأرض بقدميه، وكأنّه على وشك خوض معركة، هرول «طارق» خلفه ووقف قبالته يعترض طريقه وقال:

- لا تفعلها يا «سِيفاو»، لا تكن أحمقَ.

- ابتعد عن طريقي.

دار «خالد» من الجهة الأخرى ووقف قبالته وقال:

- دعنا نتحدث أولًا، ولنعد إلى دارك.

ظهر «أدّرَار» فجأة، وكان من أعزّ أصدقاء «سِيفاو»، كان يشعر بالخجل من نفسه ومما فعله بصديقه، قال وهو يقترب منه على استحياء:

-لا تفعلها يا «سِيفاو»، فلنعد لدارك، ولنتحدّث معًا.

طالعه «سِيفاو» بعينين انزوى فيهما حزن شديد، وقد انعقد بين حاجبيه غضب جارف، ورغبة حارقة في الانتقام، وقال وهو يزجره:

-اغرب عن وجهي الآن.

أخذ «سِيفاو» يدفعه في صدره، فعانقه «أدّرَار»، وأخذ يتحمّل ضرباته حتّى هدأ بين ذراعيه، وسار معه إلى بيته، وخلفهما «طارق» وهو يتلفّت كالصقر يراقب أفراد القبيلة يمنة ويسرة، مما لفت نظر «خالد» فهمس له:

- لماذا أنت قلق هكذا؟

- الكتاب يا «خالد»، كتاب «كُويكُول».

- ما به؟

- يظلّ يحذّرني من خطرٍ يتهدد «سِيفاو».

- ألم تُخبرني أنّ الكتاب أظهر ما يدعونا للإسراع إلى قبيلة «كتامة»؟

- نعم، وهذا ما قرأته بالفعل، لا بدّ أنّ لوجودنا هنا سببًا ما!

- أخبرني عن الجمل الّتي تظهر به.

- كلّها ألغاز، وجمل ليست صريحة لكنّها تخبئ ألف معنى عن الخيانة.

- فلننتبه إذًن.

سارا خلف «سِيفاو» و«أدرار» وأكملا حوارهما، قال «طارق» سائلًا «خالد»:

- كيف سنقنع «مَاسين» بالذّهاب معنا لإنقاذ «المستبعدين»؟

- لا أدري يا «طارق»، أُفكّر بالذّهاب إلى المكتبة العظمى الآن، فعلمهم بالأمر أكثر أهمية من جيش «مَاسين»، فهم يستطيعون إمدادنا بجيش أكبر منه.

- انتظر قليلًا حتّى نرى ما سيفعله «سِيفاو»، ولعلّنا نذهب معًا.

عادوا إلى البيت، كان «سِيفاو» مُتعبًا، تورّم نصف وجهه وازرقّت عينه اليمنى من اللكمات الّتي وجهها إليه «أدْرَار» بعد دخوله القرية، وكان رأسه يؤلمه من ضربة «مَاسين» الشديدة عليها، وأشدّ الألم كان

بقلبه الّذي كان يوجعه لفراق أمّه. جلس «أدْرَار» يروي له ما حدث منذ اختفائه، وكان يُنصت إليه وهو يُحدّق في الجدار وكأنّه منوّم. أعدت لهم الجارة العجوز طعامًا وجاءت تواسي «سِيفاو»، جلست تطعمه بيد ترتعش، وعينين محتقنتين من كثرة البكاء على أُمّه، أخذ يسألها عنها، وآنسته بكلماتها الحانية.

كان رأسه يسقط من شدّة التعب فقد أرهقه البكاء، والضرب، وأرهقته الصّدمات المتتابعة. قرر «طارق» و«خالد» المبيت معه تلك الليلة، وليخرجوا صباحًا من القرية إلى المكتبة العظمى، وكذلك قرر «أدْرَار» المبيت معهم، وخلدوا جميعًا للنوم بعد هذا اليوم عصيب.



غضب «قتادة» غضبًا شديدًا للفوضى الّتي حدثت بسبب انصياعه لرأي «سارة»، وتوجّه نحو قائد الحرس، واعترف له بما حدث، فثار عليه قائد الحرس، فأخبره «قتادة» أنّ «سارة» استغاثت به هي و«ماسيليا» عند سماعهما لأصوات تصدر من زنزانة تحت الأرض، وأنّه ظنّ أنّه يُنقذ أنفسًا بريئة من الأسر. تعالت الأصوات تسبّ عائلة «أبادول»، فهم السبب فيما يحدث، وتعالت أصوات تدافع عنهم لكنّها كانت أقل عددًا. ما زال أبناء «سَرمد» يضفون جوًا مهيبًا جعل أهل المدينة ينفرون من عائلة «أبادول».

كان السّفاح قد سمع ما صرّح به قائد الحرس، ورأى «قتادة» وهو يقبل عليه، فقرر حماية نفسه، وأخذ أوّل رهينة استطاع أن يصل إليها.. «أمنوكال».

كان الصّغير خائفًا مما سمعه، فأخذ يُطمئنه، وأمسك بيده وسار به نحو مخازن الغلال، وكان «أمنوكال» قد رآه يسير مع «قتادة» بعد حلاقة شعر رأسه مباشرة وهما يتنقّلان في طرقات المدينة فاطمأنّ له، فهو يعرف «قتادة»، عندما بدأ يبتعد به شعر «أمنوكال» بالخطر، فحاول الهروب، لكنّه ضغط على عنقه ثُمّ ضربه بطريقة أفقدته وعيه في الحال، فحمله وركض به خلف المخازن الّتي كانت دومًا نقطة ضعف مدينة «كُوِيكُول».

اختبأ وأخذ يُراقب ما يحدث من بعيد، وكان قد احتفظ بالموسى الحادّ الّذي كان «قتادة» يحلق له به شعر رأسه منذ ساعات قليلة. رأى الحُرّاس يقتربون، فأمسك بشعلة وألقاها على أشولة الحبوب المُتكدّسة وأشعل النّار فيها ليُضللهم، فانتشرت بسرعة شديدة وملأ دخّانها الأسود المكان، وهرب إلى ساحة أخرى من ساحات «كُوِيكُول».

كانت «سارة» تركض مع تلك المرأة، وكان لا بدّ من الاختباء، فلجأتا إلى حانوت بالسّوق، وجلست بجوارها، وكانت قد جُرحت في ساقها فأثارت الدّماء شهيّة المرأة وبدأت تزوم، فقد كانت تحت ضغط شديد، وكان الهروب المستمر والرّكض خلال السّاعات القليلة الماضية يثير أعصابها، فلاحظت «سارة» تغير سلوكها، وحاولت الابتعاد عنها، لكنّ المرأة كانت قويّة البنية، فاجأتها بالانقضاض عليها، اقتربت بأسنانها من عنقها، وكادت تطبق على أوردتها، لكنّ «سارة» غرزت أصابعها في عينيها الجاحظتين وهرولت خارجة من الحانوت الّذي كانا يختبئان به، وظلّت المرأة تُلاحقها وهي في حالة اهتياج شديدة، تودّ أن تنهش لحمها بأسنانها القذرة. كانت الفوضى تعمّ المدينة.

الجميع خائفون، والحُرّاس مُتعبون، والحرائق تزداد، تلك الليلة لن ينام أحد من سكان «كُوِيكُول»، وكانت أسوأ ليلة مرّت على «المستبعدين» منذ وصولهم.

فتح «سِيفاو» عينيه وقد انتبه عندما شعر بيدين قويتين تخنقانه وتضغطان على حنجرته، حملق في الظّلام وهو لا يُصدّق، إنّه «أدْرَار» يحاول قتله، حاول أن يدفعه ليتخلّص من قبضته، كان قد بدأ يرى ما حوله بشكل باهت، ظلمة سوداء بدأت تطغى على نصف رؤيته، وهنت أطرافه، وشعر أنّه....

ضرب «طارق» «أدْرَار» على رأسه بجرّة خزفية كانت بالغرفة، ثُمّ هوى «خالد» على ظهره بقبضة يده، كان «سِيفاو» يشهق محاولًا استرداد أنفاسه وهو يتابعهما وهما يتشاجران مع «أدْرَار»، قيّداه وجلس «خالد» قبالته وبدأ يستجوبه:

- كم ثمن خيانتك لصديقك؟

لم يُجبه «أدْرَار»، كان جبينه يتفصّد عرقًا، بينما كان جرح رأسه ينزف بعد أن حطّم «طارق» الجرّة على رأسه، سأله مرّة أخرى بعد أن صفعه:

- لا بدّ أن «أكسل» كان سخيًا معك، كم دفع لك؟

استمرّ «خالد» و«طارق» في ضربه ليعترف، وكان يسبّهما ويلعنهما مع كلّ ضربة منهما، اشتدّ عليه «طارق»، فصاح «أدْرَار»:

- «أريناس».

انتفض «سِيفاو» عندما سمع اسمها وسأله:

- ما بها؟

- لم تُحبّك يومًا يا «سِيفاو»، وقد خانتك.

- مستحيل! أنت كاذب، لقد شُوهت سمعتي، وكانت مضطرّة للزواج من «أكسل» بعد اختفائي بتلك الطريقة.

- كم أنت ساذج! كانت الخُطّة أن أقتلك ليلة زفافكما، فقد أجبرها أبوها على الزواج منك، ولم يجرؤ أحد على معارضته، فلجأت لـ «أكسل»، وكان بينهما حوارات ونظرات، ولقاءات في الخفاء، نصحها أن تتزوجك، بشرط ألّا تمسّ شعرة منها، واستأجرني لأقتلك، لترثَ هي أموالك ثُمّ تتزوج من «أكسل»، ووافقت! لكنّ «بيادق الظّلام» أفسدوا الخطّة باختطافك، وتعلّقت الغبية «ماسيليا» بقدميك، فكانت فرصة لإطلاق الإشاعات عن فراركما معًا.

صفعه «سِيفاو» وظل يقول بعصبيّة شديدة:

- كاذب.. كاذب!

ران عليهم صمت ثقيل، قال «خالد»:

- كيف انطلت على أهل القرية تلك الخدعة الدّنيئة! لماذا سيهرب «سِيفاو» مع «ماسيليا» وقد كان يستطيع الزّواج منها بكلّ بساطة!

- كان من السّهل خداعهم، فالجميع هنا يعلم أنّ السيّد «مَاسِين» هو من اختار «سِيفاو» لابنته، وهو الّذي قرر هذا، واستدعى «سِيفاو» عدّة مرّات لبيته بحجّة الشراء ليعرضها عليه، فهو من خيرة

شباب القبيلة، وهو يُحبّه، لقد أخطأ السيّد «مَاسِين» عندما أجبر ابنته على هذا، فالّزواج ليس بالقهر والإجبار.

- ولماذا تُخبره بهذا الآن؟ هل استيقظ ضميرك فجأة؟

- حتّى يخرج من قريتنا.. ارحلوا به من هنا إن كنتما تهتمّان لأمره.

قال «طارق» وهو يرميه بنظرة ازدراء:

- يا لك من مُخلص! أتخشى الآن عليه؟

نكّس «أدّرَار» رأسه، فسأله «خالد»:

- ولماذا يُغرونك بالمال الآن لتقتله؟ فقد تزوّجا ولديهما المال والسيّد «مَاسِين» باركهما!

- يخشون انتقام «سِيفاو»، لا تغرّنكما دموعه على أمّه، أنتما لم ترياه في الحروب، «سِيفاو» مخيف عندما يُجندل بسيفه.

كان وجه «سِيفاو» شاحبًا، بدأت شفتاه ترتجفان، لم يتحدث كثيرًا، لكن صديقيه كانا يشعران به، قال بصوت متحشرج:

- سنذهب إلى السيّد «مَاسِين» الآن.

قال «أدّرَار»:

- سأنكر كلّ شيء أخبرتُك به!

- سيشهد «خالد» و«طارق» بما سمعاه الآن.

- لن يصدقهما، الجميع يرتاب في أمرهما.

خرج «سِيفاو» وهو يجرّه، قال «طارق» ليستوقفه:

- لن يعيد هذا «أريناس»، وهي حقيرة ولا تستحقّك.

ثُمّ أضاف وهو يثقبه بنظراته:

- كما أنّك لم تتوقّف عن الحديث عن «ماسيليا» طوال الطّريق! فلنعد إليها ولتنس سراب الماضي.

كان «طارق» كعادته مباشرًا في كلماته، أضاف باقتضاب:

- ولن يعيد هذا أُمّك، فالأموات لا يعودون! الآن أنت والزّمن وجها لوجه، أنفك ملتصق بأنفه، فلا تستسلم.

كانت الحقيقة واضحة، لكننا أحيانًا نحتاج لمن يضع لنا عليها إضاءة، لتزول الغشاوة عن عيوننا، ونفيق من صدماتنا الّتي تخمّر عقولنا. أضاف «خالد» على كلمات «طارق» الأخيرة:

- والمال لا يُبكى عليه يا صديقي.

- ولكن هذا حقّي وتلك دياري! سأستردّ كلّ شيء وسأنتقم لأُمّي.

- أتظنّ السيّد «مَاسين» سيتركك لتقتل زوج ابنته؟

وضع «خالد» يده على كتفه وأضاف:

- لن يتوقف النّاس عن ترديد الإشاعات عنك، ولو توقفوا سيختلقون مرّة أخرى إشاعات غيرها ليلصقوها بك وبـ«ماسيليا»، هكذا النّاس، ألسنة لاهثة تخوض في الأعراض ولا تتوقّف عن الثّرثرة، ستظلّ تُبتلى بالنّاس حتّى لا تركن إليهم، وتركن إلى الله وحده.

كان «سِيفاو» حزينًا، ماتت أمّه وحيدة في الصّحراء، وكانت هي كلّ أهله، وصار كالغصن المبتور من شجرة عتيقة، وكان ابن عمّه «أكسل» هو

من مزّق وشائجه، حتّى أقرب أصدقائه الّذي كان سخيًا معه يقدم على قتله من أجل المال، والحبيبة «أريناس» كانت مُخادعة ولئيمة، اجتمعت في صدره كلّ مشاعر البغض والنفور منها، حتّى أنّه يكره نفسه لأنّه أحبّها يومًا ما، ودّ أن يحطّم رأسه بيديه ليُخرج صورتها منه، ما أقبح الحياة حين تسقط الأقنعة، كان يسمع عن الحقد، والغيرة، والخيانة، والخداع، ومكر الماكرين، والسّواد الكامن في قلوب البشر، لكنّه كان يظنّ أنّ كل هذا بعيد عنه، لم يسئ الظنّ بأحد من المُقرّبين منه أبدًا، كان يستقبل الجميع بقلب أبيض نقيّ، لا يحمل الضغينة لأحد، فقط يحمل الحبّ، الحبّ الّذي يؤلمه الآن. كان هذا كافيًا لكي يدفعه للرحيل عن تلك القرية للأبد.

أطلق سراح «أدْرَار»، فهرب كالكلب الضّال من أمامهم وهو يتلفّت حوله. وكان الفجر قد اقترب، طلب «سِيفاو» منهما الرّحيل، فليذهبوا أوّلًا للقاء حرّاس المكتبة العظمى، قبل الاستعانة بجيش «مَاسِين» لإنقاذ المستبعدين، فما عاد يُطيق البقاء هنا للحظة واحدة، فانطلق الثلاثة يسيرون في الطرقات الخالية من المارّة، وقبل أن ينصرفوا أمسك «سِيفاو» بشعلة من الشّعل الّتي تضاء بها جنبات القرية، وعاد إلى بيته، سكب زيت المصابيح على الأثاث، وأشعل النّار بالبيت، ووقف حتّى رآه يحترق أمام عينيه وهو يقول:

- ذهبت الوجوه، ومضت الأرواح، وماتت الدّار.

التزم الشّابان الصّمت لدقائق دون أن ينبس أيّ منهما له ببنت شفة، وقف «سِيفاو» يجترّ الذّكريات، وكان هذا سفرًا مؤلما لأعماق ذاته، تذكّر لَعِبه أمام تلك الدّار وهو صغير، رفاقه وجيرانه، وجه أُمّه الضّاحك وهو يلعب، ووجهها الباكي عندما كان يمرض، أحضانها عندما كانت تُغرقه

كان «أنس» يركض من مكان لآخر طوال الليل، لم يعثر على «سارة»، وكانت «شفق» قد عادت لوالدها للمرّة الرّابعة لتتوسّل إليه ليسمح لها بالعمل على أرض مدينة «كُوِيكُول» لانقاذ عائلة «أبادول»، وكان يرفض باستمرار.

وكان إقدامها على استخدام قواها على أرض المدينة سيُعرّضها لفقدان قدراتها، وكان هذا هو العقاب الّذي هددها به أبوها. وكان أبناء «سَرمد» يعرفون هذا، فاكتفوا بصدّ أيّ هجماتٍ عن أفراد العائلة.

مرّ «أنس» بطريق ضيّق بين البيوت، ظهر «حنبش» و«حنبريت» فجأة أمامه، رفع «حنبش» ذراعه الأيمن، ورفع حنبريت ذراعه الأيسر، وشبّكاهما معًا، وطلبا من «أنس» أنّ يمرّ تحت ذراعيهما ليصل إلى «سارة»، تردد لوهلة، لكنّه تذكّر عصا «أبادول»، والكرات الّتي أعطياها لـ«سُليمان»، فمرّ دون تفكير، ووجد نفسه أمام «سارة» وهي تقاتل تلك المرأة المتنمّرة الّتي كانت تزوم كالذّئب المفترس، وتحاول نهشها بأسنانها، التفت يبحث عن شيء ليضربها به، لم يجد، فقرر مهاجمتها، اقترب مسرعًا وركلها بقدمه فالتفتت نحوه في غضب، وأقبلت عليه تهاجمه، صاح موجها كلامه لـ«سارة» وهو يقاتلها:

- احذري فهي من آكلي لحوم البشر.

أجفلت «سارة»، كانت تظنّها امرأة مريضة تودّ عضّها فقط! أمّا أن تأكلها! انخلع قلبها لمجرّد تخيل هذا الأمر المريع، أسرعت نحو الشّعل المعلّقة قريبًا منهم لتحرقها بها، وحاولت الوصول لواحدة منها، لكنّها كانت عالية، كان لا بدّ من حجر لتقف عليه، لم تجد حولها أيّ حجر،

ظهر «حنبش» و«حنبريت» مرّة أخرى فجأة أمامها، مدّ «حنبريت» يده لها بسوط أسود وقال وهو يحدّق في عينيها:

- لا تأخذنَّكِ بها رأفة، فقد التهمت الكثير من الفتيات.

أمسكت «سارة» بالسوط، واقتربت منها، وانتظرت حتّى تخلّص «أنس» من قبضة المرأة بصعوبة، وأقبلت «سارة» عليها، وبدأت تضربها بالسوط، ضربة جهة اليمين، ثُمّ ضربة جهة اليسار، فبدأ السّوط يحدث صوت فرقعة ويضيء ويتوهّج وكأنّه لسان من نّار، فاشتعلت ثياب المرأة، وبدأت تدور في مكانها كالثور الهائج، تركاها تتدحرج على الأرض والنّار تلتهم ثيابها، وارتمت «سارة» في حضن خالها. كان «أنس» يشعر بالضّيق والارتباك الشّديد، أراد قتل تلك المرأة، لكنّه خشي على «سارة»، فهو لا يحمل سيفًا ولا خنجرًا ليقتلها، نجحت المرأة في إطفاء النّار بتدحرجها المستمرّ على الأرض، تلفّت «أنس» ثُمّ قال للقزمين:

- أما من طريق قصير نعود به لبيتنا؟

- بلى.

سألهما سريعًا:

- وهل من الممكن أن تنقلانا خارج مدينة «كُويكُول»؟

نكّسا رأسيهما في حزن وقالا معًا:

-لا.

رفعا ذراعيهما مرّة أخرى، فوضع «أنس» يده فوق رأس «سارة» ليخفضها لتمرّ من تحت ذراعيهما، وهزّ «حنبريت» رأسه ليشجّعها لتمرّ، ففعلت عندما سمعت صوت المرأة مرّة أخرى وهي تقترب، وتبعها «أنس»،

ووصلا للبيت، حيث كان باقي أفراد العائلة قلقين للغاية. حمدوا الله على رجوع «سارة» بسلام مع خالها، وسألوهما كيف ظهرا فجأة، فأخبرهما «أنس» عن القزمين. كانت «شَفق» هناك، فسألها «أنس» عنهما، فقالت وهي تهزّ كتفيها:

- قزمان! ومن أين أتيا؟ يا للعجب!

أسرعت «شَفق» بالانصراف بعد أن أخبرتهم أنّ الشباب استطاعوا ركوب بنات الرّيح، وأنّهم خرجوا من أرض «الكَنَهْوَر»، وأنّ أخبارهم انقطعت عنها وعن أبناء «سَرمد» فور تخطّيهم حاجز «الكَنَهْوَر»، وتركتهم وكان الفجر قد نشر ضوءه في جنبات «كُويكُول»، وما زال دخّان النّار يتصاعد من حرائق مخازن الحبوب، وباقي الحرائق الّتي اشتعلت فجأة في أكثر من مكان بالتتابع! وقد تعاون أهل المدينة في إطفائها، واستغرقوا وقتًا طويلًا وهم يحملون الماء وينقلونه معًا ليطفئوها.

بدأ أهل المدينة يتوجّهون للنوم بعد أن غلّقوا الأبواب، كلّ مجموعة منهم تعرف بعضها البعض اجتمعت في مكان، وأحكموا إغلاقه، خوفًا من السّفاح الطليق، كان قائد الحرس يجوب مع الجنود طرقات المدينة بنفسه، فالسّفاح طليق وكان يشعل النّار في النّخيل، وفي العربات الخشبية، ويسرع بالهرب وتغيير مكانه. كانوا يبحثون عنه في كلّ مكان وقد بدت عليهم آثار التعب والإرهاق. وفي بيت من بيوت المدينة، كان المسكين «أمنوكال» يبكي وهو مُقيّد، كان السّفاح يهدده من آن لآخر بسلاحه، ليتوقف عن الصراخ المكتوم، فقد كمم فمه لكيلا يصل صوت بكائه لأهل المدينة، لولا أنّه ينوي استخدامه كرهينة ليخرج من أبواب تلك المدينة لذبحه في الحال، خرج ليختطف رهينة أخرى، وقرر إخفاء عدّة رهائن في أماكن متفرّقة ليتمكّن من استغلالها إن قاموا بمطاردته.

في تلك اللحظة، كان «ميسرة» يبحث عن صديقه، لم يذق الغلام طعم النّوم، وعندما سكنت المدينة، وتوجه النّاس للنّوم، هرع «ميسرة» إلى بيت الطبيب يطلب منه العون ليعثر على صديقه الوحيد «أمنوكال».

«حنطريرة»

شعر «حمزة» بروحه تنسحب من بين جنبيه، عندما كان يهرول خلف «أنس» في طرقات «كُويكُول» باحثًا عن «سارة»، مادت الأرض تحت قدميه، وابتلعته فجأة فوجد نفسه بين يدي «حنطريرة» مرّة أخرى، في نفس المكان، بوادي «الهماليل»، والدّائرة تحيط به وهو يجلس فوق الرّمال، ما زال لا يراه، لكنّه يكتب له على الرّمال بأصبعه داخل محيط تلك الدّائرة. كتب «حنطريرة» على الرّمال:

- لم تلتقِ بالمُحارب، ولم يرك أحد هناك، كُنتُ معك في كلّ خطوة، وسمعت كلّ شيء.

رفع «حمزة» يده بتلقائيّة وتحسس الوشم على جبينه، ثُمّ كتب يسأله:

- أنت من أخفيتني عن «رَيْهُقانة»؟

- نعم.

أجفل «حمزة»، شعر لوهلة أنّ هناك ما يخفيه عنه ذاك الشّيخ، سأله مُسرعًا:

- هل وَسَمتني أنت أيضًا؟

- لا.

- السّجين المُسنّ.

- ما به؟

- سأُظهرك لـ«رَيْهُقانة»، وعليك أن تطلب منها أن تذهب إليه لتقتله.

- وهل ستفعل؟

- ستفعل، فهي في أمسّ الحاجة لقتله، فقد ضعُفت، وهي تحتاج للمزيد من القوى لتتحرر من احتياجها وتبعيتها لـ«أسحم».

- وماذا عن أسرها لي؟ هل سأتحرر منه؟

- كما أخبرتك، يحتاج الأمر لحبّ أقوى من عشق رَيْهُقانة لك.

توقّف «حمزة» هنيهة وعاد يكتب له:

- أنت تعيدني لسلطانها من جديد بتلك الطريقة!

أحجم الشّيخ عن الكتابة ولم يردّ، فكتب «حمزة»:

- لقد أرسلتني إلى أرض «الكَنَهْوَر» لآتيك بخبر هذا السّاحر، وليس لمساعدتي، أليس كذلك؟

- بلى، وهُناك شيء آخر.

- ما هو؟

- أخبر جدّك الأكبر «أبادول» أن يطلب لقاء «حَيْدَرَة».

- وكيف سأبلغه وهو لا يراني ولا يسمعني؟ جميعهم لا يشعرون بي.

- اكتب لهم كما نفعل الآن.

- جرّبت ولم أُفلح!

- لأنّك لم تكتب على الرّمال، بل كُنت تحاول تشكيل الحروف على سطح الدّقيق، والعجين، والطعام!

اقشعر جذع «حمزة»، يبدو أنّ «حنطريرة» يعرف كلّ صغيرة وكبيرة مرّ بها هناك! حتّى محاولاته العفوية للتّواصل مع عائلته! كتب له يسأله:

- ولماذا الرّمال بالذّات؟

مرر «حنطريرة» أصبعه على الدّائرة الّتي تحيط بـ«حمزة» على الرّمال، كان قد نقش على تلك الرّمال طلاسم غريبة وكررها على طول خطّ الدّائرة، أجفل «حمزة»، حتّى أنّ أصابعه ارتجفت هذه المرّة وهو يكتب له:

- أنت الّذي سمحت لي بلمس الخُبز الّذي صنعه جدّي كمال عندما كُنت جائعًا، أليس كذلك؟

- بلى، ولو جرّبتَ لمس اللحم بعد الخبز لأمسكت به، لكنّك كُنت يائسًا، اكتفيت بالخبز ولم تعد التّجربة، كان من الضروريّ أن تأكل شيئًا لكي تبقى حيًّا.

مرّ «حمزة» بلحظات عصيبة، شعر بالهوان، والضّعف، والعجز، أن تكون أسيرًا لأحدهم فهذا أمر مؤلم، وأن يتبادل الآخرون أسرك وينقلوك وكأنّك لعبة في أياديهم فهذا مهين، وألّا تملك أن تقرر خطوتك القادمة فهذا انكسار شديد، وأن تُمنع من الكلام مع أقرب النّاس إليك فهذا القهر بعينه، حتّى ما تشتهيه من الطّعام هُناك من يتحكّم بلمسك له! كانت دقّات قلبه تتسارع في اضطراب، كتب أخيرًا بعد أن استجمع قواه:

- أعدني إلى هناك، وأظهرني لـ«رَيْهُقانة».

بدأ «حنطريرة» يُكرر تمتماته غير المفهومة، وانزلق «حمزة» ومادت الأرض تحت قدميه كما حدث من قبل، ووصل إلى أرض «الكَنَهْوَر»، الّتي تلقّفته أرضها كما حدث في المرّة السّابقة، حتّى رمت به على أعتاب مدينة «كُويكُول». دلفها وما زل سكّانها في حالة اضطراب شديدة.

×××××

«طارق»

كنّا نُحلّق بالخيول في رحاب «مملكة البلاغة»، مررنا بالكثير من القصور، والقلاع، والجبال، والممالك، مررنا بنهر ماؤه أخضر، ورأينا جبلًا عظيمًا لم يكن لدينا شكٌ أنّه جبل «أمانوس»، وتعرّفنا على الجبل الأحمر ذي القمّة الشّامخة عندما رأينا السّحاب الأحمر يحلّق حولها، أقبلت الصّقور من كل حدب وصوب وشاركتنا التّحليق، لاحت لنا «المكتبة العُظمى»، بدأنا ننحني للأمام لتشعر بنا الخيول، وتخفّض سرعتها، وتتوجه نحو الجهة الّتي نصوبها نحوها، وكانت طائعة لنا. وفجاة!

ظهر «بيادق الظّلام»، بثيابهم السّوداء، ووجوههم الملثّمة، وبدأوا يحلّقون بخيولهم المجنّحة حولنا، صهل جواد بيدق منهم، فأجابته البقيّة بصهيل مجلجل، لم يعد لنا سُلطان على خيولنا الثلاثة! وانطلق سرب الخيول عائدًا بنا نحو أرض «الكَنَهْوَر»، كدت أجنّ، وكان «خالد» يتلفّت في حيرة ويحاول التربيت على رأس جواده، لإرشاده إلى المكتبة العظمى، أمّا «سِيفاو» فكان يتشبث بعنق جواده ويترقّب ما يحدث في صمت، وصلنا لأرض «الكَنَهْوَر» من جديد، وترجل البيادق عن خيولهم، وأشهروا سيوفهم في وجوهنا، وكنّا قد سبقناهم، كان «خالد» يقف متأهّبًا بسيفه، و«سِيفاو» يرفع رُمحه، وكُنت أمسك بسهمٍ «عسجديّ» من سهامي وأضعه في كبد

قوسي مستعدًا لرَميه، كانوا أكثر عددًا منّا، والكثرة تغلب الشّجاعة، لم أترك لهم الفرصة، ورميت بسهمي فوق رؤوسهم في السّماء، فأطلق وميضًا حولهم وشكّل ما يُشبه المظلّة المعلّقة في الهواء، وكانت تلك السّهام كما أخبرني أبي وجدّي تصنع حاجزًا بيني وبين من يهاجمني، وتتيح لي فرصة الهروب منه، رأى «خالد» الحاجز وهو يبرق حولهم، وكان «سِيفاو» في حالة من الذّهول، التفتّ نحو الخيول وكُنت حائرًا في أمرها، هل ستطيعنا أم لا، وخاصّة أنّها أعادتنا إلى أرض «الكَنَهْوَر» بعد صهيل الفرس الّذي كان يركبه قائد البيادق، اقترب «خالد» من فرسه ووضع جبهته على رأسه وهمس قائلًا:

- أرجوك احملني إلى المكتبة العظمى.

ثُمّ قفز على ظهره، وحلّق به مبتعدًا عنّا، وبقيت مع «سِيفاو» الّذي سألني:

- أين سنذهب.

- أسرع فذاك الحاجز يختفي بعد فترة قصيرة.

قال «سِيفاو»:

-سأعود إلى «كُوِيكُول».

أسرعتُ نحو جوادي، فليس لي أن أتخلّى عنه، فكتابي يدفعني باستمرار لتتبّع قصّته، وحلّقنا في سماء أرض «الكَنَهْوَر»، فرأينا الأدخنة السّوداء تتصاعد من فوق مدينة «كُوِيكُول»، فهرعنا نحوها، وهالنا ما رأيناه. كانت المدينة في حالة من الفوضى، الحرّاس داخل الأسوار! وقلّة منهم يقفون على البوّابات، مخزن الغلال والحبوب قد احترق، والأشولة

متفحّمة هنا وهناك، ويتصاعد الدّخان من بعضها باستمرار، النّخيل أيضًا يحترق والنّار تنتقل من سَعف نخلة إلى سعف نخلة أخرى، والعربات الخشبية بالسّوق تحترق، وهناك رجال هيئاتهم غريبة يحيطون ببيت من البيوت في حلقة كبيرة، أدركت أنّه بيت «أبادول»، اقتربت من «سِيفاو» وقلت له:

- يبدو أنّ هناك مصيبة قد حدثت أثناء غيابنا.

- فلنهبط على أرض مسرح الأسود، فأنا لا أرى حرائق هناك.

توجّهنا نحو المسرح، وكان خاليًا، تعجّب «سِيفاو» وأخبرني أنّ حراسته كانت دومًا مُشددة!، هبطنا بالخيول وتركناها هناك، وأسرعنا نحو بيت «أبادول»، كان البيت محاطًا بالكثير من الرّجال الضّخام ذوي الأجساد القويّة، والبشرة السّمراء، سرت نحوهم بثبات لكنّهم منعوني ورفعوا أيديهم قبل أن أمسّهم، صحت مُناديًا على السيّد «أنس»، كررت النّداء عدّة مرّات، فخرج من البيت وفور أن رآني طلب منهم أن يسمحوا لي بالدّخول أنا و«سِيفاو».

وفور دخولنا فوجئت بـ «حمزة» بينهم، وكان الوسم على جبينه واضحًا للغاية، فصحت قائلًا:

- حمزة! أين كُنت، تبدو مرهقًا للغاية!

انتفض الجميع وكأنّ زلزالًا أصابهم فجأة، وأخذوا يتلفّتون، أين «حمزة»، صاحت السيّدة «مرام» بانفعال شديد:

- أين هو.. أين أين؟

وكان بجوارها مباشرة، فأشرت نحوه، فأخذت تُحرّك يديها في الهواء، وقالت:

- لا أستطيع لمسه، أين هو؟ هل ما زلت تراه؟

اقتربتُ منه ووضعت يدي على كتفه، فتحلّقوا حولي، وكان «حمزة» يقف في وسطنا والكلّ مذهول، بدأ الجميع يتحدّثون إلى رجلٍ خفيّ، وأنا الوحيد الّذي أرى من يتحدّثون إليه. وكان «حمزة» يُنقّل عينيه بينهم، فسألته:

- أين كنت؟

- هنا بينهم طوال الوقت! أتيت بعد خروجكم من المدينة.

- هل أنت بخير؟

- نعم، لكنني تعبت، أشعر أنّ رأسي سينفجر، سأموت يا «طارق»، أشعر بالعجز، أنت الوحيد الّذي يستطيع رؤيتي.

كان والداه يعلّقان أعينهما بوجهي، أملًا بالاطمئنان على ابنهما، فلم أنقل ما قاله للتوّ وقُلت لهما:

- يقول إنّه بخير، وثابت كالطود يا سيد «أنس».

فقال السيّد «أنس» بعينين دامعتين:

- هذا ولدي الّذي ربيته، محارب شجاع، حمدًا لله أنّه بخير.

مسح «حمزة» وجهه بيديه، أشفقتُ عليه مما رأيته على محيّاه من ألم، سألني بتوتّر:

- أين أخي «خالد»؟

- ذهب إلى المكتبة العظمى.

- لماذا ذهب وحده؟

- هاجمنا «بيادق الظّلام» ونحن في طريقنا إليهم، كدنا نصل لكنّهم منعونا، واستطاعوا السّيطرة على بنات الرّيح وأمروها بإعادتنا إلى أرض «الكَنَهْوَر»، فألقيت عليهم سهما من سهام «العسجد» لتحبسهم عنّا حتى نتمكّن من الفرار، وانطلق هو نحو مملكة البلاغة، وأرجو ألّا يلحقوا به، وعدت إلى هنا مع «سِيفاو» وفوجئنا بما يحدث.

ثُمّ التفتُّ نحو العائلة وسألتهم:

- ما الّذي حدث هنا بمدينة «كُوِيكُول»؟

أجابني السيّد «أنس»:

- غيابكم لفت الأنظار إلينا، وقد أحدث «قتادة» جلبة ونحن خارجون من «الدّيوان» بعد إثبات حضورنا هناك، وفاجأتنا «رَيْهُقانة» بتقمّص جسد «نور» من جديد، وفضحت أمرنا أمام أهل المدينة مما تسبب في إثارة الحرّاس ضدنا، وكادوا يقبضون علينا جميعًا، لولا أبناء «سرمد»، فقد أحاطوا بنا وقاموا بصدّ ضربات الحرّاس عنّا، ومنعوهم من الوصول إلينا.

- وأين السيّد «كمال» والسيّدة «دولت»؟ و«نور»؟

قال السيّد «أنس»:

- أبي وأمّي في السّجن، و«نور» في قبضة «رَيْهُقانة»، فقد رحلت بها من هنا.

- ومن الّذي أشعل الحرائق؟

- حالة من الفوضى تعمّ المدينة منذ هروب السّجناء الثلاثة، وخاصّة بعد أن صرّح «قائد الحرس» بأنّهم خطرون، فمنهم سفّاح، وآكلة للحوم البشر، وشيخ ضرير يقولون بأنّه ساحر.

صاح «حمزة»:

- نعم هو ساحر، أخبرهم أنّ «حنطريرة» أخبرني بهذا، وطلب منّي المساعدة في قتله.

نقلت كلام «حمزة» إليهم، وعدت أسأله عن «حنطريرة» هذا، وكان «أبادول» قد سألني عنه فور أن نطقت باسمه، فأخبرني «حمزة» قائلًا:

- شيخ عثرت عليه في وادي «الهماليل» حيث كانت «رَيَّهُقانة» تحتجزني هناك، وهو وادٍ يُطلق فيه سراح الأسرى، ويهيمون فيه على وجوههم، لا يرون بعضهم البعض، ويدورون كالمجانين، لم يرني «حنطريرة» بعينه لكنّه كان يكتب لي على الرّمال وأكتب له، وهو الّذي أعادني إلى أرض «الكَنَهْوَر»، وحجبني عن «رَيَّهُقانة» خلال الفترة الماضية، وأرسلني الآن إلى هنا لكي تراني مرّة أُخرى، فأنا أحمل رسالة لها تخصّ هذا السّاحر، فهو يريد منها أن تقتله.

نقلت كلام «حمزة» لعائلته، لم يرتح أيّ منهم لـ«حنطريرة»، وزحف القلق إلى رؤوسهم، سألت السّيدة «مرام» بتلهّف:

- هل من الممكن أن يكتب لنا «حمزة» على الرّمال؟

قال «حمزة»:

- أخبر أمّي يا «طارق» أنني أستطيع، وسأكتب لها على الرّمال عندما نخرج من البيت.

أخبرت السيّدة «مرام» بما قاله «حمزة» للتوّ، وكنّا نستعدّ للخروج للبحث عن أرض رملية، استوقفني «حمزة» وقال وهو يشير لجدّه «أبادول»:

- هناك رسالة لـ«أبادول»، أخبره أنّ «حنطريرة» يقول له أن يطلب لقاء «حَيْدَرَة».

نقلت الرّسالة لـ«أبادول»، الّذي أجفل فور أن سمع اسم «حَيْدَرَة»، وقطّب حاجبيه وهو في غاية الاندهاش، فسأله السيّد «أنس»:

- ومن هو «حَيْدَرَة»؟

- حارسٌ من حُرّاس المكتبة العُظمى!

التزم «أبادول» الصّمت، فسألتهم مستفسرًا عن هؤلاء المساجين الّذين أخبروني عنهم:

- وكيف هربوا؟

تحدّثت «سارة» على استحياء وقالت:

- أنا السّبب، فقد أقنعت «قتادة» و«تميم» ومن معهم أنّ هناك استغاثات تصدر من زنزانة تحت أرض المسرح، وأنّ علينا إنقاذ هؤلاء المساكين، وقُمنا بتحريرهم، والآن اثنان منهما طُلقاء بسببي، وقد يقتلون أي شخص في أيّ لحظة، والحُرّاس يبحثون عنهم في كلّ مكان.

قال السيّد «أنس»:

- المدينة واسعة، وعدد سكّانها كبير، وليس من السّهل العثور عليهم وسط الزّحام.

بقيت أنصت لكلام «حمزة» وأنقل لعائلته ردوده عليهم، وخلال حوارنا كان «سِيفاو» يلتفت نحو «ماسيليا» باستمرار، بدأ يقترب منها خطوة تلو الأخرى، وهي تراقب وجهه المتورّم والمليء بالكدمات في قلق وحيرة، وكانت عيناه مخضّلتين من البُكاء، وقف ساكنًا بجوارها، كانت ملامحه تتذبذب بين الفرحة برؤيتها مرّة أخرى، والتعجّب والاندهاش مما يدور بين أفراد عائلة «أبادول» وبيني وأنا أنقل لهم كلام «حمزة»، كان يشعر بالاطمئنان لرؤية عينيها،، من كان يُصدّق أن شجرة الحبّ وارفة الظلال تختبئ داخل قلبه!

سألته «ماسيليا» عمّا حدث له؟ فأشار لها بلطف لتتمهّل حتّى تنتهي العائلة من حوارها الهام. وعندما هدأت الأجواء بالبيت، التفت نحوها بكيانه، وبفؤاده، وبعينيه، وتلاقت نظراتهما للحظة كما لم تلتقِ من قبل، وبدأ يروي لها ما حدث بصوتٍ منكسر حزين، فتوقّف جميع أفراد عائلة «أبادول» عن الكلام، وأخذوا ينصتون إليه، بكت «ماسيليا» بحرقة عندما علمت بوفاة أمّه، فقد كانت بمثابة أمّها أيضًا، فقد ربّتها في بيتهم بعد وفاة والديها، وكانت المسكينة تعيش في دارها البسيطة الملاصقة لدار«سِيفاو» وأمّه، وكانت تقيم معها امرأة خمسينيّة أرسلها السيّد «مَاسين» لتبيت معها كلّ ليلة، حتّى لا تعيش وحدها بالبيت، وكانت تلك المرأة أوّل من أطلق عليها إشاعة هروبها مع «سِيفاو»!

فقد باحت لها «ماسيليا» سابقًا بسرّها الّذي كانت تكتمه في قلبها، فهي تحبّ «سِيفاو» منذ سنوات وتُخفي هذا الحبّ في ثنايا قلبها، وتتعذّب

وهي تراه يسعى للزواج من غيرها، فأساءت تلك المرأة إليها رغم أنّها كانت على يقين من عفّتها وبراءتها. انتهى «سِيفاو» من روايته، وواساه الجميع في وفاة أمّه والصّدمات القاسية المتلاحقة الّتي حطّمت آماله بالكامل. وبقيت «ماسيليا» تبكي بنشيج مسموع، رفعت عينيها المخضّلتين بالدّموع نحوه وقالت له:

- بعض الأحزان تترك ثقوبًا في أنفسنا، تظل مفتوحة للأبد، تأبى أطرافها أن تندمل، فنشعر بالخواء، ونتمنّى أن لو كانت صدورنا مُصمتة، لا روح فيها ولا نبض ولا حياة، وتظلّ تلك الثّقوب متنفّسًا تتسلل منه حُرقة البكاء، وشهقات الدّموع، وزفرات تنفح من أعماقنا قهرًا على من فقدناهم، ألم الفراق لا يحتمل يا «سِيفاو»، عشت ما تمرّ به الآن من قبل، أشعر بألمك، وأرجو لك الثّبات!

أخذت أتأملّ وجه «سِيفاو» وهو ينظر إلى «ماسيليا» بعد كلماتها الأخيرة، قد تَضلُّ أعيننا الطريق بينما نَتتبع بريق نجمة لامعة وسط جلباب السماء الواسع، فنغوص في عتمة الدَّيجور، نتيهُ أحيانا، نتخبطُ في حزن لفراقها ربّما، نحملق في الفراغ كثيرًا، حتى يعوضنا الله بالقمر، وها هي تُضيء عتمة فؤاده وتفوز بقلبه.

هناك من البشر من يشبه الغيمات، يستثقل وجوده معنا وهو الأكثر خفة ونقاوة، لطيف عند مروره، وإن جاد كان عطاؤه كالغيث، وإن لم يجد بشيء فدفء ظلاله الحانية يكفي. يرسل الله بعضنا لبعض كالأرزاق، وقد لا يدرك بعضهم أنه رزقٌ لنا! يضمنا بكلمة، ويحتوينا بنظرة، ويربت على أكتافنا بابتسامة حانية، ويدفعنا للأمام بهمسة ودعاء، وعندما نسقط نفاجأ به يتلقفنا فنتكئ على ذراعه، وفور نهوضنا يسارع بالهروب!

ويختفي طالما نحن بخير، وعندما تضيق بنا نتلفت حولنا فنجده هناك، غيمة عامرة بالخير، تختبئ في حضن السماء، وكانت «ماسيليا» رزقه الّذي كان غافلًا عنه، كانت المسكينة غيمة حائرة.

أخذ «أبادول» يتنّقل من نافذة لأُخرى، ينتظر عودة قائد الحرس، تعالت الأصوات في الخارج عندما صاح «ميسرة»، كان يُنادي على «سُليمان»، ويرجوه طالبًا الدخول، وعندما سُمح له بالدخول، أقبل راكضًا، وأخبرنا عن اختفاء «أمنوكال»، وأنّ الطبيب أرسله ليُخبر «أبادول»، لعلّه يُساعده في العثور عليه. سأله السيّد «أنس»:

- وأين الطبيب الآن يا «ميسرة»؟

- قائد الحرس يحتجزه.

- لماذا؟

- سمعته يخبره بأنّه سيشرح للسيّد «أبادول» كلّ شيء يخصّ السرّ الّذي بينهما، فرفض قائد الحرس، وأخبره أنّ معرفة هذا السرّ خطر على المدينة وأهلها، وقرر احتجازه، فغمز لي بعينه، ففهمت أنّه يشير إليّ لكي أهرب وأخبر السيّد «أبادول».

سأله «أبادول» باهتمام شديد:

- ماذا تعرف عن هذا الطّبيب يا «ميسرة»؟

- هو طبيب بارع، وأكثر من يحنو عليّ من أهل المدينة، حتّى أنّه يسمح لي بالمبيت في بيته أحيانًا أنا و«أمنوكال».

- هل سمعت أو رأيت شيئًا غريبًا في بيته؟

- نعم، رأيت في بيته الكثير من المرضى يترددون عليه، ولكن أكثر ما لفت انتباهي هو أنّه قد عالج مريضًا مصابًا بلوثة عقلية، كان يعتقد أنه بقرة، ويطلب من النّاس أن يذبحوه رافضًا الطّعام والشراب إلى أن يفعلوا ذلك، فاستخدم الطبيب «الحارث» معه أسلوبًا للعلاج عجيبًا، سمعته يُخبر «قائد الحرس» أنّه العلاج بالتخييل[1]، فعاد المريض للأكل الذي كان قد توقف عنه سابقًا وبدأ يستعيد قوته وعافيته وشُفيت أعصابه بل شُفي تمامًا وعاد لصوابه.

قررنا الخروج للبحث عن الغلام المسكين، وتركنا «ميسرة» مع باقي الأسرة فقد كان مُتعبًا وجائعًا وفي حاجة للنّوم، وخرج معنا «حمزة».



(١) تُنسب هذا القصّة لابن سينا، وأسلوب العلاج بالتخييل يكون بزرع صور معينة في ذهن المريض النّفسيّ لتساعده على تجاوز الحالة التي يعيشها، واستخدمه ابن سينا في علاج مرضاه وذكره في كُتبه، ومضى في تشريح هذه الحالات تفصيلاً واقترح العلاجات ومنها النوم والاهتمام بتناول الأغذية المناسبة وكذا إلهاء النفس بأمور واهتمامات أخرى، وما يشابه أسلوب العلاج السلوكي الحديث.

-١٣-

«أمنوكال»

عادت «رَيْهُقانة» مع «أسحم» للبحث عن «حمزة»، وفور دخولها المدينة شعرت به، واستطاعت أن تصل لمكانه في لمح البصر، أرادت أن تجمع العائلة مرّة أخرى في البيت لتلقي بهم في فجوة الموت، وقرأ «أسحم» ما يجول بخاطرها، كان يخشى عليها من «أبناء سَرمد»، كما كان يخشى من بطش كبار «المجاهيم» لو علموا بأنّه تركها تؤذي «أبادول»، وهم يجلّونه ويقدرونه، فأخبرها أن تتمهّل، وحذّرها منهم، وخاصّة وقد ضعفت قواها، فحملت «حمزة» وفرت به فجأة من بينهم.

أجفل «طارق» وتوقّف ثُمّ قال بفزع:

- لقد اختفى «حمزة»، أخبرني قبل أن يختفي أنّه رأى «رَيْهُقانة».

انقبض قلب السيّد «أنس» وقال بصوت يرتجف:

- أسأل الله أن يحفظه، ويحفظ أخاه.

بدأتْ رحلة البحث عن «أمنوكال»، كاد الحرّاس يقبضون عليهم، فقال «أنس»:

- تعلمون أنّكم في موضع قوّة لأنّكم تحتجزون أبي وأمّي، لن نضرّ أحدًا هنا، ولو أردنا السوء لكان هذا منذ وصولنا، اتركونا نبحث معكم عن «أمنوكال».

تراجع الحرّاس بعد التّشاور، وتركوهم يمرّون، وكانوا يبحثون معهم جنبًا بجنب عن السّفاح، فالرّاجح الآن أنّ «أمنوكال» في قبضته، وهناك خبر عن اختفاء آخرين. قسّموا المدينة بينهم، وتفرّقوا في جماعات، وانضم إليهم بعض شباب المدينة.

في تلك اللحظة، اختفى أبناء «سَرمد» فجأة من حول بيت «أبادول»، فتسلل القلق إلى قُلوبهم. خرج «أبادول» من بيته متوجهًا نحو «الدّيوان»، لن يسكت هذه المرّة، لا بدّ أن يعرف الحقيقة كاملة، وتركهم بالبيت.

××××

نقلت «رَيْهُقانة» «حمزة» إلى نفس المكان الّذي تحتجز فيه «نور»، ثُمّ وقفت قبالته وسألته:

- كيف وصلت إلى مدينة «كُوِيكُول»؟

أجابها وقد كان ساخطًا عليها:

- حملني «حنطريرة» إلى هُناك.

تغيّرت ملامحها، وشعر «حمزة» أنها في حالة ارتباك شديدة، قالت وهي تُحدّق في عينيه:

- هل التقيت بـ«حنطريرة»؟ وتحدّث إليك وتحدّثت إليه؟

- نعم، التقيت به في وادي «الهماليل»، وأحمل إليك رسالة منه.

أجفلت «رَيْهُقانة»، كيف لـ«حنطريرة» أن يتحدّث مع أسير! سألته وقد ازداد قلقها:

- ما هي الرّسالة؟

- يطلب منك قتل السّاحر.

- أيّ ساحر؟

- الّذي ألقى «بيادق الظّلام» القبض عليه ونقلوه إلى مدينة «كُويكُول»، وهو الآن محتجز في سجنها

كانت «رَيْهُقانة» تقف أمامه في حيرة، أرادت أن تخفي خوفها الّذي ظهر عليها أمام «حمزة»، فأقبلت تسبّه قائلة:

- أحمق، وحمقاء!

أخذت «رَيْهُقانة» تردد الكلمتين وهي تقف أمام «حمزة» و«نور»، وكانت «نور» لا ترى «حمزة»، بينما هو يراها. كانت في حالة مزرية، تقرّحت عيناها من كثرة البكاء، وتلطّخت ملابسها بالوحل، وانكشف شعر رأسها، وكانت حافية القدمين، لقد أرهقتها «رَيْهُقانة» بكثرة تعذيبها لها، حتّى أنّها كانت تدفعها لضرب رأسها بالجدار، وتحرّكها كالدّمية، وكانت «نور» قد استسلمت لها تمامًا وباتت في حالة انهزام شديد، انطفأ وجهها وكانت الدّموع تسيل من عينيها باستمرار، صاح «حمزة» قائلًا لها:

- كفى.. كفى.. اتركيها.

- أيهمّك أمرها؟

- اتركيها، لا ذنب لها فيما يحدث لنا، كفاها ما تعانيه منذ موت والديها.

- ما رأيك أن نجعلها تلحق بهما؟

قالت «رَيْهُقانة» جملتها الأخيرة وهي تعلّق «نور» في الهواء بقواها الخفيّة، ثُمّ تركتها فجأة فسقطت على الأرض، واختفت «رَيْهُقانة»،

وتركت «حمزة» يراقب «نور» وهي تبكي، ما زالت لا تراه، لكنّها أدركت من كلام «رَيْهُقانة» أنّه معها في نفس المكان. قالت بخفوت:

- قاوم يا حمزة من أجل والديك، فتّش في صدرك عن روح المحارب، وتشبث بها.

كانت تعلم أنّه يسمعها، وكانت كلماتها طوق نجاة له، فقد كان يائسًا للغاية.خرجت «رَيْهُقانة» وأخبرت «أَسْحَم» برسالة «حنطريرة» لها، وكان يعلم عن ماضيه، ذاك الّذي التهم عشيرة من الجنّ بأكملها كما يُشاع عنه، قضى عليهم جميعًا واستولى على قواهم فتعملق وصار من الجبابرة.

كان «حنطريرة» قد اختفى منذ فترة طويلة، وكان من العجيب أن يظهر فجأة، ويتحدّث إلى أسير! قال بعد أن أنصت إليها:

- أين التقى به؟

- في وادي «الهماليل».

- لا بدّ أن نرى «حنطريرة» بأنفسنا، سنعيد «حمزة» إلى هناك، ولنراقب ما سيحدث له.

- والفتاة؟

- انقليها مع «حمزة» لوادي «الهماليل»، قد تحتاجينها للضغط عليه.

- ولم سأحتاج للضغط عليه وهو أسير لي؟

- أيّتها الحمقاء، لقد استطاع «حنطريرة» الوصول إليه، و«حمزة» يعرف هذا جيدًا.

اشتعلت«رَيْهُقانة» غاضبة عندما قام «أسحم» بسبّها، لكنّها كظمت غيظها فهو الوحيد الّذي يقوم بحمايتها الآن، وانصرفت لتحمل «حمزة» و«نور» إلى وادي «الهماليل».

التقى «سيفاو» بـ«قتادة»، ولام كلّ منهما الآخر على ما قد حدث منه، لكنّهما سريعًا ما اتفقا، وعادا للبحث عن «أمنوكال». لمح «قتادة» السّفاح وهو يسير بين شباب المدينة فأخبر «سِيفاو» الّذي سأله متعجبًا:

- كيف لم ينتبه النّاس لوجوده بينهم!

- شكله قد تغيّر فقد حلقت له شعر رأسه بيدي، وهو يُخادع النّاس ويتصنّع البحث عن الغلام معهم.

كاد «قتادة» يصيح مشيرًا إليه، لكنّ «سِيفاو» نصحه أن يصبر حتّى لا يهرب، وليتوجها نحوه وليقبضا عليه معًا، لكنّه في غمضة عين كان قد انفصل عن الزّحام وتوجه نحو درب طويل وضيّق يفصل بين البيوت المتراصّة بجوار بعضها البعض.

استطاعا أن يُحددا مكان البيت الّذي يحتجز فيه هذا السّفاح الغلام، خرج هذا المرّة والغلام يسير بجواره، بدا واضحًا أنّ الغلام خائف ويرتجف، لكنّه لا يجرؤ على الصراخ. بدأ يجرّه جرّا في الطرقات الخالية، صعد «سِيفاو» فوق أسقف البيوت، وبدأ ينتقل من سقف لآخر، ووثب فجأة معترضًا طريقه وهو يفرّ بالغلام، وثقبه بنظراته، فأخرج السّفاح الموسى الحادّ ووضعها على عنق «أمنوكال»، وكانوا بعيدًا عن أهل المدينة والحرّاس، قال «قتادة» وقد كان يقف خلف السّفاح مباشرة:

- اترك الغلام، وقاتلنا كرجل لرجل.

التفت السّفاح وألصق ظهره بجدار المنزل المجاور وقال لهما:

- إن اقتربتما سأذبحه.

بدأ يحرّك الموسى ببطء لتسيل الدّماء من عنق الغلام فيتراجعا، فشق جرحًا سطحيًا في عنق «أمنوكال» وبدأت الدّماء تسيل منه، وكان الغلام يصرخ في هلع وعيناه تكاد تخرجان من محجريهما من شدّة الخوف، تراجع «قتادة»، وتراجع «سِيفاو»، وتركاه يمرّ بالغلام الّذي كان ينتفض بين يديه، وعندما ابتعد عنهما بمسافة كافية، سحب «سِيفاو» رمحه، وكان يربطه على ظهره منذ أن خرج من أرض قبيلته، وصعد فوق سطح أحد البيوت، ورفع ذراعه وقذف بالرّمح تجاه السّفاح بكلّ قوّة، فأصابه في مقتل، واخترق الرّمح ظهره وخرج من بين أضلع صدره وسقط على وجهه فأسرع تجاهه مع «قتادة»، وجذب «سِيفاو» الغلام الّذي كان عنقه ينزف، واحتضنه قائلًا:

- لا بأس عليك يا صغيري، لا بأس عليك.

وركض به باحثًا عن الطبيب، فأخبره الحرّاس أنّ قائد الحرس يحتجزه في «الدّيوان»، فأسرع إلى هناك.

وقف «حمزة» حائرًا، لماذا أعادته «رَيْهُقانة» إلى وادي «الهماليل» مع «نور»؟ كانت «نور» تركض هائمة على وجهها في فزع، فالمكان ساكن، ومهجور، ولا أثر للبشر هنا. كانت تتنقّل من ظلمة لأخرى، ومن وحدة لأخرى، ومن حزن لآخر، ومن خوف لآخر منذ وفاة والديها، لقد تعبت.

لم تُظهر «رَيْهُقانة» نفسها لهما، وكانت تعلم أنّ «حمزة» يرى «نور»، بينما لا تراه المسكينة. لاحظت «رَيْهُقانة» نظرات «حمزة» لـ«نور»، فاستشاطت غضبًا، أزعجها بشدّة أن يهتم لحالها، يخاف عليها!

أبعدتهما عن بعضهما في الحال، فتلفّت «حمزة» باحثًا عنها، فأظهرت «رَيْهُقانة» نفسها له وسألته:

- ما بك؟ لماذا أنت قلق عليها؟

- لماذا تؤذينها؟

- أنا ساحرة من ساحرات «ماذريون»، أفعل ما أشاء كما أشاء فيمن أشاء!

- ليتني ما التقيتُ بكِ ولا رأيت وجهك.

استدارت غاضبة وقالت له:

- لولا ضعفك ما تبعتك، أنت السّبب.

- كيف هذا؟

- عندما كُنت أتغزّل فيك وأمدحك كان هذا يُعجبك، أتنكر هذا؟

لم يُجبها «حمزة»، فقد كان خلال رحلته للبحث عن أخيه في حالة من الارتباك، لا شكّ أنّه ضعف للحظات، لكنّه لم يحبّ أبدًا تلك السّاحرة الّتي تقف أمامه، ربّما تميل النّفس لمن يمتدحها، تفرح بالإطراء، بالغزل، بالعشق، لكنّه ليس الحبّ، ظلّ على صمته فنهرته قائلة:

- لماذا لا تنظر إليّ؟

كان قد كرهها، وكره اسمها، وكره وجهها، وكره كلّ شيء حولها، استفزّها بسكونه وصمته وإعراضه عنها فارتفعت به نحو قمّة جبليّة عالية، وأجبرت «نور» على السّير نحو حافّة الجبل رغمًا عنها، وكأنّ ما يحملها ليست قدميها، صرخت «نور» في هلع:

- لا.. لا.. لا تقذفيني أرجوكِ.

صرخ «حمزة» مناديًا على «نور» وهي لا تسمعه! كان يخشى عليها من السّقوط من فوق حافّة الجبل، وكانت «رَيْهُقانة» ترشقه بنظراتها الملتهبة وغضبها يتصاعد وهي تراه في هلع، فصاح عليها قائلًا:

- ماذا تُريدين؟

جزّت على أسنانها قائلة:

- لا تشح أبدًا بناظريك عنّي.

ثبّت عينيه على وجهها مرغما، وقلبه ملتفت نحو«نور»، يخشى أن تلقي بها من فوق قمّة الجبل، قال بصوت يرتجف:

- لا تدفعيها يا «رَيْهُقانة».

لكنّها لم تُنصت إليه، ودفعتها من فوق قمّة الجبل، فهوى قلبه بين أضلعه، وكاد يركض نحو قمّة الجبل وصراخها يدوّي في أذنيه، لكنّ «رَيْهُقانة» أعادته إلى وادي «الهماليل» في طرفة عين، تهافت على الأرض باكيًا منتحبًا، وصرخ مرددًا:

- أنت أقذر مخلوقة رأيتها في حياتي، سحقًا لكِ، ماتت المسكينة «نور» بسببي.

أخذت «رَيْهُقانة» تضحك في هستيريّة، وكان يقذف نحوها الحجارة، بدأت تتلاعب بأعصابه، فبدأ يهلوس من شدّة الارتباك، يكاد يفقد هذا الشّاب عقله هنا، كانت تستمتع بتعذيبه، وكأنّه لعبة في يديها، أيّ حبّ هذا الّذي كانت تزعمه!

انتظرت هناك طويلًا، وكان «أسحم» معها يترقّب لحظة ظهور «حنطريرة»، ودّ أن يراه بعينيه، لكنّه لم يظهر لهما أبدًا، فقرر الاثنان قتل السّاحر المحتجز بالسّجن، ولتحُز «رَيْهُقانة» قوّته بأكملها، لتتمكّن من مواجهة أترابها من عشائر الجنّ المختلفة، فما عادت قوّتها تكفي إلّا للسيطرة على هؤلاء الهماليل أمثال «حمزة» و«نور».

كان «طارق» يبحث عن «أمنوكال» في كلّ مكان، لم يكن خبر قتل السّفاح قد وصله بعد، فوجئ بـ«مرام» تهيم على وجهها في الطرقات، فأقبل يسألها:

- أين تذهبين يا سيّدة «مرام»؟ وكيف تسيرين وحدِك هكذا؟

كان وميض القلقِ يلتمع في عينيها وهي تقول له:

- ظهرت «رَيْهُقانة» بعد اختفاء أبناء «سَرمد» من حول البيت، وقامت بتفريقنا في المدينة، هددتنا أنّها ستجمعنا مرّة أخرى بالبيت في وقت لاحق لتقتلنا جميعًا، وأنا قلقة على «فرح» و«سُليمان».

- هذا غريب! فهي قادرة على جمعكم الآن في البيت بالفعل لتتخلّص منكم وتلقيكم في فجوة الموت!

- أخبرنا «أبادول» أنّها فقدت قدرًا كبيرًا من قوّتها بوسمها لـ«حمزة»، ولهذا أظنّ أنّها لن تستطيع السّيطرة على البيت كما فعلت سابقًا، لهذا فرّقتنا، لقد نقلتنا فُرادى يا «طارق».

- أخطأ أبناء «سَرمد» بترككم دون تحصين.

- لا أدري لماذا اختفوا فجأة!

- لنعد إلى المسرح، «بنات الرّيح» هناك، سنحلّق فوق المدينة ليسهل البحث عنهما.

- لكنني لا أُحسن ركوب الخيول.

- حسنًا، سأفعل أنا، ولكن لا تبقي وحدك، تعالي معي فربّما نلتقي بأحد منهم ونحن في طريقنا.

هرولا تجاه مسرح الأسود، ووصلا حيث كان الجوادان الأسود، والأبيض يقفان في مكانهما، أقبل «طارق» على جواده الأسود، وانطلق يركض به، بسط الجواد جناحيه وحلّق به فوق مدينة «كُويكُول»، أخرج «طارق» النّاظور، وراح يُفتّش المدينة عن الصغيرين.

كان «سُليمان» في السّوق، يقف وهو يُقلّب الكرات في يده، ويتلفّت يُمنة ويسرة، فانتظر «طارق» حتّى ابتعد النّاس عن محيطه، وتوجه بجواده نحوه، ضرب الجواد بجناحه ومال وهو يقترب من الأرض، فمدّ «طارق» ذراعه واحتضن «سُليمان» وارتفع به محلّقًا لأعلى، شعر «سُليمان» بالحماس وأخذ يصرخ بانفعال وهما يرتقيان في السّماء، عاد به نحو مسرح الأسود، وسلّمه لـ«مرام».

وحلّق مرّة أُخرى يبحث عن «فرح»، كانت «رَيْهُقانة» قد ألقت بها وسط النّخيل المحترق، وكانت الصّغيرة تقف متأهّبة وهي تقبض على مطرقتها بقوّة وتتشبث بها، صهل الجواد فالتفتت نحوه، وعندما رأت «طارق» لوّحت له، فأشار لها لتركض نحو الجهة الّتي يستطيع الاقتراب منها بجواده المجنّح حيث تخلو من الحرائق، فركضت والتقت به قربها، وحملها كما حمل «سُليمان» من قبل، وعاد بها لأمّها، وانطلق يبحث عن «ماسيليا»، و«سارة»، رأى «سيفاو» وهو يسير حاملًا «أمنوكال» ومعهما «ماسيليا» و«ميسرة» فاطمأنّ عليهم.

بقيت «سارة» مفقودة، لم يعثر عليها في أيّ مكان، لكنّه عثر على «أنس» فهبط بالجواد وأخبره بما حدث، وكان «أنس» قد علم بمقتل السفّاح للتوّ فاطمأنّ على الغلام، فحمله «طارق» معه إلى مسرح الأسود، قررت «مرام» الذّهاب مع الصّغار إلى «أبادول» في «الدّيوان».

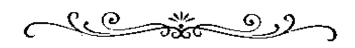
توجّه «أنس» نحو الفرس الأبيض، وركبه ليبحث مع «طارق» عن «سارة»، فالمرأة الآكلة للحوم البشر تجوب في الطرقات باحثة عنها، كما أخبره «حنبش» و«حنبريت» منذ قليل، سأله «طارق» وهو يركض بجواده موازيًا له قبل التّحليق:

- لماذا لم يقتل هذان القزمان تلك المرأة بعد أن ساعداكما في الهرب من أمامها في المرّة الأولى، فهما يُمدّانكم بأسلحة مختلفة؟

- يبدوان غامضين، لا أعرف حقيقتهما حتّى الآن، ربّما لديهما التزام وعهد مثل أبناء «سرمد»، ولا يستطيعان القتال على أرض المدينة هنا، لكنّهما مسالمان على أيّ حال.

- الحمقاء «رَيْهُقانة» تود تشتيت عائلتكم وتدميركم.

على عنق تلك الذئبة المفترسة، فشقّ حلقها، وسقطت على الأرض، وقطعة من لحمه ممزّقة بين أسنانها، قبض على جرحه، ووقف ودماؤه تنزف بغزارة، هرعت «سارة» إليه، وتلفتت حولها تبحث عن شيء لتضغط به الجرح وتوقف النّزيف، فعثرت على حجر مستدير أملس، مزّقت طرف ردائها، ولفّت الحجر به ووضعته على الجرح، ضغط «طارق» على جُرحه بقوّة، وأشار لها برأسه لتربطه ففعلت، وأسرعت معه نحو «الدّيوان»، فهي كانت تعلم أنّ الطبيب «الحارث» محتجز هناك. ظهر «حنبش» و«حنبريت» فجأة ورفعا ذراعيهما مرّة أخرى، فعبر «طارق» و«سارة» من تحتهما ليصلا إلى «الدّيوان» في الحال.



-١٤-

الملك «سَرمد»

كان «سَرمد» ثائرًا كالبركان، وقفت «شَفق» أمامه ترجف كورقة شجرة سقطت في مهبّ الرّيح، من خلفها كان أفراد العشيرة من حاشيتها الخاصّة يقفون وهم يخفضون رؤوسهم خوفًا من ملكهم وكبيرهم الّذي يجلّونه ويخشون غضبه، ولم يجرؤ أحد منهم على رفع بصره تجاهه، لوّح بصولجانه وهو يقول:

- أرأيتِ نتيجة عبثك يا «شَفق»؟ «المجاهيم» اقتحموا نطاق مملكتنا، يجولون في سماء «الكَنَهْوَر» طوال الوقت، لولا حرّاس الحدود لطردنا من وطننا.

- هؤلاء أتباع «أسحم» فقط يا أبي، باقي «المجاهيم» لا يزالون يلتزمون بالعهد معك، لم يدخلوا أرض «الكَنَهْوَر».

- بل دخل القنّاصون!

- نعم، كانوا يطاردون «رَيْهُقانة» على أطراف أرض «الكَنَهْوَر» وخرجوا فور إلقاء القبض عليها، تلك البائسة تحارب عائلة «أبادول» و..

قاطعها «سَرمد» قائلًا:

- أعرف كلّ شيء، وأعرف أنّهم اعتنوا بـ«الماو» ولم يقتلوها. البشر دومًا يخشون القطط السّوداء، أمّا «مرام» فقد أحسنت إليها.

لاح شبح ابتسامة على شفتي «شَفق» وهي تقول:

- يبدو أنّك تعرف الكثير يا أبي، فلماذا أنت غاضب هكذا؟

- لأنّك لم تسأليني، ولم ترجعي إليّ قبل اتخاذ أيّ قرار، وقد نبّهتك أنّ الأمر جدّ خطير، وما يدور على أرض «كُويكُول» أمر شديد الحساسية، ولو انكشف الأمر ستتوالى المصائب.

- وما الّذي يدور على أرض «كُويكُول» يا أبي؟ من هم «المحققون»؟ ولماذا يقوم «بيادق الظّلام» باختطاف هؤلاء «المستبعدين بالذّات؟

- أقسمتُ ألّا أبوح بالسرّ مهما حدث.

- الأمر مريب، وليس من حقّ هؤلاء البيادق أن يختطفوا النّاس بتلك الطريقة، إنّهم يخطفون الرّضع يا أبي! كيف توافق على هذا وتقبله؟

-كفّي عن الجدال، «أبادول» محارب شريف، و«حَيْدَرَة» يعرفه جيدًا، ستكون الأمور على ما يُرام عندما يصل الخبر إلى «حَيْدَرَة».

- طالما تعرف هذا فلتُخبر «حَيْدَرَة» بنفسك!

- هذا من ضمن بنود العهد الّذي قطعته على نفسي لـ«حَيْدَرَة»، فقد حذّرني من التّواصل معه مهما حدث، حتّى لا ينكشف أمره.

- ينكشف لمن؟

زمزم «سَرمد» غاضبًا:

- لا تُكثري السؤال يا «شَفق».

- إذن، اسمح لنا بالقتال لنُحرر عائلة «أبادول» من الأسر.

- قلت لك لا!

قالت بتوسّلٍ ورجاء:

- أبي أرجوك أخبرني بالحقيقة!

- توقّفي عن الثرثرة والجدال، فقد استدعيتك لأمرٍ خطير.

- وما هو؟

- «أسحم» و«رَيْهُقانة» يخططان لقتل السّاحر المسجون، ولو قتلته «رَيْهُقانة» ستسطو على قوّته، وستتعملق بجبروتها مرّة أخرى، وستقتل «أبادول» وعائلته، ولن تتركك يا «شَفق»، ستنال منك يا ابنتي!

- أيّ ساحر هذا الّذي يُسجن! طالما سُجن فهو ضعيف، فلم نخافه!

- هناك أمر مريب حوله، حاولت الإحاطة بشأنه، لم أتمكّن من اختراق حُجبه الّتي يضربها حوله.

فغرت «شفق» فاها واتسعت عيناها في اندهاش وهي تقول:

- أبي! هل تسللت بنفسك إلى سجن «كُويكُول»؟

أقبل غاضبًا عليها وهو ينهرها:

- ششش.. لا ترفعي صوتك أيّتها الحمقاء! لم أقل هذا! هل قُلت إنني تسللت إلى «كُويكُول»؟

طالعته بنظرة ماكرة وهي ترفع حاجبها الأيسر وقال:

- لا.. لم تقل هذا.

استدار وقال وهو يبتعد عنها:

- هناك قوّة خفيّة تحميه.

- وما الحلّ يا أبي؟

- فليُحلّق رجال حاشيتك بزنزانة السّاحر، فإن كان يمنعنا من الوصول إليه، فنحن سنمنع «رَيْهُقانة» و«أسحم» من الوصول إليه، حتّى يصل خبر «أبادول» لـ«حَيْدَرَة».

- وعائلة «أبادول»؟ وبيتهم؟

- سيكونون بخير، فهم محاربون!

- ولكن.. يا أبي، تستطيع إمدادي بالمزيد من أبناء «سَرمد».

- لا أستطيع، يكفي من يساعدونك من حاشيتك، البقيّة يحرسون حدود «الكَنَهْوَر».

- أبي.. إذن أنت تُوافق على ما أفعله!

لم يُجبها، وقال وهو يشيح بوجهه عنها:

- انصرفي الآن، فالأمر جدّ خطير.

انصرفت «شَفق» ومعها حاشيتها من أبناء «سَرمد»، وتركت أباها حائرًا، والهمّ يسكن بين عينيه، فهو يشعر أنّ الخطر يحلّق في سماء «الكَنَهْوَر»

-١٥-

فجوة الموت

أقبلت «شَفق» وطارت بجوار «أنس» وهو يحلّق بجواده وقالت له:

- «سارة» في أمان، لقد قتل «طارق» تلك المرأة المفترسة، وهما في طريقهما إلى «ديوان الرّئاسة».

- الحمد لله. لماذا ترك أبناء «سَرمد» حماية البيت؟

- «رَيْهُقانة» ترغب في قتل السَّاحر المحتجز في سجن «كُويكُول»، وأبناء «سَرمد» يُحيطون بزنزانته من جهاتها الأربع الخارجيّة، حتّى لا تصل إليه.

- ولماذا تقومون بحمايته؟

- لا نحميه، بل نمنعها من الوصول إليه، لأنّها ستزداد قوّة إن قتلته! ولتعلم أنّنا نحمي والديك أيضًا، ونحيط بزنزانتهم من الخارج، لكننا ممنوعون من دخولها لتحريرهم.

- وما الّذي يمنع ساحرًا من تخطّي الجدران الأربعة، وكيف يُسجن وهو يملك تلك القوّة الّتي تحدث عنها قائد الحرس؟ وكيف..

قاطعته بجدّية شديدة قائلة:

- سنتحدّث عنه لاحقًا.. سيّد «أنس» هناك أمر خطير لا بدّ أن تعرفه.

- ماذا حدث يا «شَفق»؟ هل ولداي بخير؟

- تعلم أنني لا أستطيع الخروج من أرض «الكَنَهْوَر» لأرى «خالدًا»، ولا أعرف شيئًا عن «حمزة» فهو أسير ومحجوب عنّي.

- ما الّذي حدث إذن؟

قالت بصوت جاد:

- اتبعني.

تبعها «أنس» بجواده، طارت به بعيدًا عن مدينة «كُويكُول»، مرّا على الكثير من المدن المهجورة، والقرى السّاكنة كالقبور، والقلاع السّوداء، كانت أرض «الكَنَهْوَر» مهيبة من أعلى. لم تلتفت «شَفق» ولا مرّة واحدة طوال الطريق، وصلا قرب فجوة الموت، كانت تدور كالإعصار، وتبتلع كلّ ما يحيط بها، وكانت «نور» معلّقة في الهواء بالقرب منها، مصلوبة على حجر دوّار، ينقلب بها ويدور بسرعة شديدة، تكاد فجوة الموت تبتلعها، ولكن هناك ما يمنعها عن التهامها! وكأنّها قد علقت في شيء يجذبها.

لم تجرؤ «شَفق» على الاقتراب منها، ولم يُقدم أيّ من أبناء «سَرمد» على إنقاذها، لا بدّ من مساعدة تلك الفتاة، قالت «شَفق» بتأثّر:

- حاولت أن أطيح بها بعيدًا كما فعلت مع بيتكم من قبل، استدعيت رفاقي وفشلنا، تعلم يا سيّد «أنس» أنني أستطيع أن أحرّك جبلًا، أو أهدم مدينة بأكملها، أمّا تلك الفجوة فلن أستطيع التغلّب على قوّة جذبها أبدًا وحدي، ولن يجرؤ أحد على مُساعدتي مرّة أخرى فقد كادت تبتلع بعضنا اليوم.

- الملعونة «رَيْهُقانة».

- ماذا ستفعل؟

- لن أترك «نور»، فهي بمثابة ابنة لي، لو كانت «فرح» مكانها لأقبلتُ عليها وجذبتُها حتّى أنقذها.

- لكنّك ستهلك معها، أنت لا تدرك كيف هي قوّة سحب فجوة الموت! نحن لم نقدر عليها.

- لو أرادت التهامها لالتهمتها منذ وصولها فهي قريبة منها للغاية.

ثُمّ أضاف بتصميم:

- سأساعدها... لا بدّ أن أُحاول حتّى لو فقدت حياتي، لن أتخلّى عنها.

- عجبًا لكم أيّها المحاربون! لديكم أرواح صلبة، قد تضحّون بأرواحكم من أجل الآخرين، أمّا نحن فقد نُساعدكم، لكننا لا نُضحّي بأنفسنا من أجل أحد.

- تلك الفتاة لا تستحقّ هذا، فلا ذنب لها في كلّ ما يحدث.

اقترب «أنس» بجواده الأبيض، وكان الجواد يهاب الفجوة، وقد فزع من صوتها عندما اقترب به منها، فأسرع يبتعد، تذكّر «أنس» حِبالُ «طارق» المتينة والّتي تطول إلى ما لا نهاية، وخطّافه العجيب، فأخبر «شَفق» بما يخطر بباله، فأسرعتْ نحو «الدّيوان» لتبلغه لينضمّ إليهما، وبقي «أنس» يُراقب «نور» والأفكار في رأسه تقارع بعضها البعض، لم يعلم أنّ «حمزة» يقف معه ويُراقبها، وقلبه يخفق بين أضلعه.

كانت «نور» ترتجّ من شدّة الخوف، والحجر يدور بها بسرعة شديدة، تذكّرت كلمات «ماسيليا»، فتوجّهت إلى الله مبتهلة وقلبها يخفق، وأغمضت عينيها ورددت الدعاء بصوت خفيض:

«يالله، اشتدّ ألمي، وزاد رهقي، ويئست من عون خلقك، واحتارت معارفي، وثقتي في قدرتك دفعتني للدُّعاء، وأنا الضّعيفة وأملي فيك غير متناه، ورجائي فيك غير مقطوع، فلبيك يا رحمن فلا ملجأ يؤويني سواك، ولا راحة إلّا في حماك، أخرجني من تلك الضّيقة، وانزع الخوف من قلبي انتزاعًا، ونجّني من هذا الخطب الجليل، رحماك.. رحماك.»

طارق

وصلنا «الدّيوان» وطلبنا لقاء الطّبيب «الحارث»، كنت أشعر أن ذراعي يحترق، كان الجرح عميقًا وينزف بقوّة، وكان مجرّد النّظر إليه يصيبني بقشعريرة، أشحت بوجهي عن ذراعي وعن وجه الطّبيب، فرأيت «سارة» وهي تضع كفّيها على فمها متألّمةً، وهي ترى الطّبيب وهو يخيط جرح يدي، قُلت مخففًا عنها:

- لا بدّ أن مذاق لحمي شهيّ.

تصنّعت «سارة» الابتسام بلُطف، وبقي الشّعور بالذّنب يُطلّ من عينيها، رجعتْ إلى الوراء تستند إلى مقعدها وهي تراقبنا، وكلّما غرز الطّبيب الإبر في ذراعي ليقطّب الجرح كانت تختلج وتكاد تثب من مكانها وتغلق عينيها بقوّة. راودني شعور لطيف، من الجميل أن تتحمّل الألم من أجل فتاة، والأجمل أن تكون فتاة جميلة بخفّة الرّيشة ونعومة القطن، أن تحميها من الخطر، أن تكون منقذها وفارسها، و.. ما الّذي يحدث لي؟

شعرت لأوّل مرّة منذ لقائي بها أنّها تجذبني، رغم أننا لم نتحدّث كثيرًا، كلّ شيء فيها يروق لي، وجهها القمري، وملامحها الرّقيقة، وعيناها الّتي بدت وكأنّ النّحل قد صبّ فيهما العسل للتوّ، ونبرة صوتها المخمليّة، حتّى عائلتها، أحببتهم جميعًا. دلف قائد الحرس فقطع عليّ تلك الحالة من الرّومانسيّة الّتي كُنت أعيشها لأوّل مرّة في حياتي، فقد عُرف عنّي أنني لا أصلح لتلك الأمور نظرًا لكثرة مزاحي وتهكمي على كلّ شيء، كان يحملق في دمائي فقلت له:

- تفضّل وتذوق، يبدو شهيًا!

أظهر اشمئزازًا وقال وهو يحدّق في عينيّ:

- دماؤك حمراء، أنت فعلا من المحاربين.

- يا لك من ذكيّ!

أثارت كلماتي الأخيرة غضبه، وكُنت أستمتع بهذا، فقد كان يغيظني أنّه يُخفي عنّا حقيقة ما يحدث بمدينة «كُويكُول»، وكنت ساخطًا عليه لأنّه يحتجز السيّد «كمال» وزوجته.

انتهى الطّبيب من تقطيب وتضميد جرحي، كان يؤلمني للغاية، انضممنا لباقي أفراد العائلة في الدّيوان، كان «أبادول» يجلس مستندًا بذقنه على عصاه، ينتظر في صبر إجابات عن أسئلته الّتي طرحها على قائد الحرس. وفور أن رآه الطّبيب «الحارث» وهو خارج من الغرفة الّتي كُنّا فيها أسرع إليه قائلًا:

- اثبت يا «أبادول» فإنّك على الحقّ.

حدّق «أبادول» في وجهه وقال له:

- أنت لست من «المُستبعدين» أليس كذلك؟

- بلى، أتيت طواعيةً لعلاج الأمراض النفسية عندما أخبرني «مِيثاق» بكلّ شيء، كـ«المالينخوليا» والمزاج السوداوي، والوساوس المختلفة، فالكثير من«المستبعدين» كانوا مصابين بهذا النّوع من الأمراض عندما وصلوا إلى «كُويكُول»، وكانوا يحتاجون لرعاية خاصّة.

- معقول! لكن لماذا يُلقون القبض على...

قاطع قائد الحرس حوارهما، وجذب «الحارث» من ذراعه، وأخرجه من الغرفة وهو ينهره. كُنّا في ذهول مما سمعناه من الطّبيب، وبقي سؤال السيّد «أبادول» يحلق فوق رؤوسنا بلا إجابة! لماذا يُلقون القبض على «المستبعدين»؟ حتّى المرضى منهم!

ظهرت «شَفق» فجأة، فأجفل الجميع، وأنا أيضًا، فظهور الجنّ المفاجئ مزعج. أخبرتنا بما يحدث مع «نور»، وأنّ السيّد «أنس» هناك، فانطلقتُ مسرعًا أبحث عن جوادي الأسود، وحلّقت به خلف «شَفق»، ووصلنا إلى فجوة الموت، وهالني ما رأيته، فقد كان «حمزة» هناك أيضًا، رأيته يقف قباله «نور» وهي مصلوبة على حجر دوّار أمام مركز فجوة الموت، صحت قائلًا:

- «حمزة»! ماذا تفعل؟

- ما ذنبها؟ لا بدّ أن أموت معها.

امتقع وجه السيّد «أنس»، كان لا يعلم أنّ ابنه هناك، سألني وعيناه تكاد تخرجان من محجريهما:

وعليها، وأنا فقط أسمع صُراخه، وأبوه يسألني طوال الوقت عنه هل هو بخير أم لا. تمسّك السيّد «أنس» بالحبل بيده اليسرى، وأمسك ذراع «نور» بيده اليمنى، وهمس قائلًا:

- سينجينا الله كما ينجينا في كلّ مرّة.

تسللت الدموع من عينيها، وكان السيّد «أنس» يتشبّث بذراعها ويشدّها نحوه، اكتنفتهما جاذبيّة فجوة الموت، وظلّت تسحبهما نحو قلبها، سطع ضوء قويّ، وهما يقتربان من مركزها، فبدأت أجذُب الحبل بهما لعلّني أُساعدهما، انتفضتْ الفجوة وكأنّها كائن حيّ يتنفّس، وزفرت وكأنّها بركان سينفجر، ثُمّ سحبتْهُما بسرعة شديدة فبدا لوهلة أنّهما سقطا في قلبها، ثُمّ قذفتهما بعيدًا وبقوّة شديدة، وارتفعت المدينة السّابحة في الهواء ساحبة الحبل معها لأعلى، وكأنّها تشعر بنا وتُقدّم لنا يد العون!

فرأيت السيّد «أنس» وقد اشتعل رأسه شيبًا من هول ما رآه للتوّ، كانت «نور» معلّقة بذراعه، تنفّستُ الصُّعداء، والتفتُّ لأطمئنّ على «حمزة» فوجدته يتعلّق بجناح جواد أبيه، وكانت «شَفق» تبتسم، لأوّل مرّة كانت تبتسم، يبدو أنّ تلك العفريتة تُحبّ هذه الأُسرة، وتُحبّ «نور»، ولا أدري هل تُحبّني أم لا! لكنني على أيّ حال لا أُريدها أن تُحبّني أبدًا.

عدنا إلى «كُويكُول» ومعنا «حمزة»، وكُنت الوحيد الّذي يراه كالعادة، وأقوم بدور النّاقل للحوار بينه وبين أفراد عائلته، وكان هذا مُسلّيًا جدًا، عُدنا للبيت، ووصل المزيد من عشيرة «شفق» وأحاطوا بالبيت مرّة أخرى، وقفت في النّافذة أحدّق فيما أراه، وجدتهن كلّهن من النّساء، يشبهن «شفق» في ملامحها وملابسها، فسألت «شَفق»:

- أين الشّباب الّذين كانوا هنا؟

- يحيطون بزنزانة السّاحر حتّى لا تخترقها «رَيْهُقانة» وتقتله لتستولي على قوّته، هؤلاء النّساء هنا من أجل «حمزة» و«نور»، فقد وصلهم ما حدث عند فجوة الموت، يدور الآن بعشيرتنا حوارات كثيرة بين أبي وشيوخ عشيرتنا، فالعهد الّذي بين أبي وبين المسئول عمّا يحدث بمدينة «كُوِيكُول» أصبح يقيّدنا، وقد نتعرّض للخطر.

قلت مادحًا لموقفهن:

- نساء عشيرتك رائعات مثلك.

ثُمّ أسرعت موضحًا قبل أن تظنّه غزلا لها، فقد كُنت أخشى أن تُحبّني كما أحبّت العفريتة الأخرى «حمزة» فقلت:

- أقصد قويّات البنية، وغليظات الكفوف، ونظراتهنّ ثاقبة وصلبة، ولا يبتسمن، ويقفن كالجنود في الحرب، و...

ابتعدت عني بعد أن رمتني بنظرة اشمئزاز فحمدت الله على هذا.

وصلت «مرام» إلى حالة من الانكسار جعلتها تنطوي على نفسها حتّى أنّها صارت تسير محنيّة الظهر، وكأنّ رأسها صار ثقيلًا من كثرة الضجيج الّذي يعتمل فيه، تضعضع ثباتها عندما رأت زوجها «أنس» وقد شاب شعر رأسه من هول ما رآه في لحظة واحدة انغمس فيها في فجوة الموت مع «نور»، شعرة بيضاء، وشعرة سوداء، حتّى استحال لونه رماديّا منطفئًا. رجف قلبها بين أضلاعها عندما علمت أنّ «حمزة» كان هناك أيضًا، كادت تفقدهما في جزء من الثّانية!

أرهقها التّفكير وتوقّع السيّئ والأسوأ، فهي أُمّ، والأُمّهات فقط سيتفهّمون ما تلك الهواجس الّتي تنخر رأسها طوال الوقت، لم يكن قلبها قد تعافى بعد من اختفاء ولديها خلال رحلتهم السّابقة، وها هما يغيبان عنها الآن بعد شهرين فقط من اختفائهما الأوّل! هل حقًا «حمزة» هنا في نفس الغرفة؟ وأين «خالد» أيضًا.. هي لا تدري! اشتاقت لحضن ولديها، للمرّة الثّانية على التوالي يبحث أحدهما عن أخيه، بل جميع أفراد الأسرة الآن هنا من أجل «حمزة»، رفعت عينيها تجاه وجه «طارق»، فهو الوحيد الذي يراه ويتحدّث إليه، وكانت كلّما التفتَ إلى الفراغ تُنصت بشغف لعلّها تستنتج من ردوده ما قاله ابنها للتوّ، أطرقت هنيهة وسألته على حين غفلة منه:

- «طارق».. هل من الممكن أن أرى «حمزة» بالنّاظور الخاصّ بك؟

أسرع يخرجه من حقيبته وأعطاه لها، رفعته على عينيها ونظرت تجاه المكان الّذي أشار «طارق» لوجود «حمزة» فيه، لم تره، فأعادته في يأس وهي حزينة، كانت «شَفق» هناك، وكانت «مرام» المفضّلة لديها، فهي الّتي كانت تحنو على قطّتها العزيزة، انصرفت باحثة عن شيء تُخفف به عن «مرام»، لجأتَ لجدّتها، حتمًا هي من ستشعر بها، فالأُمّ تشعر بمعاناة أُمّ أُخرى مثلها.

توجّهت «رَيْهُقانة» إلى زنزانة السّاحر، لكنّها فوجئت بأبناء «سَرْمَد» هناك، منعوها من الدّخول، فتراجعت ساخطة عليهم، وهي ترميهم بنظرات ناريّة متوعّدة، لن تعود لكي تتلاعب بأفراد عائلة أبادول» فهدفها الآن الوصول إلى هذا السّاحر، فقتله سيكسبها قوّة جديدة، كما أنّ هذا

يُرضي «حنطريرة»، وهي تعرفه، وتعرف ماضيه ومكانته العظيمة، لكنّها كانت حائرة، فـ«حنطريرة» يستطيع قتل هذا السّاحر وأيّ ساحرٍ آخر بكلّ بساطة، فلماذا طلب منها أن تقوم بالمهمّة بدلًا منه؟ وكيف لساحرٍ أن يقبع في تلك الغرفة الّتي أمامها دون أن يفعل شيئًا!

قررت العودة للعبتها، ستعود لفجوة الموت لتتلاعب بـ«حمزة» و«نور»، لكنّها وفور أن خرجت من السّجن، شعرت بوجود أسيرها في «كُويكُول»! كيف عاد إلى هنا وقد تركته أمام فجوة الموت معلّقًا في الهواء! التقت بـ«أسحم» وأخبرته بما حدث معها، فقرر اقتحام الزّنزانة بنفسه لقتل هذا السّاحر، فهناك ما يُقلقه، فهو لا يثق بـ«حنطريرة»، ويخشى أن يقتل حبيبته «رَيْهُقانة».

تركها لتتفقّد «حمزة»، و«نور»، وعاد وحده لسجن المدينة، ووقف أمام أبناء «سَرمد»، فاختفوا فجأة من حول زنزانة السّاحر المسجون، ودلف بكلّ سهولة، وراعه ما رآه بالدّاخل!

لم تكن تلك زنزانة ضيّقة، بل هي كوّة من كوّات الجحيم، كانت صورة السّاحر الأعمى أمامه، وخلفه، وعن يمينه، وعن يساره، وفوق رأسه، حتّى أنّه شعر أنّه أسفل منه، تكررت صورته أمام عينيه حتّى بدا وكأنّه جيش بأكمله يحيط به، لم يعرف أيًّا من تلك الصور هو الحقيقة، ارتجّ كيانه، وشعر أنّ مملكة البلاغة بأكملها تدكّه على رأسه، انتزعت روحه انتزاعًا من بين جنبيه، سُحق وكأنّه حشرة وهو من عمالقة «المجاهيم»! بدأ يختنق، وأخذ يصرخ كما لم يفعل من قبل، وانخفض صوت صراخه تدريجيًا حتى اختفى تمامًا.



عادت «شَفق» إلى «مرام»، ووقفت قبالتها قائلة:

- يقولون إنّ قوّتك كمحاربة كانت في ثباتك على الحقّ، وليس في قوّة بدنك يا سيّدة «مرام»، لم تقاتلي بسيف ولم يكن لديك قدرات بدنيّة جبّارة.

قالت «مَرام» بهوان:

- نعم، كان هذا قبل سنوات يا «شَفق».

- كنتِ تقرئين الأفكار، أليس كذلك؟

- بلى، كُنت أسمع ما يفكّر به الآخرون، وكان هذا مرهقًا للغاية.

- كنت الآن في زيارة جدّتي، سألتُها كيف أُساعدك، وطلبتُ منها شيئًا أُساعدك به، أو ميزة تهديها لك، فأخبرتني أنّك تملكين بالفعل ما يُمكّنك من فكّ أسر ولدك.

- أنا!!

- نعم أنتِ، حبّك له أقوى من عشق «رَيْهُقانة» له، أنت أُمّ، وليس هناك ما يُضاهي حبّ الأُمّ لولدها، تستطيعين فكّ أسرِه.

- وكيف هذا وأنا لا أراه! ولا أملك أيّ ميزة من ميزات المُحاربين.

- تملكين قلبًا يفوق قُدرات المُحاربين...قلب الأُمّ! ثقي بهذا.

- ولكنني..

قاطعتها «شَفق» وهي تربط عينيها برباط حريري، وقالت لها:

- ابنك معنا بالغُرفة..أليس كذلك يا «طارق»؟

والتفتت نحو «طارق» تسأله فهزّ رأسه بالإيجاب، فأردفت قائلة:

- سنسكن جميعًا في أماكننا، وحاولي البحث عن ولدك، اقرئي أفكاره يا سيّدة «مَرام»، كما كُنت تفعلين من قبل.

- لكننا فقدنا مَيزات المُحاربين منذ وصولنا.

صاح «أنس» يشجّعها:

- جرّبي يا «مَرام».. فقدت أدواتنا ميزاتها، لكنّ ميزتك تتعلّق بك وبحواسّك الطبيعية.

- أنسيت يا «أنس» أنني فقدتها فور إتمام مهمّتي؟

- سترينه بقلبك يا «مَرام».. ثقي بهذا.

وقف «طارق» يُراقب ما يحدث، كان «حمزة» يقف بعيدًا وينتظر، كانت «مَرام» تمد ذراعيها أمامها، وتسير وتتخبّط بهم، ولم تتوجّه نحو مكان «حمزة» أبدًا، فأصابه اليأس. كادت تيأس هي أيضًا، لكنّ «أنس» أمسك بكتفيها ووجهها نحو منتصف الغرفة، وقال لها:

- اهدئي يا «مَرام»، وحاولي التركيز، وابدئي من هنا.

ثبتت «مَرام» مكانها وبدأت تتحدث إليهم، ودموعها تسيل من تحت الرّباط الحريريّ:

- رائحة «حمزة» وهو صغير كانت تختلف عن رائحة أخيه، كلاهما حلو الرّائحة، لكنّهما كانا مختلفين. صوت ضحكاته كان متقطّعًا، أمّا «خالد» فكان يكتفي بالابتسام. عندما بلغا الرّابعة من عمرهما كُنت أضعهما في الفراش وأنام، وأستيقظ لأجده في حضني، كان دومًا يأتي بعد أن أنام، لأنّه كان يخاف كثيرًا.

كان الجميع يقفون وكأنّ على رؤوسهم الطّير وهم في حالة من الترقّب، أضافت وعلى شفتيها شبح ابتسامة:

- كان يحلم دومًا بالفراشات، ويعشق ألوانها، ويُحبّ الرّسم، دومًا كانت يداه ملطّختين بالألوان. دومًا لا يعترف بالاحتفال إلّا في حضرة أخيه، فأيّ جائزة أو هديّة أو لعبة ينسبها إليهما معًا لا لنفسه. رغم كثره اختلافهما في أوائل مرحلة البلوغ ظلّا دومًا صديقين، فهو شديد التعلّق به، عندما أصبح كثير الغضب.. كان غضبه ينطفئ دومًا في حضني.

ارتعشت نبرة صوتها وهي تضيف باكية:

- اشتقت إليك يا «حمزة»، أودّ أن أطمئنّ أنّك بخير يا حبيبي، اشتقت إليك أنت وأخيك «خالد».

وأجهشت بالبُكاء، فأسرعت «شَفق» وحلّت الرّباط الحريريّ عن عينيها كما أوصتها جدّتها، أخذت «مَرام» تفرك عينيها في انزعاج، دمعت عيناها وكانتا تحرقانها، وعندما بردت نظرت إليهم وهي تُغلق عينها وتفتحها، وتنقلها من وجه لآخر، اقترب «حمزة» منها وانحنى أمامها فصرخت وكلّ ذرّة في كيانها تختلج من شدّة الفرح:

- أنا أراك.. أراك يا حبيبي... أراك!

كان الوشم يظهر جليًا لها على جبين «حمزة»، وقد بدت عليه آثار الإرهاق وشحب وجهه وتحلّقت عيناه بالسّواد، حاولت أن تلمسه لتحتضنه لكنّها كانت تُحرّك ذراعيها في الهواء دون أن تُلامسه، فالتفتت نحو «شَفق» والسؤال يطلّ من عينيها فقالت لها:

- سترينه فقط الآن، لن تسمعي صوته، ولن تلمسيه إلّا بعد مواجهة «رَيْهُقانة»، لا بدّ أن تتغلّبي عليها لتكسري سطوتها عليه.

- متى؟

- الآن يا سيّدة «مَرام»، كوني مُحاربة بحقّ.

ثُمّ قالت وهي تجول بناظريها في المكان:

- «حمزة»... أتسمعني؟ قف خلف أُمّك طوال الوقت، فهي حصنك من «رَيْهُقانة».

سمعها «حمزة» فأسرع يسير خلف أُمّه، فسارت «مَرام» وكلّ ذرّة في كيانها تختلج، خرجت «شَفق» من البيت ووقفت على عتبته الخارجيّة، وهمست قائلة وهي تُغمض عينيها وتضمّ كفّيها: «سامحني يا أبي، لن أخلف الوعد، ولن أكسر كلمتك، لكنني سأساعدها فقط». تبعها الجميع، صاحت «شفق» مُنادية على «رَيْهُقانة»، الّتي كانت حاضرة خارج البيت وتراقبهم من طرف خفيّ، فأظهرت نفسها لهم كما يخرج الشّيطان من قُمقم، ووقفت متنمّرة وهي تخترقهم بنظرات يملؤها البغض والكُره، قالت ساخطة وقد أغضبها رؤية «حمزة» و«نور» أمامها:

- لا ينبغي عليك مخالفة أمر أبيكِ يا «شَفق».

هزّت «شَفق» كتفيها قائلةً:

- لن أُقاتلكِ.

- لكنّك تساعدينها، وليس هذا من الشّرف الّذي ينتظره منه أبوكِ.

قالت «شَفق»:

- زنديقة تتحدّث عن الشّرف!

استدارت بنات «سَرمد» فجأة، وكُنّ يُحطن بالبيت، وسرن خطوات للأمام فضاقت الدّائرة، وصارت فقط «مرام» داخلها وخلفها ابنها وأمامها «رَيْهُقانة» تواجهها، حتّى «شَفق» كانت تقف خارج الدّائرة مع باقي أفراد العائلة، رشقت بنات «سَرمد» «رَيْهُقانة» بنظراتهنّ الثّاقبة، رفعت «رَيْهُقانة» يديها لتنقل «حمزة» معها إلى وادي «الهماليل» لتهرب به، لكنّها لم تتمكن من رفعه، شعرت أنّ «مرام» تحجبه عنها فبدأت تعصر قلبها بيديها، بدأت دقّات قلب «مرام» تتسارع، وضاقت أنفاسها، وبدت وكأنّها تُنازع، اكفهرّ وجهها، كانت تردد بصوت مخنوق:

- لن أترك «حمزة».

- سأقتلك.

صرخت «مرام» فجأة:

- لا.. لا.

تراجعت «رَيْهُقانة»، فقد أرهقها الصّراع، هدرت «مرام» وشفتاها ترتجفان:

- لن تلمسيه.. ليس من حقّك أن تسلبيني ولدي.

كانت «مرام» تئن من الألم، حاول «أنس» الاقتراب لكنّه لم يتمكّن من اختراق دائرة بنات «سَرمد»، أخذ يصيح عليهن بغضبٍ شديد، لكنّهن أبعدنه، وقفت «فرح» متأهّبة بمطرقتها، وقبض «سُليمان» على الكرات في يده، وبقيت «مَرام» تتحمّل بجسارة، ثابتة على الحقّ، فهذا حقّها وولدها وفلذة كبدها وقرّة عينها، ستتحمل من أجله خروج روحها مرّات ومرّات

لكي ينجو، كان «حمزة» يصيح بانفعالٍ شديد، ويحاول صدّ «رَيْهُقانة» لكنّه كان يُصارع الهواء، ظهر «حنبش» و«حنبريت» فجأة وسلّما «أنس» خنجرًا حلزونيًا مطابقًا لهذا الخِنجر الّذي كان «حمزة» يقتنص به كيانات ساحرات «ماذريون» و«الدّواسر» ليحبسها في جسد وحش للأبد، واختفى القزمين في الحال، فالتفت «أنس» ونادى على «مرام»، فتلاقت نظراتهما، فقذف إليها بالخنجر في الهواء، فالتقطته واستدارت بجسارة وقبضت عليه بكلّ ما أوتيت من قوّة، وقامت بتوجيهه نحو كيان «رَيْهُقانة»، صوّبته لقلبها وودّت في تلك اللحظة لو كان لحمًا لتقطعه وتنقذ ابنها من مخالبها، فصرخت «رَيْهُقانة» صرخة مجلجلة، ونادت مستغيثة بـ«أسْحَم» لكنّه لم يُجبها قط!

بقي الخنجر يتذبذب في يد «مرام»، فرفعت «شَفق» ذراعيها، ونفضتهما في الهواء بقوّة وهي تردد طلاسمها، فظهر نمر أسود عظيم الأنياب، له نظرات تخلع القلب، وكان لعابه يسيل وهو يزأر ويخور، تراجعت بنات «سَرمد» للخلف، قالت «شَفق»:

- لا بدّ من حبس كيانها بين أنياب هذا الوحش الكاسر كما فعل ابنك من قبل يا «مرام».

كان قلب «مَرام» يختلج، ارتعدت فرائصها وهي تراه أمام عينيها يلهث، واللعاب يسيل من بين شفتيه. صاح «حمزة» يخبر أمّه كيف تقترب من النّمر وتوجّه نصل الخنجر نحوه، نقل إليها «طارق» ما سمعه من «حمزة»، وأخذ أفراد العائلة يشجّعونها لتقترب منه، مرّ برأس «مرام» كلّ لحظة ضمّت فيها ولدها لصدرها، كلّ ضحكاته، وهمساته، ولحظات فرحه وأحزانه، هو يستحقّ وهي ستفعلها، حتّى وإن فقدت حياتها لتنقذ حياته، اتسعت حدقتا عينيها، وكان ذراعها يرتجف والخنجر يتذبذب في

كفّها، وثب النّمر تجاهها وكاد يلتهمها بأنيابه، فاقتحم «طارق» الدّائرة ولم يتمكّن أبناء «سَرْمَد» من منعه، فهو المحارب وما زال لديه ميزاته الخاصّة، سحب سهما ورماه بقوسه فأصاب النّمر في قائمته اليمنى، وأسرع فأصابه بسهم آخر في قائمته اليُسرى، وسحب سهمًا ثالثًا ووقف مستعدًا لتوجيهه نحو قلب النّمر، وصاح قائلًا لـ«مرام»:

-«أَيَا أَيْما».

قالها بالأمازيغيّة، «هيّا يا أُمّي»، لم تحتج «مَرام» للترجمة، فقد وصلها المعنى لأنّ كلماته خرجت من قلبه، اقتربت وأنفاسها تتلاحق في سرعة شديدة، ووجّهت الخنجر لفم الوحش الكاسر، ودسّت يدها بين أنيابه وهي تصرخ، جُرحت أصابعها وسالت الدّماء منها، لكنّها لم تنزعها من بين فكّي هذا الوحش البغيض، فهي تقاتل من أجل ولدها، انتهت من حبس كيان «رَيْهُقانة» بجوف النّمر، أدركت هذا عندما توقّف الوميض المتذبذب الصّادر من الخنجر، همست «شَفق» مرّة أخرى وهي تكزّ على أسنانها وتقبض على رأس النّمر بجسارة لتسوقه من أمام «مَرام»:

- «سامحني يا أبي».

قامت «شَفق» بنقل النّمر إلى فجوة الموت بمساعدة بنات «سَرمد»، وأَطحَن بجسده فألقينه في قلب فجوة الموت، وهلكت «رَيْهُقانة» معه للأبد.

شعر «حمزة» بجبينه وكأنّ هُناك قطعة من الثّلج تمرّ عليه، رفع أصابعه يتحسس مكان الوشم، لقد اختفى بموت «رَيْهُقانة»، تحرر أخيرًا من أسرها، وظهر للجميع، ووضع يديه على صدره في تلقائيّة وكأنّه طفل صغير أراد أن يُخبر الحضور أنّه موجود، هرعت أمّه نحوه فارتمى في حضنها وأجهش بالبكاء، كانت تقبض على ظهره وتتشممه ودموعها

- ١٦ -

«المكتبة العظمى»

«خالد»..

ضرب الجواد بجناحه وحلّق بي مبتعدًا عن أرض «الكَنَهْوَر»، بينما كان خلفي «طارق» و«سِيفاو» وهما يستعدّان لدخول مدينة «كُوِيكُول»، بينما «بيادق الظّلام» تحت تلك المظلّة الّتي صنعها فوقهم سهم عسجديّ أطلقه «طارق» بقوسه، كُنت أتلفَّت من آن لآخر لأطمئن أنّهم لم يلحقوا بي، وصلت إلى المكتبة العظمى فصهل جوادي صهيلًا تردد صداه في الأجواء، ولفت أنظار أهل المكتبة العظمي لي، ففتحوا النّوافذ يراقبونني ثُمّ خرج بعضهم من البناء، وعندما هبطت بجوادي أقبل بعضهم عليّ، وسألني أحدهم:

- «حمزة»! كيف عُدت إلى هنا؟
- بل أنا «خالد»، ولديّ ما أُخبركم به.

كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي أراهم فيها، فقد التقى أخي بهم خلال رحلتنا السّابقة، أمّا أنا فخرجت من ممر «أمانوس» وكُنت قد التقيت بالسيّد «وضّاح» فقط، فهو حارس هذا الممرّ، والّذي تعرّفت على وجهه عندما أطلّ من بينهم فأسرعت نحوه. صافحوني بحبور شديد، ودلفت معهم إلى المكتبة، فأحاطني شعور بالسكينة رغم هول ما أمرّ به من

خطوب، وكان هذا رغم ارتباك الجميع وازدحام المكان بوجوه تطالعني باهتمام، وكأنّ هناك سحرًا يأخذ بألباب كلّ من يدلفون هنا!، كانت السقوف مزيّنة بنقوش عجيبة، دلفنا لقاعة كبيرة يغمرها الضّوء من كلّ صوب، تتوسّطها طاولة كبيرة وطويلة، على رأسها جلس أكبرهم عمرًا تجلله الهيبة وابتسامة هادئة تضوي على ثغره، كانت لديه لحية بيضاء طويلة ناعمة كالجميع هناك!

بدا عجوزًا جدًا كشجرة بلوط قديمة، سقط حاجباه وقد احدودب ظهره أكثر من الباقين، ولكنّه بدا صلبًا متماسكًا، وأنيقًا أيضًا! لا بدّ أنّه تخطّى المائة عام من عمره.

كان يرتدي قَبَاءً بيضاء اللون، أكمامها محلّاة بخيوط فضّية، وعلى كتفيه وضع طيلسان أزرق. ران عليهم الصّمت، ينتظرون منّي أن أبوح بسبب وجودي هنا، فبدأت أروي بالتّفصيل ما حدث لنا على أرض «الكَنَهْوَر».

أنصتوا إليّ بتركيز شديد، واستوقفوني مرارًا ليسألوني عن بعض التّفاصيل، بدا عليهم الانزعاج والقلق، وفور أن انتهيت من سرد ما حدث لنا، قال أحدهم وهو يجول بعينيه متصفّحًا وجوه رفاقه:

- من وراء كلّ هذا؟

بقي سؤاله معلّقًا في الهواء بلا إجابة، وكانوا في حيرة شديدة، تناهى إلى مسامعنا صوت صهيل الخيول المجنّحة، لقد أقبلت وهي تحمل «بيادق الظّلام»، أسرع حرّاس المكتبة إلى النّوافذ ليروا ما يحدث بحديقتها، هبط فرس منها وحمل بيدقه أحد حرّاس المكتبة معه، وانطلق

به مبتعدًا مع كوكبة الخيول الأخرى، سمعتهم يُرددون اسمه في انزعاج شديد وهم يقولون:

- إنّه «حَيْدَرَة»!

- ما الّذي فعله بأرض «الكَنَهْوَر»؟

- لماذا يحتجز هؤلاء المساكين هناك؟ وماذا سيفعل بهم؟

- هو يعلم سرّ تلك الأرض، وما تعنيه لعالم الكُتب، فلماذا اقتحم نطاقها بتلك الطّريقة؟

سألتهم على استحياء:

- وما سرّ أرض «الكَنَهْوَر»؟

تقاطعت نظراتهم على وجهي، كانوا في حالة تخبّط وقلق شديدين، تعالت أصواتهم وهم يتناقشون هل يخبرونني أم لا؟ طرق أكبرهم سنًا على الطّاولة ثلاث مرّات، فتوقفوا عن الكلام فورًا، وكأنّ أحدهم ألقى رداء الصّمت فأسكتهم، والتفتوا نحوه بوقار شديد، وعندما رأى أعينهم وقد توجّهت إليه قال:

- لا بدّ من استدعاء «الزّاجل الأزرق»، نحن نحتاج إلى جيش «المغاتير».

ثُمّ التفت نحوي قائلًا:

- سأُخبرك بسرّ أرض «الكَنَهْوَر» يا بنيّ.

وبدأ يشرح لي.

ضُربت الطّبول على أبواب مدينة «كُوِيكُول»، وانضبط الحرّاس بأسلحتهم، وأخذ المشرفون ينادون ويجمعون أهل المدينة، كان هناك حالة من الاستنفار، لقد جاء المُحققون!

اصطفّ أهل المدينة على الجانبين، دلفت الخيول الرّماديّة حاملة «المحققين» يتقدّمهم قائدهم «مِيثاق»، كانت ثياب «المُحققين» مختلفة عن بعضها البعض، فهم من بلاد مختلفة، لكنّهم يحملون نفس الفكر، ونفس المنطق، ونفس الهدف.

من خلفهم دلف «بيادق الظّلام» بخيولهم السّوداء وثيابهم السّوداء، وهم ملثّمون، لا يظهر منهم إلّا أعينهم، تقدم أربعة منهم، ثُمّ أطلّ «حَيْدَرَة» على جواده، ولحيته البيضاء الطويلة تلامس ظهر حصانه وكأنّها تتصل به، فغر «أبادول» فاه عندما رآه وناداه وهو يحثّ الخطى نحوه:

- «حَيْدَرَة»!

اقترب «حَيْدَرَة» بجواده وترجّل عنه بمساعدة «مِيثاق»، ثُمّ سار بتؤدة ووقف أمام «أبادول»، وقال بصوته الرّخيم وهو يثقب عيني «أبادول» بنظراته:

- مرحبًا أيّها المُحارب العنيد.

- اقترب «أبادول» وهو يضرب الأرض بعصاه وسأله:

- أأنت وراء كلّ هذا يا «حَيْدَرَة»؟

- نعم.

- هل يعلم باقي حرّاس المكتبة بأمر مدينة «كُوِيكُول» و«المستبعدين»؟

- لا.

- كيف هذا؟

- اتخذتُ القرار وحدي، وأنا منوط بتنفيذه دون الرّجوع إليهم، تعلم أننا سواسية، وكبيرنا ليس بملك علينا.

- بأيّ حق تتخذ قرارات تتعلّق بمصائر الآخرين؟

- من أجلهم.. من أجل هؤلاء المستبعدين.

- كيف لك أن تقوم بإقصائهم؟ وكيف تأمر جنودك باختطافهم من بين ذويهم؟ وبحرمانهم من أحبابهم وفلذات أكبادهم، وباقتطاعهم من أوطانهم؟ بأيّ حق تأسرهم وتفعل كلّ هذا؟ ولماذا؟

أشاح بوجهه عنه قائلًا:

- أنت لا تعرف ما أعرفه، لا تحكم على الأمور بظواهرها يا «أبادول».

- لم يرتكبوا جُرمًا، ولم يسرقوا أو ينهبوا، فكيف تسجنهم هنا؟

رفع «حَيْدَرَة» حاجبيه مستنكرًا وهو يقول:

- وهل هذا سجن؟ «كُوِيكُول» جنّة على الأرض! إنّهم يعيشون في أفضل حال، ويتنعّمون في أمان وسلام.

- لا قيمة للجنة بدون أحبابنا، ولا سعادة مع الأسر والقيد، ولا راحة مع القهر، الحرّية هي الحقّ في أن تختار، وتبحث بنفسك عن بدائل الاختيار، ولهذا وهبنا الله العقل.

- ألم يُخبرك «سيفاو» بما حدث له؟ لقد عاد لقبيلته، واكتشف تلك المؤامرة الّتي كانت تُحاك لقتله.

- والبقيّة، وهذا الرّضيَع، تخطفون رضيعًا من حضن أمّه!

- ماتت أمّه وهي تلده، وكان أبوه سيُلقيه في بئر ليتخلّص منه.

- و«أمنوكال»؟ والشيّخ وزوجته؟ وكلّ هؤلاء الشباب الّذين يضحّون بالحياة!

تعالت الأصوات، قال أحدهم:

- ليس من حقّك أن تسلبنا حرّياتنا.

وصاحت امرأة:

- أيّها الظّالم، منعتني عن أولادي.

أجهشت المرأة بالبُكاء، وعلا الضجيج، فرفع صوته وهو يُخاطبها قائلًا:

- كان زوجك يُخطط لإلصاق تهمة ارتكاب الفاحشة بكِ، وكان سيسمح لرجلٍ غريب بالتسلل إلى بيتك ليفضحك، ويذبحك في فراشك أمام الجميع، كانت تلك هي حيلته ليتملّص من بطش أبيك وأخيك، ويقتلك بدم بارد دون أن يلومه أحد، كان هذا مخططَه الذي أراده ليلة أنقذكِ «بيادق الظّلام».

أجفلت المرأة من كلامه، وكانت تعلم بفسق زوجها، لكنّها لم تتخيّل أن يفعل هذا بها! لكنّها صرخت بانفعال:

- كاذب.. أنت كاذب.

صاح آخرون:

- ليس هناك دليل على ما تخبرنا به.

قال «حَيْدَرَة» بتأثّر شديد:

- كنّا ننقل المصابين بأمراض نفسيّة، فقد أهملهم ذووهم واتهموهم بالجنون! ولقد تطوّع الطبيب «الحارث» وانتقل إلى المدينة ليقيم بينهم ويهتّم بعلاجهم، وكذلك المصابين بأمراض عقلية عندما يصلنا أنّ ذويهم قاموا بإخراجهم من بيوتهم وألقوهم في الطُّرقات، لقد تخلّوا عنهم، ولم يحفظوا الأمانة، فكانت «كُوِيكُول» ملجأ لهم.

تلفّت أهل المدينة، كان بعضهم بالفعل مرضى عند وصولهم، والآن قد برئوا من مرضهم بفضل الله ثُمّ مُساعدة هذا الطبيب الحاذق الماهر، فدمعت أعينهم.

التفّ البيادق حول «حَيْدَرَة» و«أبادول» عندما ازداد الزّحام، رفع «حَيْدَرَة» صوته وأضاف قائلًا:

- وكنّا نلقي القبض على السّفاحين والقتلة المأجورين، وآكلي لحوم البشر، والسّحرة، ونعدمهم بإلقائهم في فجوة الموت لنحميكم جميعًا، نحن هنا من أجلكم.

قال شابٌ غاضب نفرت عروقه من شدّة الغضب:

- هؤلاء يستحقّون لأنّهم مُجرمون، أمّا نحن فلا نستحقّ الحبس والنفي وليس لك أن تقيّد حرّيتنا وتنتزعنا من قلوب أحبابنا!

نظر إليهم «حَيْدَرَة» بنظرات مترددة، وعاد يُخاطب «أبادول» وقال:

- أنت تعلم أنّ حرّاس المكتبة يعرفون الكثير عن الأهوال الّتي تدور هنا على أرض مملكة البلاغة، نحن نسمع الكثير من القصص، الكُتب لا تتوقّف عن البوح لنا بأسرارها، نحن نتغافل عن الكثير، ونحمل همّا عظيمًا، نبكي أحيانًا، ونفرح أحيانًا، ونكتشف أسرارًا! وهذا ما حملته على عاتقي.

قال «أبادول» وهو يلومه:

- حملت ماذا؟ أنت تعبث بحياة النّاس!

- حملتُ تلك الأسرار، دومًا هناك من يخطط للقتل، للذبح، لسلب الآخرين حيواتهم، للاغتصاب، للظلم، الحقد والغلّ والطمع في كلّ مكان، كُنت أعرف أشياء لا ينبغي السّكوت عنها، ولو حذّرت واحدًا من هؤلاء المستبعدين لن يصدقني، وقد حاولت بالفعل مع بعضهم لكنني فشلت، لم يُصدّقوني، وكان مصيرهم الموت، ولهذا نشرت كتائب المُحققين في كلّ بقاع المملكة، ليأتوني بالأخبار، وكان عددهم يتزايد يومًا بعد يوم، وانتخبت منهم عشرة، أوزّع عليهم المهام الرئيسية.

- أيّ مهام تتحدث عنها يا «حَيْدَرَة»؟

- مهام اختطاف هؤلاء المظلومين لحمايتهم، «أمنوكال» كان سيُقتل بأمر من زوجة أبيه، أرادت أن تحرمه ميراثه من والده في المال وفي زعامة قبيلة «آيت أومالو» مستقبلًا، فقد ماتت أمّه، ونحن نُخطط لاحضار شقيقته المسكينة إلى هنا.

تعالت شهقات سكان المدينة، وضجّ المكان بأصواتهم، أردف «حَيْدَرَة» وهو يشير إلى «سيفاو»:

- يستطيع «سيفاو» أن يخبركم بما اكتشفه عندما عاد لقبيلته، و...

قاطعه «أبادول» قائلًا بحزم:

- نحن لا نُصحح الأخطاء باستبعاد المظلومين، بل بالضرب على يد الظّالم ومنعه، ليس من حقّك أن تسلب أحدهم حياته بزعم أنّك تحميه من القتل!

صاح «حَيْدَرَة»:

-لو تركتهم سيموتون، كلّ الظّروف كانت تؤدي لهلاكهم لا محالة.

- لماذا لم تخبر باقي حرّاس المكتبة العظمى؟

- لأنّهم سيرفضون.

- بل لأنّك تعلم أنّك على خطأ، لا تتلاعب بالآخرين كما تُحرّك قطع «الشّطرنج» يا «حَيْدَرَة»! جنودك يمارسون الكثير من القمع هنا، يتعاملون بقسوة مع من يحاولون الهروب من المكان، هذا ظلم شديد.

- لستُ ظالمًا، أنا أنقذهم من الظّلم.

- بل أنت ظالم، يُولد الإنسان حرًّا في نفسه وماله وولده حتى يقع في الأسر، بسلطان، أو بحبّ، أو بدين لم يُسدده، وربّما يقع أسيرًا لفكرة، وهأنت تقع أسيرًا لأفكارك.

قال «حَيْدَرَة» متألّمًا:

- بعض القرارات الّتي نتّخذها تُشبه جريمة القتل، فنحن نقتل شيئًا في أنفسنا، ليحيا شيءٌ آخر فيها، ويظلّ الضّدان يتقلّبان، ويتلجلج السّؤال، هل نحن قتلة وسفّاحون؟ أم نحن أبطال شُجعان!

ثُمّ أضاف بارتباك:

- لم أُخطط للأمر، بل فُرض عليّ فرضًا وأردت للأمور أن تتحسّن.

- ماذا تعني بهذا؟

- بدأ الأمر في غابة «الأطياف السّوداء»، كان بعض المظلومين يهرعون إليها، يهربون ممن يطاردونهم، ومن القتل، وكانوا يختبئون فيها، لكنّها كانت تحتجزهم داخل حدودها، وتمنعهم من الخروج مرّة أخرى.

- كيف هذا؟

- كانوا يطلقون عليها «غابة السّعادة»، وكانت زيارتها حلمًا لأهل المملكة، لا شكّ أنّك سمعت عنها. أشيع أنّ من يدخلها يخرج سعيدًا ومنشرح الصّدر ويتخلّص من أحزانه ومشاكله، فكانوا يهرعون إليها، وعندما استوطنها ذاك السّاحر اللعين انقلب الحال.

- كان يستمتع بتعذيب كلّ من يلجأ للغابة، بعضهم قام بشنق نفسه هناك، وبعضهم ظل يصرخ وينادي على المارّة لينقذوه، لكنّ المارّة كانوا يخافون، ولا يجيبون استغاثاتهم، لهذا بحثت عن مكان آمن آخر، وعثرت على «كُوِيكُول» وهي تزحف تجاه أرض «الكَنَهَوَر».

- تزحف!

- نعم؛ بعض بقاع «مملكة البلاغة» تزحف حتى تتخطّى حاجز «الكَنَهَوَر»، وتتحوّل إلى مقبرة.

ثُمّ اقترب «حَيْدَرَة» من «أبادول» وأمسك بذراعه وقال بصوت واهن:

- أتدري ما أرض «الكَنَهَوَر»؟

تعلّقت عينا «أبادول» بعيني «حَيْدَرَة» الكابيتين وهو يردف قائلًا بصوتٍ خفيض:

- تلك الأرض تحمل بين جنباتها كلّ الرّوايات الّتي لم تكتمل بسبب وفاة كتّابها ومؤلّفيها، لم يضعوا النهايات السعيدة، ولا حتّى الحزينة، ولم يتركوها بنهاية مفتوحة! توقفت الحياة هنا، وامتنعت «الحورائيّات» عن الهمس، وسكنت غابة «البيلسان»، ثُمّ مات الكاتب وبقيت روايته ميّتة، مكفّنة في أوراق دفاترهِ البيضاء، على الرّفوف وفي أدراج المكاتب، لن تحيا بمخيلة قارئ، ولن يعرف عنها أحد، تُلقى في سلّة المهملات، ويحرقها البعض فتلتهمها النّيران.

- يا إلهي!

التفت «حَيْدَرَة» إلى الجمع حولهما، ودار بعينيه متصفّحًا وجوههم وعاد يهمس لـ«أبادول»:

- هؤلاء «المستبعدون» هم كلّ شخصيّة يستبعدها الكاتب بكل قسوة، وبكل برود، ينتزعها من بين الفصول بكلّ بساطة، يمحو دور هذه هنا، ويلغي دور هذا هناك، أو يمزّق الصفحة الّتي كتب فيها عن تلك الفتاة المسكينة، يمحوها ويبدلها بأخرى لتكون الفرصة الأكبر لبطله الرئيسي، الظّلم يقع هنا على أحدهم في جنبات أرض مملكة البلاغة، فتهمس «الحورائيّة» والكاتب يستبعده هناك، لقد وهن العظم منّي وأنا أُحاول فهم الرّابط بين العالمين، عالم الكتب هنا، وعالم المؤلفين هناك، وكيف تُدافع الكتب عن مبادئها،

وددت أن ألتقي بها وأعانقها كتابًا كتابًا، وصفحة صفحة، وسطرًا سطرًا، وكلمة كلمة، وحرفًا حرفًا! وأسألها عن السرّ.

قال «أبادول» وعيناه تسبحان في حيرة:

- سيظل هذا السرّ أُحجية تُحيّرنا للأبد.

هزّ «حَيْدَرَة» يده وقال بانفعال:

- الوقت.. الوقت يا «أبادول» يمرّ هنا، ويمرّ هناك، وأنا لا أدري أين أنا الآن.

تأمّله «أبادول» وقال بتأثّر:

- يبدو أنّك تعبت يا «حَيْدَرَة»، أنت مُرهق للغاية، وحان وقت...

وضع «حَيْدَرَة» يده على فم «أبادول» وقال برجاء:

- لا تقلها أرجوك! لن أرحل من هنا.

أشفق «أبادول» عليه فقال:

- حسنًا، ما قصّة الخيول؟

- «بنات الرّيح».

استعاد «حَيْدَرَة» رباطة جأشه وقال:

- سلالة «سيرين»، وهي فرس أصيلة، خاضت الكثير من الحروب مع فارسها المقدام، ضلّت في الصّحراء بعد وقوع فارسها في الأسر، وعثر عليها رجلٌ غليظ القلب في إحدى الغابات، وكان يُعذّبها، حاول ركوبها فأسقطته وكُسرت ساقه، فقرر إحراقها انتقامًا منها هي وأبنائها الأربعة، فقتله شابٌ شجاع من شباب القرية،

قصاصًا لأبيه الّذي قام هذا الظّالم بتعذيبه حتّى مات، وقام الشّاب أيضًا بتحرير أبناء «سيرين»، وأطلق سراح المهور الأربعة، وركض بهم في المروج الخضراء حول قريته، فأخذت المهور تركض حتّى برزت لها أجنحة، وحملته معها إلى وطنها الجديد، فقد أوشك أهل القرية على قتله. هبطوا على أرضٍ خالية من البشر، وعاشوا في سلام، وحلّت البركة على أنسالهم، ومرّت السنون، وامتلأت المدينة بخيول سوداء، وبيضاء، وشهباء، وكستنائيّة، لكلّ منها جناحان بديعان، تحلّق بهما في السّماء وقتما تشاء، ثُمّ تقبضهما إلى جذعها وتهملج في البساتين كيفما تُريد، لا سُلطان لأحدٍ عليها، ولا عذاب بعد الآن، تركض بأقصى سرعتها وسط السّهول لأنّها حرّة طليقة، على أرض خالية من أحقاد البشر.

التفت «حَيْدَرَة» نحو «مِيثاق»، ونظر إلى عينيه الزرقاوين بحنانٍ بليغ، ما زالت عيناه وكأنّهما بحران رائقان هبّت فيهما عاصفة هوجاء، هزّ «مِيثاق» رأسه بامتنانٍ ونظر إلى «حَيْدَرَة» في إجلال، أضاف «حَيْدَرَة» بصوت دافئ:

- كان «مِيثاق» يتنقّل بها في كلّ مكان، حتّى التقيتُ به، ودلف قلبي منذ أوّل لقاء، وهو بمثابة ولدي، وهو من اقترح عليّ أن تقوم «بنات الرّيح» بنقل «المستبعدين» إلى «كُويكُول»، والآن يُدرّب «بيادق الظّلام» بنفسه، ويطوف أرجاء المملكة باحثًا عنهم.

- ألم تلفت الأنظار إليها؟

- كان الجميع يعرفون عنها، «حرّاس المكتبة»، و«المغاتير»، والملوك، والأمراء، والجنود في كلّ مكان، لكنّهم لم يتمكّنوا من ترويضها

أبدًا، كانت ترحل وتختفي، فقط «بيادق الظّلام» هُم مَن تمكنوا من ترويضها، بإشراف هذا الشّاب.

- وما السرّ؟

- كما نبتت لها أجنحة لترحل بعيدًا عن الظّلم والقهر، فهي تبسط أجنحتها للهاربين من الظّلم والقهر، تلك الخيول تقرأ ما يدور بعقولنا، وهي تشعر بكل ساكن من سكّان تلك المدينة. للأسف لم يكن لديّ سابقًا ما أحمل عليه المستبعدين القُدامى.

- المستبعدون القُدامى!

- نعم؛ كلّهم ماتوا في غابة الأطياف السّوداء، دُفنوا هناك، ماتوا من الخوف، والقهر، والجنون.

ثُمّ أردف وهو يتحسس الندبة على جفن عينه:

- لقد خضت معركة عظيمة حتّى أتمكّن من السيطرة على غابة الأطياف السّوداء، خضّتها وحدي يا «أبادول»، كدْت أفقد بصري، تمكّنت من قهر هذا المارد الملعون، ونفيه إلى أرض «الهماليل» حيث يبقى وحيدًا هناك، صار «حنطريرة» أسيرًا لي، فقد كان قتله صعبًا للغاية.

فور أن نطق «حَيْدَرَة» باسم «حنطريرة»، دوّى صوت مهيب أخاف الجميع، وانطلقت صرخة مجلجلة ارتجّت لها القلوب، وانقشعت السّحب البيضاء من فوق مدينة «كُويكُول»، وتحطّم سقف الزّنزانة الّتي كان السّاحر محتجزًا بها، وارتفع جسده إلى أعلى، وكأنّه يتربّع على بساط خفي، لم يكن ضريرًا بل كان يدّعي هذا طوال الوقت، رفع الجميع

رؤوسهم تجاهه، تعرّف «حَيْدَرَة» على صوته، لن يُخطئه أبدًا، فقال بصوت يرتجف:

- «حنطريرة»!

غرق «حمزة» في ذهول تامّ، رأى نفس الوجه الّذي كان يتحاور معه في وادي «الهماليل»، احتاج لبضع ثوانٍ قبل أن يقول:

- حنطريرة! هو نفسه!

قال «حنطريرة» بصوته المتحشرج مُحدّثًا «حَيْدَرَة»:

- اليوم ستدفع ثمن خطئك يا «حَيْدَرَة».

كان «حنطريرة» أسيرًا منذ خروجه من غابة «الأطياف السّوداء»، يهيم على وجهه في أرض «الهماليل» منذ أن نفاه «حَيْدَرَة» إلى هُناك مع باقي الوحوش والكائنات الّتي وقعت في الأسر، طال انتظاره وهو يبحث عن ثغرة يتحرر بها من الأسر، كان يعلم أنّه كأسير يستطيع الشّعور بحضور أسير آخر، لكنّه لن يراه، ولن يسمعه، وكان «حمزة» أسيرًا من نَوع آخر، لأنّه بشريّ كما أنّه مُحارب قديم، وكيانه يختلف عن كيانات الأسرى بالوادي، ولهذا تمكّن «حمزة» من رؤية «حنطريرة»، كما رأى الذّئاب، وتواصل معه، وكانت تلك هي الثّغرة، أن تكون هناك حلقة وصل بينه وبين كيان مُختلف، فردد «حنطريرة» رموزه الخاصّة وتحرّر من أسره، وخرج من وادي «الهماليل».

وطاف بأرض «الكَنَهور» وعثر على كتاب «القَلْقَديس» هناك، فقد جذبه الكتاب إليه بأصواته الّتي يُصدرها! وبدأ يُمارس السّحر بقرية أخرى بالمملكة، وعندما وصل خبر ظهور ساحرٍ غريب للمحققين أرسلوا

«بيادق الظّلام» في الحال للقبض عليه ولم يعرفوا أنّه «حنطريرة»، وصدر الأمر بإلقائه في فجوة الموت، وكان قد ضعف ويحتاج لمزيد من القوى، فعاد لوادي «الهماليل»، ليرسل «حمزة» ومعه رسالتان، ليستدرج «أَسْحَم» ويقتله ليكتسب قوّته، وذلك بدعوة «رَيْهُقانة» أوّلًا ليغريها بقتل السّاحر المسجون واكتساب قوّة جديدة منه، وكان ينوي قتلها عندما تدخل الزّنزانة، لكنّ أبناء «سَرمد» منعوها من الدّخول.

كان «حنطريرة» يعلم أنّ «أسحم» يعشقها وسيتتبعها ويخترق حدود أرض «الكَنَهْوَر» غير آبه بأيّة عهود بين طوائف الجنّ، وهو من مردة المجاهيم كما أنّها من ساحرات «ماذريون»، وبقتلهما معًا سيكتسب المزيد من القوى ويعود لسابق عهده، وقد وقع «أَسْحَم» بالفعل في الفخّ.

كان «حمزة» وسيلته للوصول لـ«حَيْدَرَة»، واستطاع أن يستدرجه عندما أرسل رسالة إلى «أبادول»، ليخبره أن يطلب لقاء «حَيْدَرَة»، وها هو الآن يستعد للانتقام منه.

أخذ يُردد طلاسم من كتاب «القَلْقَديس» الّذي كان بين يديه، وقد أضاءت عيناه وكأنّهما جمرتان مشتعلتان، عادت إليه قوّته كما كانت سابقًا، انهارت أسوار مدينة «كُويكُول»، وأقبل رجال ضخام لهم جماجم عظيمة، كأنّما أُغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا، لكلّ واحد منهم عين واحدة، وفتحة واسعة مخيفة تحتها، وأقبلوا بأعداد غفيرة وأحاطوا بالمدينة من جهاتها الأربع، إنّهم شعب من العمالقة من أتباع «حنطريرة» وخدّامه الّذين يطيعون أوامره طاعة عمياء.



-١٧-

عمالقة «الكِيكلوبس[١]»

أحاط شعب الـ«كيكلوبس» بالمدينة من الجهات الأربع، تسلل الرّعب إلى قلوب أهل مدينة «كُوِيكُول»، وذُهل الحُرّاس من ضخامة أجساد شعب الـ«كِيكلوبس»، ذوي الجماجم الضّخمة، والوجوه التي تحتلّها عين واحدة كبيرة، فوق فتحة خاوية ومخيفة، والّذين يطيعون «حنطريرة» طاعة عمياء وكأنّهم بلا عقول، وقد أمرهم بقتل كلّ من يعيش على أرض «كُوِيكُول».

أقبلت «شفق» وهي تصيح قائلة:

- سيّد «حَيْدَرَة»، أعطنا الأمان لنقاتل معكم.

رفع «حَيْدَرَة» يده قائلًا:

- الأرض أرضكم يا أبناء «سَرمد»، ولتفعلوا ما تشاءون على أرض «كُوِيكُول».

رفعت «شَفق» رأسها، وصاحت صيحة مجلجلة:

- فلنُقاتل من أجل أرض «الكَنَهْوَر» وسكّانها.

---

(١) الكيكلوبس مخلوقات أسطورية تمتاز بضخامة جسدها وبوجود عين واحدة فقط في وسط رأسها، وقد استمدت هذه المخلوقات من الأساطير اليونانية والرومانية التي ظهرت في (الإلياذة والأوديسيا) والـ«كيكلوبس» ظهرت في هذه الأساطير بعدما اكتشف الناس جماجم لمجموعة من الأفيال بفتحات كبيرة وسط رأسها (موقع خرطوم الفيل قبل أن يتحلل) مما جعلهم يظنون أنه مخلوق غريب.

وثب قائد الحراس على جواده قائلًا بصوته الجهوري:

- فلنحارب معًا، يدًا واحدة.

أشهر الفرسان سُيوفهم، ووقف الجميع متأهّبين للدفاع عن أنفسهم ووطنهم «كُويكُول» الّذي ظنّوه بالأمس القريب سجنًا، ولكنّه وبعد انكشاف الحقيقة صار الآن قطعة منهم، اهتزّت الأرض من تحت أقدامهم، وامتلأ المكان بقطط «الماو»، ثُمّ هبط أبناء «سَرمد» من كلّ حدب وصوب بعدد تلك القطط الّتي اختفت فور ظهورهم مكانها، رفعت «شَفق» كفّيها في الهواء مُشيرة لهم بالهجوم، فانطلقوا يطيرون من ركن لآخر بالمدينة، ودارت حرب طاحنة، كانت الحرب على الأرض بالسّيوف، وحرب أخرى تدور بين الأرض والسّماء، فقد نشر «حنطريرة» أتباعه من الجنّ في كلّ مكان، وكان لقتالهم أصوات تخلع القلوب.

انضمّ «القنّاصون» للمعركة، وأقبلوا يصطادون أتباع «حنطريرة» من الجنّ، تردد صوت ارتجّت له القلوب، وفوجئ أهل المدينة بالتّماثيل الموزّعة في كلّ مكان وهي تتحرّك، وتسير، وتنتقل من أماكنها، فقد حرّكها «أبناء سَرمد» ليقاتلوا بها، بدأت التّماثيل تسير نحو عمالقة «كِيكلوبس» ودهست أعدادًا كبيرة منهم، وأحاطت بالعمالقة من كلّ الجهات، وفجأة هوت تلك التّماثيل فوق رؤوس جنود الـ«كيكلوبس» فتحطّمت جماجمهم.

كان «طارق» يحلّق بجواده الأسود، ويرسل سهامه العسجدية ويحتجز بها العمالقة ليؤخرهم حتّى يستعدّ «بيادق الظّلام» على خيولهم لتوجيه الضّربات إليهم، وفور انقشاع الحاجز كانوا يقضون عليهم في جماعات. استعار «حمزة» المطرقة من «فرح» وانهال بها ضربًا وحطّم الكثير من جماجم «الكِيكلوبس»، عاد «خالد» بجواده المجنّح وانضم إلى المعركة،

وأخذ يرتفع بجواده ثُمّ يضرب بالسّيف يمينًا ويسارًا فيحصد رؤوس هؤلاء العمالقة. وكان «سِيفاو» يُلقي رمحه فيقضي على العملاق بضربة واحدة يُسددها نحو قلبه، ويسرع كالفهد نحوه عندما يسقط على الأرض ليسترد رُمحه، ويعاود الكَرّة ويقتل عملاقًا غيره.

وفجأة؛ حدث ما لم يكن في الحُسبان، هُناك خطب جليل يتعلّق بعالم «الكَنَهْوَر»، وبالكتب الّتي لم تتم نهاياتها ولم تكتمل قصّتها لموت كتّابها، زلزال شديد أصاب جبال «الخُرافة»، فانهار جدار «الكَنَهْوَر» الممتد من فوق قممها وحتّى السّحاب، وانقشع الضّباب الأبيض! صار متاحًا للجميع العبور لتلك الأرض العجيبة، كان هناك جيش عظيم من صناديد «الأمازيغ» قد وقفوا في صفوف على أطرافها بخيولهم مجدولة الأعراف، وكان «مَاسين» في المُقدّمة يمتطي صهوة جواده بكبرياء، وانضمّ إليهم جيش«المغاتير» وعلى رأسهم «الزّاجل الأزرق» بحضوره وجسده الّذي يتنفّس الشّجاعة، بُسطت الأرض أمام الجيشين وكانت الجبال تتباعد لتُفسح لهم الطريق، فانطلق «الزّاجل الأزرق» يعبرها أمام جيشه بجسارة، فتبعوه في زمر متلاحقة، وكذلك فعل «مَاسين» بجيشه وهم يرددون صيحاتهم الّتي كانت أسماء لمحاربين قُدامى كانوا يؤمنون بالحرّية كما يؤمن كلّ جنديّ منهم بحقّه في الهواء الّذي يتنفّسه.

أجفلوا عندما رأوا عمالقة الـ«كِيكلوبس» وهم يتربّصون كالذّئاب في انتظار لحظة الإطباق على الحلق والدّحرجة مع الخصوم في شجار مميت، لكنّ قادتهم كانوا ثابتين كالجبال الّتي تطلّ عليهم من الجهات الأربع، وتقدّموهم نحو هؤلاء المسوخ، فتبعهم الجنود في حماس اقتداء بهم، وأحاط الجيشان بمن تبقّى من عمالقة الـ«كِيكلوبس» من الخلف، وتسلّق الرّماة قمم الجبال المُطلّة على ساحات مدينة «كُويكُول»، وسددوا

سهامهم نحوهم فقضوا عليهم، دارت معارك طاحنة، حصدت الكثير من الرؤوس، تمّت السّيطرة على المدينة، وبقي «حنطريرة» متربعًا على بساطه، يطير فوق مركز المدينة بعيدًا عن سطح الأرض، والجميع يُراقبونه في سكون مهيب، وينتظرون ما سيفعله بعد اختفاء أتباعه والقضاء عليهم بواسطة الجيوش الّتي تكاتفت في حضور عائلة «أبادول» بأكملها، غمغم «حنطريرة»، وتوهّجت عيناه وهو يقترب من «حَيْدَرَة» ليقتله، فهو يعلم يقينًا أنّه مستنفد القوى بعد معركتهما السّابقة بغابة «الأطياف السّوداء»، صاح «حَيْدَرَة» مستغيثًا بـ«أبادول»:

- «أبادول»...أرجوك!

ضرب «أبادول» الأرض بعصاه، وانطلق بخطوات مُسرعة نحو «حنطريرة»، كان «حنطريرة» يعلم أنّ «أبادول» لديه من قوّة الإيمان واليقين ما يخوّله للقضاء عليه، فالتفت كوحش كاسر ورفع ذراعيه وهو يحمحم كالبركان، وعلّق أحفاد «أبادول» الخمسة في الهواء، ازرقّ وجه «خالد»، وكان الزّبد يخرج من فم «سارة»، وجحظت عينا «حمزة»، وفقد «سُليمان» وعيه في الحال وبقي معلّقًا في الهواء، ظهر «سَرمد» فجأة، كان يتابع ما يحدث عن كثب، وأخذ يحررهم واحدًا تلو الآخر، بينما أهل المدينة يتلقفونهم بين أيديهم، وبقيت «فرح» معلّقة، لم يتمكّن «سَرمد» من تحريرها!

وكانت تصرخ وتقبض على عنقها بيديها، هناك من يعصره وهي ترتفع لأعلى منهم جميعًا وساقاها تتدليان في الفراغ، صرخت «مَرام» صرخة مزّقت نياط القلوب، وانخلع قلب «أنس»، صاح «سَرمد» موجها كلامه لـ«أبادول»:

- الآن يا «أبادول»!

انطلق «أبادول» نحو «حنطريرة» وصوت صراخ حفيدته يطنّ في أُذنيه، وكان «أبادول» يرتفع مع كلّ خطوة يخطوها للأمام، وكأنّ هناك درجًا خفيًّا يُبسط ويرتقي أمامه، صارا وكأنّهما يقفان على بُساط واحد خفيّ ومُعلّق في الهواء، وقف ثابتًا كالطود أمامه ورفع ذراعه وهو يُردد:

- ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

قبض«أبادول» على عصاه بقوّة، ثُمّ ضرب بها رأس «حنطريرة» بأقصى ما أوتي من قوّة، فسقط على الأرض يخور كالثّور، كان يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما تحررت «فرح» وسقطت بين يديْ أبيها، وتنفّست الصُعداء، اقتربت ساقا «أبادول» من الأرض حتّى وطئها بقدميه، والتقط كتاب «القَلْقَديس» وأغلقه، كان «حنطريرة» ساكنًا، والكلّ ينظر إليه في ارتياب، لم يلحظ أحفاد «أبادول» ما حدث لجدّهم الأكبر، فقد كان كلّ منهم يتعافى مما مرّ به للتوّ، لكنّه الآن ضحّى بشيء عظيم سيعرفونه لاحقًا، شيء سيؤلمهم ويؤلمه، لكنّها الضرورة الّتي تُحتّم عليه أن يفعل هذا، وقد حان وقت التّضحية، كما ضحّى قبله آخرون. من أجل نصرة الحقّ على أرض مملكة «البلاغة»، ومن أجل المستبعدين والمستضعفين، ومن أجل الخير الّذي لا بدّ من حراسة روافده، ليتسمرّ تدفّقه في ربوع الأرض.

الخير يبقى، والشرّ يفنى، عندما يقف الصالحون على مفارق الطّرقات، يخوضون معارك الحياة بنبل وشهامة، يضربون على أيادي الظّالمين، ويمنعونهم من ظلمهم، يحررون الأسرى، وينصرون الحقّ دومًا، بقلوب عامرة بالإيمان، وعزائم من حديد.

التفت «أبادول» نحو أهل المدينة بوجهه الطّيب، أشرقت عيناه عندما رأى أحفاده بخير، وكان «خالد» يُعانق أخاه «حمزة» في مشهد مؤثّر، أفاق «سُليمان» وكان مُتعبًا للغاية، كانت «سارة» تبكي وهي تضمّه إلى صدرها، اختلجت الأحاسيس، لقد تعرّضت تلك العائلة لزلزال شديد، لكنّها ثبُتت وتكاتفت حتّى مرّت محنتها بسلام، كان «أبادول» دامع العينين، وكان الجميع يهللون حوله في سعادة، قُضيَ على السّاحر الملعون «حنطريرة»، وزالت مخاوفهم، وبقي أهل مدينة «كُوِيكُول» في سلام.

أسرع «بيادق الظّلام» نحو «حنطريرة»، وحملوه وتوجهوا به نحو «فجوة الموت»، بسطت خيولهم أجنحتها، وحلّقت بهم وهم يحملونه، ولحق بهم «طارق»، و«خالد»، و«حمزة»، على الخيول الثّلاثة، الأبيض، والأسود، والكُمَيّت ليشهدوا فناء هذا الزنديق الّذي كاد يقضي على تلك الأرواح البريئة. التقمته فجوة الموت، كما التقمت غيره من المُجرمين من قبل، قذف «حمزة» كتاب «القلْقَديس» خلفه كما أوصاه «أبادول» ليهلك ويفنى هذا الشرّ للأبد.

وعاد البيادق في كوكبة مهيبة، وحلّقوا فوق مدينة «كُوِيكُول»، الّتي صارت كالحطام، وقد تراكمت فوق أرضها جثث شعب الـ«كيكلوبس»، وبعد هبوط «بنات الرّيح» بفرسانها على أرض «كُوِيكُول»، أضاءت سماء «الكَنَهْوَر» بضوءٍ أبيض حانٍ، وظهر السراب القطبي فجأة، تجلّت «الفاتامورجانا» مرّةً أخرى!

لاحت لهم مدينة أُخرى تطابق مدينتهم تمامًا، بدت بحدائقها وأبنيتها كالعروس في السّماء تستعدّ لزفافها وهي في كامل زينتها، صورة مُطابقة لـ«كُوِيكُول» الّتي وصلوا إليها أوّل مرّة، تعالت صيحات الدّهشة، أخذوا يفركون أعينهم، لم يُصدّقوا أنّها هُناك، لكنّ «طارق» أراد أن

يُثبت لهم الحقيقة، فأطلق خطّافه وظلّ الحبل يتمدد أمام أعين الجميع، وعندما علِقَ الخطّاف على أرض «كُويكُول» الجديدة، وتشبث به، وتسلّقه أمام أعينهم، وتبعه «خالد»، ثُمّ «سِيفاو»، وحتّى «حمزة» فعلها، ووقف الأربعة على أرضها يلوّحون لهم من أعلى.

قضى «بيادق الظّلام» الكثير من الوقت وهم ينقلون «المستبعدين» إلى «كُويكُول» الجديدة بخيولهم الّتي بسطت أجنحتها لهم بترحاب، وبدأ عهد جديد، وأصبح المستبعدون أحرارًا في وطن خاصّ بهم يحتضنهم، يشعرون فيه بالأمان، وبعد مغادرة آخر شخص لأرض «كُويكُول» المحروقة، اهتزّت أرض «الكَنَهْوَر» وابتلعتها، وكأنّها لم تكن يومًا هناك.

قال «أبادول» وهو يتأمّل أهل المدينة:

- لن يغلب ساحر قلبًا مطمئنًا باليقين، لا سُلطان للسّحر على النّفوس العامرة بالإيمان، لقد تخلّيت عن بعض من يقينك يا «حَيْدَرَة»، اهتزّ إيمانك يا صديقي.

- نعم، فأنا لم أنقذ نفسًا واحدة من تلك النّفوس الّتي كانت تتعذّب تحت أشجار تلك الغابة، فقطعت عهدًا على نفسي، أن أنقذ جميع المهددين بالقتل في رحاب المملكة، لكنني أخطأت.

- لأنّك بحثت عمّن يؤيّدك، ويؤمن بفكرتك، لم تسمع إلّا صوتًا واحدًا، ليتك تحدّثت بصوت مسموع مع باقي حرّاس المكتبة، لا خاب من استشار يا «حَيْدَرَة».

دمعت عينا «حَيْدَرَة»، فأقبل «أبادول» عليه يعانقه، والجميع ينصت إلى حوارهما في حيرة، هناك الكثير من الأسئلة معلّقة فوق رؤوسهم بلا إجابات، أضاف «أبادول»:

- الأمور الآن تختلف عمّا سبق، ولا بدّ من تعديل قوانين «كُويكُول»، فليخبرهم «المحققون» بما وصلوا إليه من معلومات عنهم، وليكن القرار لهم، إن أحبّوا المكوث بـ«كُويكُول» فلهم هذا، امنحهم حق اتخاذ القرار يا «حَيْدَرَة» فهم أحرار، وإن أرادوا العودة لأوطانهم فاتركهم، فهذه حياتهم، وإن استبعدهم من حولهم وقسوا عليهم، فالحياة ضربات، وقد يكون الابتلاء مفتاحًا لرحمة واسعة، وبابا لخيرٍ أعظم.

- والموت.. والقتل؟ وتشويه سمعة الأبرياء؟ وتعذيب اليتامى والمساكين؟

- دورك كبشر التحذير فقط، وليُمنع الظّلم بمواجهته، وليس العكس، وتترك أقدار الله لحكمته، فمن خلقهم أرحم بهم من أيّ مخلوق.

قال «أنس»:

- لا بدّ أن يعرف الجميع بأمر «المحققين» وما يقدّمونه، وليكن عمل «بيادق الظّلام» في النّور، كفى ظُلمة.

وأضاف «كمال»:

- ولتكن «كُويكُول» استراحة للأحرار، كما كانت قديمًا عندما شيّدها الرّومان لمحاربيهم، وجنّة على الأرض، يأوي إليها كلّ محتاج، وكل خائف، وكلّ حزين.

قال «حَيْدَرَة» بصوت مفعم بالقلق:

- فليكن هذا.

تعالت صيحات أهل المدينة، اتّضحت الآن الأُمور المبهمة، وهاهم يشعرون الآن بالحرّية، فمن أراد العودة لدياره سيعود.

وقف «قتادة» مُخاطبًا أهل المدينة وقال بصوته الجهوريّ:

- نحن جميعًا مدينون بالاعتذار للسيّد «أبادول» وعائلته، فقد أسأنا الظنّ بهم، ولم نحسن معاملتهم.

التفّ أهل المدينة حول أفراد عائلة «أبادول»، وكانت الأجواء عامرة بالحبّ والتقدير. قرر«المُحققون» إخبار كلّ واحد من «المستبعدين» بظروفه الخاصّة الّتي دعتهم لاستبعاده عن وطنه لحمايته، وسُيخيّرونه بين البقاء أو العودة للوطن، غادر بعضهم عائدًا لذويه في الحال دون أن يسأل عن شيء، وقام «بيادق الظّلام» بإيصاله بواسطة «بنات الرّيح».

وبقي الكثيرون فقد شعروا بالانتماء للمكان وأحبّوه، فلم يكن خلفهم ما يُبكى عليه، كانوا أغصانًا مبتورة، ووجدوا هنا وشائجَ يصلون بها أطرافهم، وعائلة كبيرة ينتمون إليها، وكان «سِيفاو» سعيدًا بهذا، فهو أيضًا سيبقى هنا، وسيتزوج من «ماسيليا»، طلب يدها للزواج في مشهد بديع أشاع البهجة في الأجواء، وجهه الضّاحك رغم تورّمه وامتلائه بالكدمات، عيناها المشرقتان، ابتسامتها الخجول، وارتباكهما وكأنّ هذا أوّل لقاء لهما، وارتجافة جذعه وهو يتحدّث إلى السيّد «مَاسين» ليطلبها منه كزوجة له فهو زعيم قبيلته الّذي يُجلّه ويحترمه، وهو بمثابة أبٍ لها، صيحتها المكتومة بكفّها الرقيق وهي تراه يلتفت نحوها، ودموع الفرح في عينيها وهي تسمع اسمها يتردد على لسانه، وعناق «سارة» و«نور» لها عندما بارك السيّد «مَاسين» هذا الزّواج، وصياح «طارق»، وضحكات «خالد» و«حمزة»، كان استقبال أهل المدينة للخبر مصدر سرور لهما،

فهم الآن الأهل والقبيلة والسّند، سيقام لهما حفل زفاف كبير على أرض «كُوِيكُول» الجميلة، وقد تعهّد «قتادة» بترتيب الحفل وتجهيزه مع المشرفين، فقد ندم على اتهامه لـ«سِيفاو» بالخيانة، وأراد أن يعتذر منه.

عاد الزّعيم الأمازيغيّ النبيل «مَاسين» بجيشه إلى قبيلته، وقلبه عامر بالحبّ لهذا الشّاب الّذي شهد نشأته وعلم بصلاحه ونقاء سريرته، فقد استطاع أن ينزل من نفسه منازل الحبّ والإكرام لشهامته وحسن خلقه، فكان يتمنّاه زوجًا لابنته، لكنّها الأرزاق، والزّواج رزق! عزم على تأديب زوج ابنته «أكسل»، سيجبره على ردّ المال إلى «سِيفاو» فهذا حقّه، صار يشعر بحمل ثقيل، فزوج ابنته هذا يحتاج لمراقبة شديدة وتقويم.

اقتربت «شَفق» من عائلة «أبادول»، كانت تحمل هريرة صغيرة بين يديها، أقبلت على «مرام» ووضعتها بين كفّيها وأخبرتها أنّها هديّتها لها، وأنّها تستطيع حملها معها إلى الدّيار، فسعدت «مرام» لهذا وقالت لها بامتنان:

- ما اسمها؟

- فلتختاري اسمها بنفسك.

ابتسمت «مرام» وأشرقت عيناها وهي تقول لها:

- ما رأيك في اسم «شَفق»؟

ضحكت «شَفق» لأوّل مرّة منذ لقائها بتلك العائلة، كانت سعيدة باختيار «مرام» لاسمها، أقبل «أنس» على «شَفق» وهي تقف بجوار «مَرام» وقال لها:

- شكرًا لكِ ولوالدك على ما قدّمتماه لنا من عونٍ يا «شَفق».

- اسمي «مُوراي».

ثُمّ ابتسم بحنوٍّ وأضاف:

- أخبره أنني تزوجت من «لؤلؤة»، وأنجبت لي صبيًا جميلًا وأطلقت عليه اسم «يُوسف».

استدار مبتعدًا، وكانت «سارة» تُتابع حوارهما باهتمام شديد، فرفعت صوتها تسأله بفضول:

- هل تزوّج «الزاجل الأزرق» من «زُمرّد»؟

فاستدار وهزّ رأسه مؤكدًا وقال:

- وأولادهما الآن من «المغاتير».

اتّسعت عيناها في سعادة ولاحقته وهي تسأله:

- و«عُبيدة» و«جلاديولس»؟

قال ضاحكًا:

- يا لفضول الفتيات! هما بخير، ولديهما خمس من الأميرات الجميلات، أكبرهنّ في مثل عُمرك يا «سارة».

ثُمّ أضاف بتأثّر:

- أخبري أباك أنني ما زلت أحتفظ بمعطفه.

ومضى «مُوراي»، فقد حان وقت انصراف «المغاتير»، فهناك محارب جديد على وشك الوصول لأرض المملكة، ولا بدّ من استقباله.

-١٨-

«الحرّ النّبيل»

«طارق»..

كان هُناك وجعٌ يتذبذب في صدري، فقد اقترب موعد الرّحيل، سأُفارقهم، وربّما لن أراهم مرّة أخرى. فتّشت عنها بعينيّ، كانت مع أخيها «سليمان» تتحدّث إلى أحد «المغاتير»، وكنت أقتنص النظر إليها لعلّ صورتها تعلق في ذاكرتي عندما أعود لموطني.

لم يطرق الحبّ يومًا شِغاف قلبي، لم أضعف أمام فتاة كما يحدث الآن، حتّى عندما كانت أُمّي ترشّح لي عروسًا كنت أمرّ عليها بعينين باردتين، تمامًا كما أمرّ على صفحة كتاب لا أستسيغ قراءته، وهأنذا اليوم أشعر أنّ قلبي ينسحق.

لا أظنّها سترغب في مغادرة موطنها للانتقال معي إلى الجزائر، فهي شديدة الارتباط بعائلتها، لا بدّ أن أتماسك، سأتغلّب على الأمر، شهر ربّما سيتألّم قلبي فيه، سأمرض.. نعم سأمرض! ستُداهمني الحمّى، وسيغلي رأسي غليان القدر، سأكون يائسًا وحزينًا، ثُمّ في النّهاية سأستسلم وسأتعافى، أو.. ربّما لن أتعافى وسأظلّ أُفكّر بها كالمجنون، يا إلهي.. سيتوقف قلبي إن لم أتزوّجها!

اقتربتْ منّي بلطفٍ وسألتني:

- هل ما زال الجرح يؤلمك؟

كدت أسألها أيّ جرح فيهما، جرح قلبي أم جرح ذراعي، لكنني أجبتها وقد ترنّحت أعطافي:

- قليلًا، سأذهب إلى المستشفى فور وصولي إلى الجزائر، لا بدّ أنّهم سيخيطون الجرح مرّة أخرى، رغم أنّ الطبيب «الحارث» قد عالجه بإتقان.

- آسفة لأنني كُنت سببًا فيما حدث لك.

تأمّلت جرح ذراعي وقُلت لها:

- سيذكّرني دومًا بكِ... أقصد.. بكم.

- يا لها من ذكرى مؤلمة.

ران علينا الصّمت، كان بداخلي طنّ من الكلمات، وددت لو أرمي خطّافًا من تلك الخطاطيف الّتي أحملها، وأهرب بها إلى مدينة مهجورة بأرض«الكَنَهْوَر»، وأبقى معها هناك للأبد، ولكن... كيف! سألتها وأنا أحملق في الأرض أمامي:

- هل من الممكن أن تُسافر فتاة مع زوجها لبلدٍ آخر؟ وتترك عائلتها الّتي تُحبّها، وتعيش معه في وطن جديد، لم تزره أبدًا من قبل؟

احمرّت وجنتاها، وأخذت تفرك أصابعها، كادت تنصرف لولا حضور خالها «أنس» الّذي أجاب عنها قائلًا:

- هذا الأمر يحتاج لُمحاربة شجاعة.

أجفلتُ عندما وجدته يُجيب، لم أتخيّل أنّه يسمعنا، شعرت بارتباكٍ شديد، لكنّه منحني نظرة حانية وابتسامة أبٍ وكُنت أحتاج هذا بشدّة. أطرقت «سارة» هُنيهة ثُمّ قالت:

- لا شكّ أنّه قرار صعب.

قُلت بخفوت:

- أعرف هذا.

قال السيّد «أنس» بهدوء وهو ينقل عينيه بين وجهينا:

- لو كانت حقًا تُحبّه ستُضحّي وترحل معه، ولو كان حقًا يُحبّها سيكون لها الأب والأخ والابن، والزوج الحبيب الصّالح، سيكون هو وطنها، كانت أمّي تُخبر أختي «حبيبة» دومًا أنّ وطن المرأة زوجها.

لاح وميض من الأمل أمام عينيّ فقلت:

- إذًا هو ممكن؟

قال السيّد «أنس»:

- لمن يستحقّ.

قُلت متلعثمًا:

- ومن هذا الّذي يستحق أن تُضحّي تلك الفتاة الجميلة.. أقصد تلك الفتاة الرّقيقة، بل أقصد...

شعرت بحرج شديد مما قلته للتوّ، انعقد لساني، واكتشفت أنّ قلبي الّذي أتباهى دومًا أنه من حديد قد بدأ ينصهر، سكنتْ مكانها بجوار خالها «أنس»، فاقتربت وجلست بجواره على الجانب الآخر، وتوقف

ثلاثتنا عن الكلام، ورحنا نراقب من حولنا في سكون، كُنت أراهم وأسمعهم، لكنني أحلّق في عالم آخر، كان صوت أنفاسها اللطيف أعلى من صوت أهل المدينة حولي، وكان كيانها الرقيق أكثر حضورًا من كلّ تلك الجيوش الّتي رأيتها هنا، خشيت أن يستحيل قلبي لأرض «الكَنَهْوَر» بعد فراقنا، من أين لي ببنات الرّيح لتحملني من الجزائر لمصر لأراها كلّ يوم؟

أقبلت «فرح» مع السيّد «كمال»، وكان «خالد» يتبعهما، قالت بحماس شديد وهي تعدّ على أصابعها:

- «طارق بن زياد»، و«يوسف بن تاشفين»، و«عباس بن فرناس»، و«ابن بطوطة» والكثيرون غيرهم من الأمازيغ، لقد أخبرني جدّي «كمال» بهذا.

أضاف «خالد» قائلًا:

- الجيش الّذي فتح الأندلس كان من الأمازيغ، ثُم لحق بهم جيش العرب، وكان فتحًا عظيمًا يحتضن المسلمين على اختلاف أصولهم.

قالت «فرح» وهي تشير إلى المغاتير وهم يغادرون:

- ذكّرني جيش الأمازيغ وجيش المغاتير اليوم بهم.

ثُمّ لمعت عيناها وهي تسألني بفضول:

- معنى كلمة «أمازيغ»؟

- تعني الحرّ النبيل.

قال السيّد «كمال» وهو يرنو إليّ بعينيه العميقتين:

فكانت بمثابة حديث طويل! وكانت أُمّه تقرأه ككتاب مفتوح وتدرك خبايا نفسه، قال موجهًا كلامه لـ«نور»:

- آسف على كلّ لحظة ألم مررتِ بها بسببي، وعلى كلّ ما ذُقتِه من عذاب على يد «رَيْهُقانة».

- لا ذنب لك فيما حدث، كانت هي من فعلت، وكُنت أضعف من أن أواجهها، استسلمت لأحزاني فكنت فريسة سهلة لها، ولرفقة السّوء الّتي قادتني إليها.

- سيظلّ غياب والديك يوجعك، لكننا في النّهاية سنلحق بهم، هكذا الحياة.

ارتعشت ابتسامة على شفتيها وهي تقول:

- لعلّ وجودي بينكم كان رحمة لي، فقد التقيتُ هنا بـ«ماسيليا»، ولقّنتني درسًا لن أنساه أبدًا.

عقد «حمزة» حاجبيه وقال:

- سمعتك وأنت ترددين الدّعاء أمام فجوة الموت، كُنت قريبًا منك، حاولت أن أساعدك لكنني.. كُنت أسيرًا!

- لم تكن أسيرًا وحدك يا «حمزة»، كُنّا جميعًا كذلك، ولكلّ منّا أغلاله الّتي كانت تُقيّده.

- ماذا ستفعلين عند عودتك؟

- سأعود لبيت جدّتي لعل قلبها يرقّ لي، سيكون عمّي غاضبًا بالتّأكيد، أكاد أحفظ كلّ كلمة سيرددها عندما يراني، لكنني سأتحمّل كلماته القاسية، سأكون مُحاربة مثلكم!

- حسنًا أيّتها المُحاربة..تحلّي بالصبر وبالشّجاعة.

- ليتني كُنت فردًا من عائلتكم يا «حمزة»، أغبطكم، فلديكم رباط أُسريّ قويّ، أنتم رائعون!

تردد «حمزة» هُنيهة، كانت عيناه تتذبذبان، طارت نظرة من نظراته في وجهها، التفت نحو أُمّه الّتي كانت تُطرق السّمع لكنّها أشاحت بعينيها عنه، فرك جبينه بأصابعه المُرتعشة وقال لـ«نور»:

- البعض يمرّون من خلالنا بأرواحهم فيتركون أثرًا جميلًا، وبصمة خفيّة، شفرات لا تفكّ ألغازها، وتظلّ أبواب أرواحنا مفتوحة لهم، يتسللون إلى صدورنا في أيّ وقت يحلو لهم، فجأة دون تنبيه، وخفية بلا استئذان، حضورهم أثير، وكأنّ صدورنا غدت بُيوتًا لهم! وإن غابوا ستظلّ أطيافهم تجول في الحنايا وبين الضّلوع، نستأنس بها، ونستعذب الذّكريات، حتّى نلقاهم مرّة أخرى.

اضطربت «نور»، كانت كلماته تحمل الكثير من المشاعر، لكنّه لم يُصرّح بشيء، تلفّت في حرج، ثُمّ سعل بانفعال وهو يبتعد. ودّت لو عاد وكرر على مسامعها نفس الكلمات مرّة أخرى، لكنّه لم يفعل، كان يبدو مُتعبًا، ويحمل الكثير من الهموم على عاتقه، التفتت تجاه «مرام» الّتي استدارت لتخفي عينيها الدّامعتين، ها هو ابنها يقع في الحبّ، وكانت تعلم أنّه يحتاج إلى المزيد من الوقت ليكون أهلًا لتلك الخطوة، وقد طرح مشاعره في حضورها مستغيثًا بها بنظرة عين تشي بالكثير، وكان هذا ديدنه منذ صغره. عقدت «مرام» العزم على أن تدعمه حتّى ينال ما تتوق إليه نفسه، قبضت بكفّها الحاني على يد «نور»، ومنحتها ابتسامة دافئة، وغمرتهما السّكينة.



- ١٩ -

«أبادول»

ذهب «أبادول» إلى المكتبة العظمى مع أفراد العائلة، كان اللقاء بحرّاس المكتبة رائعًا وغلب عليه المظهر الاحتفاليّ، استطاعوا استيعاب زميلهم «حَيْدَرَة»، وتفهّموا سبب ما أقدم عليه. سعدت السيّدة «دولت» بلقاء «الحوراء»، ورأت أخيرًا بومتها «الشّهباء»، كانت الصّقور تُحلّق فوق المكتبة العظمى في نشاط ملحوظ، وكان «الرّمادي» سعيدًا برؤية أفراد العائلة الّتي يُحبّها. اجتمع حرّاس المكتبة بقاعة خاصّة داخل المكتبة، دخلت «الحوراء» وانضمّت لمجلسهم، ودلف «أبادول» وخلفه أفراد عائلته، هُناك أمرٌ هام سيعرفونه منه الآن. وقف «أبادول» أمام ولده «كمال» ووضع يديه على كتفيه وقال:

- حان الوقت يا ولدي.

- وقت ماذا؟!

التفت نحو باقي حرّاس المكتبة، وسار نحوهم، فأقبل أحدهم نحو «أبادول» وهو يحمل قلنسوة تُشبه تلك الّتي يرتدونها جميعا، وألبسها لـ«أبادول»، فغر «كمال» فاه، وأقبل «أنس» يتساءل:

- ما الّذي يحدث يا جدّي؟

قال «أبادول» بتأثّر:

- كل هؤلاء ضحّوا مثلي في لحظة صادقة من لحظات حياتهم نحن نُقدّم لملكة البلاغة إثباتًا أننا سنبقى هُنا، ونترك أوطاننا لتكون هي الوطن، يحدث هذا عندما نواجه بؤرة للشرّ هنا، فيعيننا الله على اقتلاع رأس هذا الشرّ، لم يكن قتلي لـ«حنطريرة» بسبب قوّتي، بل هو بفضل الله وحده، ولهذا سأكون حارسًا من حُرّاس المكتبة العظمى، فجميع هؤلاء الحرّاس من عالمنا، من بقاع مختلفة، وبلاد مختلفة.

- مستحيل!

أخذ أفراد العائلة يرددون الكلمة، وكان «طارق» يقف بينهم مُتعجبًا مما يسمعه، لم يُخبره والده ولا جدّه أبدًا عن تلك الحقيقة! أقبل «حَيْدَرَة»، وكان يحمل خنجرًا رفيعًا في يده، ووقف أمامهم وجرح يده جرحًا صغيرًا ليُثبت لهم أنّ دماءه حمراء، وتكرر الأمر من بعض الحُرّاس الآخرين، عادوا لمجالسهم وهم يضمّدون كفوفهم، ابتسم «حَيْدَرَة» قائلًا:

- اضطررنا لهذا لنُطمئنكم، فدومًا يأتي الحارس وحده، أمّا هذه المرّة فالعائلة بأكملها بيننا، كُنتم دومًا عائلة مميّزة.

قال «كمال» وقد شعر بانقباض في صدره:

- كيف سنعود بدونك يا أبي؟

سالت الدّموع من عينه فالتقطها «ابادول» بكفّه الحانية وقال:

- هكذا الحياة يا بنيّ، رسائل تُسلّم من جيل لجيل،وحان دورك، صرت الآن كبير عائلة «أبادول» هناك.

- ولكن يا أبي.. كيف هذا؟

توالت العبرات من عيون أفراد العائلة، حاول «أبادول» إخفاء الحزن الّذي كان يعتمل في صدره، ارتجفت شفتاه وهو يسير بتؤدة بينهم، كان ينقل ناظريه بين وجوههم بوجلٍ وإشفاق، وقف أمام «دولت» الّتي كانت تنظر إليه بإجلال والدّموع تهيم من عينيها، بادلها نظرة طويلة وعميقة، حملت الكثير من معاني الأبوّة والاحترام والتّقدير، هزّت رأسها وكأنّها تُدرك كلّ تلك المعاني والكلمات الّتي لم ينطق بها!

قرأت وجهه في صمتٍ بليغ، وتذكّرت كلّ وصاياه لها لكي تعتني بزوجها، وبيتها منذ أن دخلت بيتهم لأوّل مرة وهي شابّة يافعة، رمش بعينيه وهزّ رأسه هو الآخر، وكانت دومًا تفطِن لما يرمي إليه. استدار ليُطلّ الحنينُ من عينيه الدّامعتين وهو يُربّت على كتف حفيده الأكبر «أنس» الّذي حاز على سُويداء قلبه، وقال له بنبرة دافئة:

- تُشبهني كثيرًا يا «أنس»، كانت رحلتنا هذه المرّة أعمق من كلّ اللحظات الّتي عشناها معًا.

ثُمّ صمت هُنيهة وأضاف وهو يغالب دموعه ويحاول رسم ابتسامة على شفتيه:

- أظنّك تشتاق إلى العجوز «ناردين»، ما زالت هناك، ضعُفت كثيرًا، السنون نحلت جسدها الضّعيف نحلًا، وبلغت من الكِبر عتيًّا، والآن يُلازمها أحد أحفادها، اركب إحدى بنات الرّيح مع «مَرام»، مرّا بجوار كوخها اللطيف وسط الغابة المسحورة، وألقيا عليها السّلام، وتناولا الحساء من يديها.

ثُمّ أمسك بيدي «مرام» وقال لها:

- كُنتِ طوق النّجاة له، أتذكرين؟ وستظلين يابنتي طوق النّجاة لأحبابك.

اقترب منه «حمزة» فأحاط كتفيه بذراعه، وهمس في أذنه:

- اخلع عنك معطف اليأس يا ولدي، وتدثّر باليقين، وأكمل رحلتك في الحياة، وإيّاك أن تترك النهايات مفتوحة، وانتبه للناس، فالطباع تختلف، والنّاس معادن، وبعضهم أحجار كريمة فلا تفرّط بهم!

ثُمّ رنا إلى «نور» وقال لها:

- طاردك الحزن طويلًا يابنتي، أعلم أنّك ما زلت تُصارعين أحزانك، وستثبتين أمام المحن كالطود العظيم، فهكذا المُحاربون، وقد صرتِ واحدة منهم، وإن لم يخترك كتاب من كُتب مملكة البلاغة!

ثُمّ سار خطوة نحو «خالد» وعقد حاجبيه وهو يقول له بجدّيةٍ شديدة:

- لكلّ منا خيوله العشرة يا بنيّ، ففينا القوّة، والحكمة، والجمال، والشجاعة، والإخلاص، والعاطفة، والنُبل، وقد يكون فينا الضعف، والتمرّد، والغضب، فكن فارسها العربيّ الأصيل وروّضها يا «خالد».

هرعت إليه «فرح» وألقت بنفسها في حضنه فمسح على رأسها وقال باسمًا:

- قد تهمس لك «الحورائيّات» بشيءٍ ما! فدوّني ما يهمسون لكِ به واحذري، فربّما تُفتح لك دروبٌ كدروب «أوبال»، فتخيري متى تركضين فيها، وانتبهي، فبعض الوجوه هناك لنفوس قبيحة لكنّها ترتدي أقنعة!

بدأت «سارة» تبكي بحرقة، فقال وهو يتأمّل وجهها اللطيف:

- سأشتاق إليكِ يا «سارة».

انحلّ عقد مشاعره، وانفرطت الدّموع من عينيه، وفتح ذراعيه لحفيدته الّتي هرعت إلى حضنه باكية، كانت أكثر أفراد العائلة اهتمامًا به في مرضه، وكان لها مكانة خاصّة لديه.

همس لها وهو يمسح وجهه بيديه المُرتعشتين:

- سنبقى معًا يدًا واحدة، فلدينا الكثير من المعارك لنفوز بها، لم تنته مهامّنا بعد! وسأتردد على البيت باستمرار، لكي أقضي العديد من الأُمسيات معكم إن شاء الله، وسنسهر لنتسامر معًا حتّى يطلع الفجر كما اعتدنا يا حبّة القلب.

رفع صوته يُحدّث الجميع قائلًا:

- تذكّروا دومًا أننا جميعًا مُحاربون، ولكلّ منّا معركته الخاصّة التي سيخوضها في الحياة.

ثُمّ انحنى أمام «سُليمان» وقال وعيناه تفيضان بالحنان:

- يومًا ما ستبلغ العشرين إن شاء الله، وستعود إلى أرض مملكة البلاغة وحدك، فكن شجاعًا، حلّق كما يحلّق «الرّمادي» بجناحيه المزركشين، افتح عينيك على وسعهما كما «الشّهباء» تفعل وراقب النّاس، وكُن من«المغاتير»، ساعد النّاس دون أن تنتظر منهم الشكر.

هزّ رأسه بثقةٍ وهو يقول لابنه «كمال»:

- لستُ قلقًا عليك، فلدينا أحفادنا، وقد بارك الله لنا فيهم والحمد لله.

كان «طارق» يراقبهم في صمت، تلاقت عيناه بعيني «أبادول»، فأشار إليه وهو يطالعه بنظرات يملؤها الإعجاب وقال له:

- يا لك من مُحارب! أعجبني بأسك، وجسارتك، أنت تؤمن بالحرّية، ولهذا كُنت هنا منذ البداية، لتساعد «سِيفاو» ليتحرر من أسر الماضي، ولتساعد «حمزة» ليتحرر من أسر العشق، ولتساعد عائلتنا على التحرر من أسر أرض «الكَنَهْوَر»، ولتكون عونًا للمستبعدين في «كُويكُول» ليتحرروا جميعًا من أسر فكرة علقت برأس «حَيْدَرَة»، أحسنت يا بنيّ.

ثُمّ التفت «أبادول» وهو يرفع صوته قائلًا:

- سأعود معكم لديارنا هذه المرّة فقط، ثُمّ أنتقل إلى المكتبة العظمى في وقت لاحق، لا بدّ أن أخبركم ببعض خبايا البيت، فسيكون في عُهدتكم.

وقف أفراد العائلة يتأمّلون جدّهم الأكبر «أبادول»، كيف لم يلاحظوا أنّه صار نسخة منهم، وقد بدت لحيته أكثر طولًا من ذي قبل، وازداد بياضها بشكلٍ لافت للنظر، فالتهمت وجهه وبقيت عيناه الدّافئتان تطلّان على الجميع بحبٍّ، بينما تلوح على جبهته الواسعة سجدة رمادية خفيفة لا يشك الناظر إليها أنها جبهة عابد كما كانت جباههم جميعًا.

كان لحرّاس المكتبة العظمى شيء يجمعهم، في الفكر، والقلب، والعزيمة، وحتّى في هيئاتهم، رجال يتشابهون في الخلقة، لهم سحنة طيبة مريحة، على رأس الطاولة كان أكبرهم عمرًا يجلس بوقار تحتل وجهه

ابتسامة مشرقة، استمعوا لكلمة كبيرهم، ثُمّ لكلمة «أبادول»، ولدعائهم لكلّ حرّاس المكتبة الّذين قد توفّاهم الله خلال السّنوات الماضية، وقد كان كلّ منهم مُحاربًا في بداية زيارته لمملكة البلاغة، والآن يؤدي باقي رسالته كحارس للتاريخ، وللقيم، وللكتب وما فيها، ويرعى المحاربين الجُدد، ويُشرف على مهامّهم.

لا بدّ من عودة العائلة إلى الدّيار، فقد طال مغيبهم عن «يُوسف» و«حبيبة»، تمّت مراسم تسليم كتاب «كُويكُول»، وكان «طارق» أيضًا يستعدّ للرّحيل، كان وداعه ثقيلًا على أنفسهم جميعًا، فقد تعلّقوا به، كما تعلّق هو بهم. كانت «سارة» تشعر بالذّنب كلّما وقعت عيناها على ذراعه، اعتذرت منه مرّة أخرى مشيرة لجُرحه، وقالت له:

- تَنْمِيرتْ[1].

ابتسم لها ولمعت عيناه، وودعها وهو يشعر أنّ أحدهم يسحب روحه من بين جنبيه، عانقه «أنس» وربّت على صدره وهمس له:

- أُدرك هذا الشّعور جيدًا، فقد عشته منذ سنوات.

- أرجو أن أنال ما نلته يا عمّاه.

ابتسم «أنس» بلطف وقال له:

- أعطها مساحة كافية لتتخذ قرارها وهي مطمئنّة.

- سأظلّ دومًا أنتظر.

ودعهم جميعًا بقلب يختلج، على وعدٍ بالتّواصل باستمرار، وكان «خالد» و«حمزة» قد أخبراه أنّهما سيزوران الجزائر في أقرب فرصة.

---

(١) تَنْمِيرتْ كلمة أمازيغية تعني شكرًا.

حمله الصّقر إلى بلاده، وعادت عائلة «أبادول» تحملها الصّقور تباعًا لغرفة الأسرار، وبقي «أبادول» للنّهاية، وفور وصوله أسرع مناديًا على خادمه المخلص «راغب»، وكان يحمل همّ إخباره بأنّه سينتقل إلى مملكة البلاغة، بدا البيت ساكنًا، فأجفل، وجد أفراد العائلة مجتمعين حول كرسيّه أمام المدفأة الّتي انطفأت نارها واستحالت رمادًا بعد خروجهم من البيت، اقترب منهم بخطوات مُترددة، كان «راغب» ساكنا على الكُرسي كتمثال من الشّمع، أدرك من النظرة الأولى أنّه فارق الحياة، فأجهش «أبادول» بالبكاء، لقد رحل صديقه العزيز، ومستشاره الأمين، وصندوق أسراره، وكأنّه يأبي أن يعيش بدونه في هذا البيت.

كانت «شَفق» تعلم بوفاته منذ اللحظة الأولى، وأخبرت «أنس» على الفور، فطلب منها إخفاء الأمرعنهم حتّى لا تُحزنهم، ولهذا أعادت البيت في الحال إلى الفيّوم حتّى لا يتحوّل إلى مقبرة. مرّت لحظات ثقيلة، كان «أبادول» فيها هو أكثر من يتألّم. الموتُ حقٌّ يجري على حيواتنا فنقف عاجزين أمامه، نسترجع ونسلم أحبابنا للتراب، ونحن على يقين أننا سنكون مكانهم يوما ما، ونرفع أبصارنا آملين في نفحة من نفحات رحمة الله، ونعود وألم الفراق ينخُر في حنايانا وأفئدتنا، أرواحنا تهترئ وكأنها ثوب من حرير علق بغصن زهرة كثيرة الأشواك وتم انتزاعه بقوة! جراح يعجز الأطبّاء عن وصف دوائها، ندبة غائرة تتوسّط الفؤاد، يظل وجعها للأبد، لا يزول، ولا يُنسى، لكننا نتعايش معه عندما يُسكب الصبر على قلوبنا فنتجلّد ونصبر ونستمر في الحياة.

على أرض «الكَنَهْوَر»، وفي أرض خالية من البشر، كان أفراد عائلة «أولاد عيدون» يسيرون ببطء، وقد أعياهم طول المَسير، ضلّوا طريقهم

بعد أن هربوا من مدينة «كُوِيكُول» منذ أيّام، رغم مهاراتهم وخفّة حركاتهم، وقوّة أبدانهم، لم يتمكّنوا من حلّ أُحجية أرض «الكَنَهْوَر» الّتي كانت تغيّر خريطتها باستمرار.

لم يتمكّنوا حتّى من العودة إلى «كُوِيكُول» مرّة أخرى، فكان غيابهم سببًا في نجاة عائلة «أبادول»، بل في نجاة أهل المدينة جميعًا وهم لا يشعرون! فخروجهم هذا أتاح لعائلة «أبادول» الفرصة لتقديم العون للمستبعدين، عثر عليهم «بيادق الظّلام» الّذين كانوا يبحثون عنهم منذ اكتشاف حقيقة عائلة «أبادول»، وهذه المرّة خيّروهم بين العودة لديارهم، أو الذّهاب لمدينة «كُوِيكُول» مرّة أخرى، شرحوا لهم الأسباب، وأخبروهم بما حدث بعد خروجهم، فاختاروا العودة لديارهم، والضّرب على أيادي الظّالمين، فقد يكون في معاركنا الّتي نخوضها معهم حيوات كثيرة للآخرين، وإن كان مصيرنا هو الموت على أياديهم.

وها هو بيت عائلة «أبادول» يُطلّ بشموخ وسط البنايات العالية في هذا الشّارع القابع بمدينة «الفيّوم»، عادت الكهرباء، وأضاءت المصابيح، واختفت جثّة «حسّان» من الحديقة كما اختفت الدّماء عن الأرض، فهناك من اعتنى بالأمر! وبدأ رجال العائلة يهيئون «راغب» لينتقل إلى مثواه تحت التُّراب، لاحقًا بزوجته، وتاركًا فراغًا مؤلمًا في قلوبهم جميعًا.

أين «حبيبة»، وأين «يُوسف»، كان هذا هو السؤال الّذي يحيّر الجميع، حاولوا الاتصال بهما، لم يُجيبا على هواتفهما النّقالة، جلسوا في حيرة، وباتوا ليلتين والقلق يقتات على قلوبهم ورؤوسهم، وفي اليوم الثّالث وعندما انتصف الليل، دقّ الهاتف الأرضيّ، فهرولوا جميعًا نحوه، كان «يُوسف» على الطرف الآخر، وكان في «الجزائر» مع «حبيبة»! حيث عثرا على أوراق رواية عتيقة كُتبت باللغة الأمازيغية، وبعد بحث مطوّل بعد

ترجمة عنوانها، وصل «يُوسف» لخبر عن كاتب آخر من الجزائر، كان يكتب رواية مطابقة لها في العنوان والأحداث، تحكي قصّة عائلة أمازيغيّة ضلّت الطريق في أرض غريبة ومهجورة وخالية من البشر، فوقعوا في الأَسر، وكان مؤلف تلك الرّواية قد توفّاه الله منذ عام، فقرر «يوسف» السّفر إلى زوجة هذا الكاتب في الحال هو و«حبيبة»، واستأذنها في إكمال رواية زوجها، وقد قام بالفعل بإنهائها خلال الليلتين الماضيتين.

حلّقت سحابات السّعادة فوق بيت «أبادول»، وبدأ «أنس» يحكي لـ«يُوسف» عن أرض «الكَنَهْوَر»، وكيف أنّه بإكماله لتلك الرّواية قد حطّم جدار «الكَنَهْوَر»، فالرّواية قد اكتملت، رغم موت كاتبها، وأنّه لو كان قد بقي بمصر هو و«حبيبة» لرأى كلّ منهما البيت، ولدخلاه بأنفسهما، فقد أعادته «شَفق» بعد وفاة «راغب».

طال الحديث بينهما على الهاتف الأرضيّ، وعلى الهاتف الجوّال، بقيت «سارة» طوال الليل تروي لأمّها تفاصيل رحلتهم، أخبرتها عن كلّ شيء، وحدّثتها عن «طارق»، وما فعله من أجلها، طلبت «حبيبة» رقم هاتفه من «خالد»، والتقت به هي و«يُوسف» في اليوم التّالي، وذهب الثّلاثة لزيارة مدينة «كُويكُول».

عادت «نور» لبيت جدّتها ثُمّ أصرّت على الانتقال للإقامة مع خالتها، الّتي أبدت امتنانًا لعائلة «أبادول» عندما أخبروها أنّ «نور» طرقت باب بيتهم وكانت مريضة فاعتنوا بها! ما زال أقاربها يظنونها تعاني من ضلالات نفسيّة، لم تخبر«نور» خالتها عن مملكة البلاغة، فهي لن تُصدقّ ما ستسمعه منها، وقد تتهمها بالجنون.



-٢٠-

الكثير من الحبّ، والكثير من الدّموع!

«خالد»..

استغرق القرار عامًا كاملًا قبل أن تعلن «سارة» موافقتها على الزّواج من «طارق»، الّذي لم يتوقّف عن تكرار طلبه على فترات متقاربة، تارة بالتلميح لأبي، وتارة بالتصريح لي، وتارة يوصي «حمزة» أن يتدخّل، وأخيرًا لجأ إلى أمّي الّتي كانت تُحبّه، فصوته وهو يناديها وهي تقف أمام «رَيَهُقانة» لا يزال يتردد في أذنيها، كانت تبتسم وتردد جملته بالأمازيغيّة مثلما قالها تمامًا «أيا أيما»، واجتهدت أُمّي حتى أقنعت عمّتي بالموافقة، وعندها صرّحت «سارة» بقبولها للزواج منه، وهي تُكفكف دموع أُمّها.

كنت أشعر بالسّعادة وأنا أتأمّل «طارق» وعيناه تقطران حبًا وهو ينظر لعيني «سارة»، بينما هي تتخبّط في حياء وقد كست الحمرة وجنتيها، كانا لا يتحدّثان كثيرًا، قامت نظراتهما المتمازجة مقام اللسان، عانقها بفستانها الأبيض فبدا وكأنّه يعانق سحابة من سُحب «الكَنَهْوَر» الّتي رأيناها تتدحرج كاللؤلؤ في سماء مملكة البلاغة، داهمني شعور بالحنين، بالاشتياق، بالوحدة، بالحاجة إلى عروس تُحبّني وأُحبّها! كدت أركض نحو أبي وأصيح «أريد أن أتزوج الآن»!

يبدو أنّ الحبّ جميل، فقد كان زفاف «سِيفاو» و«ماسيليا» جميلًا قبل عام مضى ونحن في «كُوِيكُول»، وكان أجملَ ما فيه الرّقص بالسّيوف،

لقد رقصتُ حينها معهم أنا و«حمزة»، و«قتادة»، و«تميم». كان زفاف «سارة» إلى «طارق» جميلا في مصر، كانت تتلألأ كالكوكب المضيء وهي بفستانها الأبيض، كما كان زفافهما جميلًا في الجزائر وهما يرتديان الزيّ التقليديّ الجزائريّ، فقد سافرنا جميعًا معهما، وقضينا وقتًا ممتعًا هناك، كانت «فرح» جميلة وهي تدور بردائها الأزرق، وكان «سُليمان» مضحكًا وهو يُراقب كلّ شيء بفضول شديد.

امتدّ حفل الزفاف لعدّة أيام هناك، اليوم الأول كان بهيجًا، ضايفونا فيه بصنوف الطعام الشهيّة والمختلفة، طُبخ الحمّص، وذُبحت الكِباش، وأكلنا كثيرًا، أما اليوم التالي أخبرتني أمي أنه مُخصص لنقش الحنّاء على كفّي العروس والفتيات، في نهاية اليوم اجتمعت العائلتين، ووقف «طارق» أمامنا جميعا وشرب حليبًا طازجًا وسقى «سارة» بعده، ثم شرِبت العذراوات أيضًا خلفهما ووقفت الأمهات تلهجُ ألسنتهن بالدعوات، في اليوم الثالث خرجت إلينا «سارة» متستّرةً برداءٍ أبيض سابغ وجميلٍ يسمّونه «بُرنُوس السّتر» ترتديه العروس وهي في طريقها لبيتِ زوجها، أشرقت عينا «طارق» عندما رآها به، غمرتهما السّكينة، وخيّم على رأسيهما الحبّ. عدنا إلى مصر، وبقيت قطعة من عائلتنا بالجزائر، في بيت عائلة من المُحاربين.

لم تتوقف عمّتي «حبيبة» عن البكاء، كان لقاؤها هي وزوجها بـ«طارق» في الجزائر سببًا لإتمام تلك الزّيجة، فلو لم يره عمّي «يُوسف» وسط أسرته ويطمئنّ إليهم لرفض الأمر بتصميم شديد، فتلك ابنته الوحيدة، وهو لا يرغب في فراقها. ستدرس «سارة» بالجزائر، في نفس الجامعة الّتي يُدرّس فيها «طارق»، وستزورنا كثيرًا، هكذا وعدنا.

سأفتقده كثيرًا، وسأفتقد حسّه الفُكاهي وروحه المرحة، وعباراته السّاخرة الّتي كان يُرددها دومًا.

لاحظت اهتمام أخي «حمزة» بـ«نور»، وقد صارت الآن أفضل حالًا من ذي قبل. كان بين قلبها وقلبه رباط متين، وبرعمًا أخضر لنبتة حب تشقّ طريقها للنّور، ولكن هناك مسافات لا بدّ أن تُقطع أولًا، فقد رأى «حمزة» أنّ الوقت غير مناسب لها وله، فابتلع الكثير من الكلمات على مضض، لعلّ عامًا أو عامين ينقلانه من حال إلى حال، وحان وقت انتباهه لدراسته، وكذلك هي، لكنّه كان سعيدًا بتواصلها الدّائم مع أمّي، وكان ينتظر هذا اليوم الّذي تأتي فيه لزيارتنا، وكنت أرى هذا الحبّ يدفعه للأمام، فصار الآن لديه هدف يسعى إليه.

تغيّرنا جميعًا، شاب شعر رأس أبي قبل الأوان، وازدادت أُمّي حنانًا على حنانها. ترك السيّد «راغب» فراغًا بالبيت، لكنّ البيت بقي على نظامه، فأمّي وعمّتي تهتّمان بكلّ صغيرة وكبيرة فيه. شعرت أنّ جدّي «كمال» قد هَرِمَ فجأة، وضعفت بنية جدّتي كثيرًا، لكنّها كانت سعيدة بزيارة مملكة البلاغة، فقد كانت تشعر بالغيرة عندما نحكي لها عن مغامراتنا هناك، أمّا الآن فقد رأت بعينيها كلّ شيء.

القطّة السوداء تتبع أُمّي باستمرار، أُعاملها دائمًا بحذر، وكثيرًا ما أطالع عينيها الخضراوين بنظرات يملؤها الشكّ، مما يضحك جميع من بالبيت منّي. كان «أبادول» قد زارنا مرّة واحدة خلال هذا العام، وكانت مفاجأة رائعة لنا، بدا غامضًا ولم يُخبرنا عمّا يفعله في المكتبة العظمى، وانصرف فجأة كما زارنا فجأة! قبل أن نستيقظ من النّوم في اليوم التّالي.

وبعد شهور، وفي ليلة من ليالي الشّتاء الممطرة، كنّا نتحلّق حول جدّي «كمال» وهو يُعد الكستناء لنا وهي تفرقع فوق نار المدفأة، عندما تناهى إلى مسامعنا أصوات جلبة من غرفة الأشباح بالطّابق العلوي، يبدو أنّ «أبادول» قد وصل في زيارته الثّانية والمفاجئة لنا، أسرعنا نحو غرفة الأشباح نتسابق على الدرج لنفوز بعناقه، لكنّه لم يكن هو!

كان شابًا ثلاثينيًا يبدو أنّه قد خرج من شجارٍ عنيف للتوّ، فأحد أكمام قميصه الأنيق ممزّق، وعلى جبينه أثر لجرح حديث، حدّق في وجوهنا بنظرات غامضة، قال أبي وهو يتمعّن في ملامحه:

- هل أنت من المُحاربين؟

قال الشّاب وعيناه تسبحان في حيرة:

- بل من المُستكشفين.

تسارعت دقّات قلوبنا، وران علينا صمت مهيب!

تمّت